ق. افاناسييف

اسس الفلسفة الماركسية

II

ترجمة: عبد الرزاق الصافي

الفارابي

ڤ. افاناسييف

أسس الفلسفة الماركسية

المادية التاريخية

دار الفارابي
بيروت

تنبيه من مكتبة الشيوعيين العرب !

هذا الكتاب ليس من نسخ الصوت الشيوعي، بل من نسخ آخرين. وقد وجده الصوت الشيوعي اثناء بحثه في الإنترنت. وسعيا من اجل تحقيق اقصى فائدة من هذا المؤلف، قامت مكتبة الشيوعيين العرب بما يلي قبل نشره في موقعها:

١) تطهير الكتاب من كل الفقرات التحريفية التي تضمنت افكار شيوعية الخائن خروشوف المزيفة؛
٢) تطهير الكتاب من افكار شوفينية الدولة السوفيياتية العظيمة؛
٣) تطهير الكتاب من بعض الفقرات التي اشتملت على مبالغات خرافية عن القدرات الاقتصادية للاتحاد السوفيياتي السابق.

وقد تم اجراء التطهير من خلال:

١) حذف ومسح الفقرات ذات الصلة؛
٢) ازالة بعض صفحات الكتاب؛
٣) اعادة صياغة بعض الفقرات بما يقلب معناها التحريفي الاصلي ويجعلها متفقة مع النهج الماركسي – اللينيني الثوري.

لذا اقتضى التنويه.

الصوت الشيوعي

القسم الثانـــي

المــادية التاريخية

الفصول ٩ ـ ١٨

الفصل التاسع

ماذا تبحث المادية التاريخية ؟

ان المأثرة العلمية العظيمة لمؤسسي الماركسية تكمن في انهما كشفا الطابع المادي الدياليكتيكي ليس لتطور الطبيعة فحسب ، بل **المجتمع** ايضا . وبهذا اوجدا النظريـة العلمية الوحيدة عن التطور الاجتمـاعي ــ **المـادية التاريخية** . وفيما يلي سنقدم عرضا مناسبا للمادية التاريخية .

١ ٠ ظهور المادية التاريخية ــ انقلاب ثوري في وجهات النظر تجاه المجتمع

ان القضايا المتعلقة بكيفية تطور المجتمع البشري . وماذا يسير هـذا التطور ، وهل ان التغيرات التي تحدث فيه عفوية ام يمليها تأثير اسباب ضرورية ، وقوانين موضوعية ، ان هذه القضايـا شغلت التفكير منذ امد بعيد . وما دام تطور المجتمع ناشيء عن اسباب ، فما هو السبب الرئيسي ، الاساسي للحياة الاجتماعية ؟ هذه القضايا وكثير غيرها لـم تظهر بشكل عفوي : فالانسان يعيش في المجتمع ، ويرتبط بروابط كثيرة ولا يمكن ان لا يشغله مصير المجتمع والطرق التي يتطور بها .

ان العلماء ادلوا بالعديد من الاراء الصحيحة عن سير التطور الاجتماعي، منذ ما قبل ظهور الماركسية . فالماديون الفرنسيون في القرن الثامن عشر مثلا اكدوا بـأن الانسان ووجهات نظـره وسلوكه انما هي نتيجة لتأثير الوسط الاجتماعي . ولاحظ المؤرخون البورجوازيون الفرنسيون (كيزو

وتييري ومينيه) لاحظوا وجود طبقات متعارضة وصراع طبقي في المجتمع وحاول الاقتصاديان الانجليزيان سميث وريكاردو ان يكشفا اسباب وجود الطبقات في الاقتصاد . وتنبأ الاشتراكيون الطوباويون سان سيمون وفوريه واوين بسمات منفردة للمجتمع الشيوعي المقبل .

ومما له قيمة خاصة في نظرية التطور الاجتماعي ، مساهمة الديمقراطيين الثوريين الروس في القرن التاسع عشر – بيلينسكي وهرتسن وجرنيشفسكي وغيرهم . فقد ادلوا بآراء عميقة بالنسبة لعصرهم عن دور الاقتصاد في التطور الاجتماعي ، وعن الشعب كصانع للتاريخ وعن عدم تهادن المصالح الطبقية بين المستغلين والمستغلين وعن الطابع الطبقي للفلسفة والادب والفن و .. الخ .

ورغم هذا فان علم الاجتماع (السوسيولوجيا) (١) قبل الماركسية لم يكن علميا ، فما هي نواقصه الاساسية ؟

قبل كل شيء كانت المثالية تسود علم الاجتماع قبل ماركس . فمثلا كان الماديون الفرنسيون انفسهم عندما يشيرون الى تأثير الوسط الاجتماعي على الانسان ، كانوا ينظرون الى هذا الوسط كنتاج للعقل البشري . « الافكار تسير العالم » ، هذه هي كلمتهم الاخيرة عن المجتمع .

وكذلك حال سائر الماديين قبل ماركس حيث فهموا المجتمع بشكل مثالي . اما فيما يتعلق بالمثاليين وآرائهم المعادية للعلم بشأن تطور المجتمع فانها اكثر وضوحا . هيغل مثلا ، رغم انه قال بأفكار قيمة عن الضرورة التاريخية وحاول ان يبحث تاريخ البشرية من مواقع دياليكتيكية فانه وصل في النهاية الى ان الارادة الالهية هي التي تسير العالم . « الله يسير العالم ، ان محتوى ادارته وتحقيق خططه هو التاريخ العالمي » . هذه هي خلاصة الفلسفة الهيغيلية عن التاريخ .

والفهم المثالي للمجتمع يضيف نقص آخر لعلم الاحتماع قبل ماركس . وانطلاقا من موضوعة ان الافكار هي التي تسير العالم ، واعتقادا بأن حملة هذه الافكار هم الشخصيات المرموقة – الملوك والقادة والعلماء – توصل علماء الاجتماع (السيوسيولوجيون) قبل ماركس الى استنتاج خاطىء مفاده ان هذه الشخصيات هي وحدها خالقة التاريخ . ولم يروا الدور الحاسم للشغيلة ، للجماهير الشعبية في التطور التاريخي .

ان السوسيولوجيين قبل ماركس لم يستطيعوا ايضا ان يكشفوا

---

(١) سوسيولوجيا (من الكلمة اللاتينية سوتسيتاس وتعني مجتمع والكلمة الاغريقية القديمة « لوكوس » وتعني علم المجتمع) .

الدياليكتيك الحقيقي لمجرى التاريخ . فقد تصوروا التاريخ كسلسلة من الوقائع غير المترابطة . ولم يستطيعوا ان يدركوا وحدة وتلاحم الحياة الاجتماعية والدوافع الحقيقية والمصادر المادية للاحداث التاريخية ، ذلك انهم كانوا مثاليين .

وان ماركس وانجلز القائدين العظيمين للبروليتاريا الثورية هما اللذان تمكنا من ان يكشفا كل تعقيد وتناقض في تطور المجتمع وان يتغلغلا عميقا في جوهره . فلقد قضيا على نواقص علم الاجتماع القديم واوجدا نظرية جديدة نوعيا من التطور الاجتماعي هي المادية التاريخية .

ما هو جوهر هذا الانقلاب ؟

لقد طرد ماركس وانجلز المثالية من علم الاجتماع . وحلا بشاكل صائب القضية الاساسية في الفلسفة مطبقة على المجتمع ، وصاغا الموضوعة الرئيسية للمادية التاريخية : **الوجود الاجتماعي هو الذي يحدد الوعي الاجتماعي** .

ما هو الوجود وما هو الوعي الاجتماعي ؟

نعني **بالوجود الاجتماعي** الحياة المادية للمجتمع وقبل كل شيء نشاط الناس الانتاجي والعلاقات الاقتصادية التي تنشأ بين الناس في عملية الانتاج . اما **الوعي الاجتماعي** فهو حياة الناس الفكرية ، الافكار والنظريات والاراء التي يسترشدون بها في نشاطهم العملي .

ان ماركس وانجلز اذ اكدا اولوية الوجود الاجتماعي وثانوية الوعي الاجتماعي انطلقا من انالناس قبل ان يهتموا بالعلم والفن والفلسفة وغيرها، ينبغي عليهم ان يأكلوا ويشربوا وان يؤمنوا مسكنهم ولباسهم . ولتحقيق هذا لا بد لهم ان يعملوا وان ينتجوا الخيرات المادية . وتبعا لهذا فان « انتاج وسائل العيش المادية المباشرة وكل درجة معينة من التطور الاقتصادي للشعب او العصر تشكل الاساس الذي تتطور فوقه المؤسسات الحكومية ، والاراء الحقوقية والفن وحتى التصورا تالدينية للناس المعنيين ، ولهذا يجب الانطلاق من هذا الاساس عند تفسيرها — وليس بالعكس — كما كان يجري حتى الان » (١) .

ان الاشارة الى ان العلاقات الاقتصادية الانتاجية باعتبارها العلاقات الرئيسية المقررة بين كثرة من العلاقات الاجتماعية سمح لماركس وانجلز ان يصوغا مفهوم التشكيلة الاقتصادية الاجتماعية ، المفهوم الاهم والاساسي للمادية التاريخية .

---

(١) كارل ماركس و ف. انجلز — المؤلفات المختارة في جزئين — الجزء الثاني ص١٥٧ .

ان التشكيلة الاقتصادية الاجتماعية هي مجموعة من الظواهر والعمليات الاجتماعية (اقتصادية وايديولوجية ومعيشية وعائلية وغيرها) تكمن في اساسها نوع من العلاقات الاقتصادية الانتاجية بين الناس . وان تطور المجتمع يمثل تبدلا قانونيا لاحدى التشكيلات الاقتصادية الاجتماعية باخرى اكثر تكاملا . فمن التشكيلة المشاعية البدائية نحو تشكيلة الرق وبعد ذلك الاقطاعية والراسمالية واخيرا نحو الشيوعية ، تلك هي الحركة التقدمية للتاريخ البشري .

ان ماركس وانجلز اذ صاغا المادية التاريخية برهنا **بان الصناع الحقيقيين للتاريخ هم الجماهير الشعبية ، جماهير الشغيلة** . فعمل الشعب ينتج جميع القيم المادية الضرورية للناس . وان عمل الملايين من الناس البسطاء هو اساس حياة وتطور البشرية .

ان خدمة ماركس وانجلز العظمى هي انهما تخلصا من ميتافيزيقية علم الاجتماع القديم وكشفا الدياليكتيك الموضوعي لتطور المجتمع . ونتيجة هذا لم يعد التاريخ تراكما لا نظام له من الحقائق غير المترابطة واصبح عملية متكاملة متناسقة تتم وفقا لقوانين الدياليكتيك .

٢ . موضوع المادية التاريخية

ان موضوع المادية التاريخية هو دراسة المجتمع وقوانين تطوره .

وهذه القوانين هي ايضا **موضوعية** كقوانين تطور الطبيعة . وانها كالقوانين الطبيعية **قابلة للمعرفة** وتستخدم من قبل الانسان في نشاطه العملي . والى جانب هذه السمات المشتركة بين قوانين الحياة الاجتماعية والقوانين الطبيعية يوجد فارق جوهري . فالقوانين الطبيعية تعكس فعالية قوى عمياء لا ضابط لها ، اما قوانين التطور الاجتماعي فانها تظهر باستمرار بواسطة فعالية الناس ـ الموجودات الواعية التي تضع لنفسها اهدافا محددة وتسعى من اجل الوصول اليها .

ان قوانين الحياة الاجتماعية هي موضوع علوم اجتماعية اخرى : كالاقتصاد السياسي والتاريخ وعلم الجمال والتربية و .. الخ . غير ان هذه العلوم جميعا تدرس مجموعة معينة من الظواهر الاجتماعية وتبحث المجتمع من جانب محدد واحد ولا تعطي صورة عن عملية التطور الاجتماعي ككل . فالاقتصاد السياسي مثلا يدرس العلاقات الاقتصادية ، الانتاجية بين الناس . والتاريخ يدرس تطور هذا النظام الاجتماعي او ذاك في مختلف العصور ، وفي اقطار معينة . وعلم الجمال يدرس ميدان الفنون و ... الخ .

وخلافا للعلوم الاجتماعية المحددة تدرس المادية التاريخية **اعم** قوانين التطور الاجتماعي . ان المادية التاريخية بوصفها جزءا لا يتجزأ من النظرية الماركسية اللينينية تعطينا تفسيرا علميا ماديا دياليكتيكيا لظواهر الحياة الاجتماعية . انها تحل قضايا التطور التاريخي العامة الهامة من قبيل قضايا العلاقة بين الوجود الاجتماعي والوعي الاجتماعي واهمية الانتاج المادي في حياة الناس وعن منشأ ودور الافكار الاجتماعية والمؤسسات المطابقة لها . ان المادية التاريخية تعطي الامكانية لفهم دور الشعب والافراد في التاريخ وكيف ظهرت الطبقات والصراع الطبقي وكيف ظهرت الدولة ، ولماذا تحدث الثورات الاجتماعية . وما هي اهميتها في مجرى التاريخ ، وغيرها من القضايا العامة عن تطور المجتمع .

ان ميدان فعالية القوانين التي تدرسها المادية التاريخية ليس واحدا . فبعضها ينشط في جميع مراحل التطور الاجتماعي . ومن بين هذه القوانين مثلا قانون الدور المقرر للوجود الاجتماعي بالنسبة الوعي الاجتماعي ، وقانون الدور الحاسم لاسلوب الانتاج في تطور المجتمع . وقوانين اخرى تنشط فقط في مراحل محددة من تطور المجتمع . ومثالها قانون الصراع الطبقي الذي ينشط فقط في المجتمع المنقسم الى طبقات متعادية .

وبين القوانين المدروسة من قبل المادية التاريخية تمتلك اهمية بالغة في ايامنا هذه قوانين ظهور وتطور المجتمع الشيوعي . القوانين العامة الانتقال من الراسمالية الى الاشتراكية ، وسنن تطور الاشتراكية الى الشيوعية وغيرها .

ان المادية التاريخية اذ تدرس تطور المجتمع تعد المفاهيم الاساسية (الكاتيكوريات) والمفاهيم التي تعكس اعم الجوانب الجوهرية للتطور الاجتماعي . ومن هذه المفاهيم الاساسية مثلا « الوجود الاجتماعي » و « القاعدة » و « البناء الفوقي » وكثير غيرها . وان مجموع قوانين المادية التاريخية ومفاهيمهما الاساسية يعطي لوحة موحدة متكاملة عن التطور الاجتماعي .

ان المادية التاريخية ظهرت نتيجة تعميم الخبرة الاجتماعية التاريخية للناس ومنجزات العلوم الخاصة عن المجتمع ، التي كان من غير الممكن مطلقا التفكير بها بدونهما . غير ان بدون المادية التاريخية وبدون معرفة السنن العامة للتطور الاجتماعي فان اي من العلوم الاجتماعية الخاصة لا يمكن ان يتطور بشكل مثمر . ان المادية التاريخية هي **اساس الطريقة العلمية للبحث** في جميع العلوم الاجتماعية فانها تمكن العلماء ـ من مؤرخين واقتصاديين وغيرهم من فهم مجموع الظواهر الاجتماعية المعقدة ، وان يحددوا مكان

واهمية كل منها في الحياة الاجتماعية . فالمؤرخ مثلا اذ يعرف الموضوعة الاساسية للمادية التاريخية عن الدور الحاسم للجماهير الشعبية في التطور الاجتماعي . فانه يستطيع ان يكشف الطابع الحقيقي لهذا الحادث التاريخي او ذاك . وان موضوعة المادية التاريخية عن تعلق الحياة الفكرية للمجتمع بالعلاقات المادية الاقتصادية تساعد المؤرخ على ان يفسر ظهور مختلف النظريات والاراء ان يقدر دورها في التاريخ بشكل صحيح .

وان اهمية المادية التاريخية كبيرة ايضا بالنسبة للعلوم الاجتماعية الاخرى .

ان معرفة قوانين المادية التاريخية تعطي الناس القدرة ليس فقط للتغلغل في ظواهر الحياة الاجتماعية المعقدة بل وعلى **التأثير فيها وتغييرها** في صالح البشرية . ان تغيير الواقع على اساس القوانين المعروفة حاليا هو تحقيق الضرورة التاريخية في التطور التقدمي للبشرية . وفي مجرى التطور التقدمي للبشرية يجد الانسان الحرية الحقيقية .

لنر الان ماذا تفهم المادية التاريخية بالضرورة والحرية .

٣ . الضرورة التاريخية وحرية الانسان

يجب ان يفهم **بالضرورة التاريخية** ما ينشأ بشكل طبيعي من العلاقة الداخلية للظواهر الاجتماعية ولهذا يحدث **حتما** او لا بد ان يحدث . مثلا : الانتاج المادي يقرر بالضرورة جميع جوانب الحياة الاجتماعية . وتغيير نظام اجتماعي بآخر تحدث الثورات الاجتماعية بالضرورة . وبضرورة صارمة تستبدل الراسمالية اليوم بنظام جديد شيوعي .

ان ممثلي السوسيولوجيا (علم الاجتماع) البورجوازية الرجعية ووجهة النظر الدينية لا يعترفون بالضرورة التاريخية . ويعتبر المبشرون بالدين بأن مجرى التاريخ كله يحدد مسبقا بقدر حتمي من الارادة الالهية ، اما الناس فانهم دمى عمياء في ايدي الارادة الالهية الجبارة . وقد جاء في الانجيل انه دون ارادة الرب لا يمكن ان تسقط شعرة من رأس الانسان .

ان السوسيولوجيين البورجوازيين اذ يشوهون جوهر التطور الاجتماعي ينكرون الضرورة التاريخية . غير انهم بهذا يقعون في تطرف آخر حيث يبشرون بالذاتية والتعسف في النشاط الاجتماعي . فخطوات الناس ونشاطاتهم بالنسبة لهؤلاء لا تتحدد بأي شيء ولا تتعلق بأي شيء . وفي نفس الوقت فان السوسيولوجيين البورجوازيين يتهمون الماركسية بالقدرية وبالانحناء امام الضرورة التاريخية ، وبتأكيد عجز الانسان امام القوانين

الاجتماعية .

ان المفكرين البورجوازيين بسبب ضيقهم الطبقي لا يريدون ان يفهموا بأن الضرورة التاريخية ليس فقط لا تنفي نشاط الناس الواعي وانما تفترضه ايضا . ان الناس لا يستطيعون أن يلغوا قوانين التطور الاجتماعي ولا ان يخلقوا قوانين جديدة ، غير انهم يستطيعون ان يكتشفوا هذه القوانين ، والضرورة التاريخية . وعلى اساس الضرورة المعروفة يتدخلون بفعالية في المجرى التاريخي الاجتماعي . ان التطبيق يدلل بشكل مقنع بأن الناس اذ يعرفون الضرورة الموضوعية، يخضعون لارادتهم ليس فقط العمليات الطبيعية، الامر الذي تشهد عليه باقناع منجزات العلوم والتكنيك المعاصرين ، وانما يخضعون ايضا سير الحوادث التاريخية . **اي ان الحرية الانسانية تكمن في معرفة الضرورة الموضوعية والاستفادة منها لصالح الانسان .**

ان الحرية لا تلغي الضرورة الموضوعية وانما تعني ان الضرورة معروفة من قبل الانسان وانه يستفيد منها لاغراضه . ان النشاط الانساني يكون حرا فقط عندما ينسجم مع الضرورة الموضوعية . ان حرية الانسان لا تكمن في الاستقلال الموهوم عن القوانين الطبيعية والاجتماعية ، وانما في معرفة هذه القوانين . وفي المهارة في توجيهها لخدمة الحاجات البشرية .

ان الحرية هي نتيجة التطور التاريخي المستمر . وبتقدم العلم والانتاج يقهر الانسان الطبيعة ويسيطر على القوانين الموضوعية ، وبهذا يخضع لارادته الضرورة المؤثرة في الطبيعة، ويصبح حرا بالنسبة للعمليات الطبيعية. غير ان السيطرة على العمليات الطبيعية لا تضمن سيطرة الانسان على العمليات الاجتماعية . ان الضرورة التاريخية وسنة تطور المجتمعات ما قبل الاشتراكية تظهر كقوة مدمرة عمياء لا يستطيع الناس السيطرة عليها . مثال هذا قانون الفوضى والمزاحمة الذي يجعل من الانسان في ظروف الراسمالية دمية في ايدي الصدفة ولا يعطيه امكانية برمجة نشاطه مسبقا .

وفقط في الاشتراكية ولاول مرة وجدت امكانية حقيقية للسيطرة على الضرورة التاريخية والوصول الى الحرية الحقيقية للانسان . ان الثورة الاشتراكية اكدت سيادة الملكية الاجتماعية

، وبنتيجة هذا استطاع الناس ان يقودوا ، بوعي ، حياة المجتمع الاقتصادية والسياسية والثقافية . وبانتصار الاشتراكية حقق المجتمع قفزة جبارة من مملكة الضرورة الى مملكة الحرية ، وكلما اقترب المجتمع الاشتراكي من الشيوعية فان حرية الانسان تصبح اوسع واشمل . وتزيد سيطرته على القوى الطبيعية والعمليات الاجتماعية . وان الانسان يتعلم التوفيق بين مصالحه الشخصية والمطامح ذات المثل الاجتماعية الراقية عندما يقوم بهذا

باختيار ووعي .

ان نشاط الشغيلة الانتاجي والسياسي – الاجتماعي المرتكز على المعرفة والتطبيق الحاذق للنظرية الماركسية اللينينية هو شرط ملزم لتحقيق وتطوير حرية الانسان الحقيقية في المجتمع .

لقد تحولت التعاليم الماركسية اللينينية عن الضرورة والحرية في بلادنا الى واقع حي . ان الحرية الانسانية الحقيقية التي حلمت بها ارقى العقول البشرية طيلة قرون قد توطدت في بلادنا تماما ونهائيا . وان الوصول اليها هو نتيجة الثورة الاشتراكية الظافرة . الحصيلة الرائعة للعمل البطولي والنضال المتفاني للشعب السوفييتي الذي يقف في طليعته حزبنا الشيوعي المجيد . ان الناس السوفييت الذين اصبحوا سادة البلاد الحقيقيين وعرفوا الضرورة التاريخية ، قد حصلوا على امكانية لا حدود لها لان يخلقوا تاريخهم بوعي وبشكل هادف .

الا ان الوصول الى الحرية في الاشتراكية لا يعني الغاء الضرورة التاريخية والقوانين الموضوعية . ففي الاشتراكية ايضا تظل الضرورة الاساس الموضوعي للنشاط الحر للانسان . وفي الاشتراكية تنشط القوانين الموضوعية ، غير ان هذه القوانين يستفاد منها بوعي من قبل السوفييتيين الذين يحققون تحت قيادة الحزب الشيوعي والدولة السوفييتية اعظم ضرورة تاريخية – الا وهي بناء الشيوعية .

٤ . الطابع المعادي للعلم ، لعلم الاجتماع (السوسيولوجيا) البورجوازي المعاصر

ان المادية التاريخية ، النظرية العلمية الوحيدة عن التطور الاجتماعي ، التي تشير الى طريق البشرية الحقيقي نحو المستقبل الافضل ، تثير اعنف الحقد والكراهية لدى البورجوازية الرجعية ومفكريها . وان البورجوازية التي يتملكها الخوف امام مستقبلها والعاجزة عن ان توقف حركة البشرية المتقدمة نحو الشيوعية ، تسعى من اجل ابطاء العملية التاريخية ، على الاقل ، ومن اجل استمرار وجود النظام الراسمالي المحتضر . وتستخدم لهذا الهدف جميع الوسائل الممكنة – الاقتصادية والسياسية والايديولوجية . وبين الوسائل الايديولوجية يحتل علم الاجتماع البورجوازي مكانا ليس قليل الاهمية . وتوجد في علم الاجتماع البورجوازي هذا تيارات ومدارس عديدة . غير انها جميعا مثالية وميتافيزيقية في اساسها . ان المثالية هي وجهة النظر الرسمية في علم الاجتماع البورجوازي المعترف بها من قبل

الدوائر الاستعمارية الحاكمة . فقد اعلن هرتز الوزير في حكومة الولايات المتحدة مرة يقول : « اننا نرفض اعتبار المادية كقوة اساسية في الاعمال الانسانية ، اننا نؤمن بأن القوة المحركة الحقيقية في حياة الانسان هي القوة الروحية الداخلية التي تؤثر في الكون المدار من قبل القوة الربانية ، من قبل القانون والهدف » .

التخلي عن القوانين الموضوعية لتطور المجتمع

ان السمة المميزة الاكثر وضوحا لعلم الاجتماع البورجوازي المعاصر هي انكار القوانين الموضوعية للتطور الاجتماعي ، هذا الانكار الذي يتخذ في تيارات علم الاجتماع البورجوازي المختلفة اشد الأشكال تنوعا .

ان احدى جماعات المثاليين المكشوفة تعلن بصراحة انه لا توجد اية قوانين تاريخية ، وان التاريخ ان هو الا مملكة للفوضى والصدف لا يمكن معرفتها .

ان ممثلي المدرسة **السايكولوجية** يرون اساس التطور الاجتماعي في رغبات الانسان وارادته ، وغرائزه ، وان الاضطراب الاجتماعي وفقر الشغيلة في المجتمع الراسمالي ، بالنسبة لهم ، ليس قوانين الراسمالية الموضوعية وانما في ضعف نفسية العامل. والوسيلة التي يقترحها هؤلاء السايكولوجيين لحل اهم القضايا الاجتماعية هي ليست القضاء على الراسمالية وانما السعي لتكامل نفسية العامل .

اما ممثلو التيار البايولوجي فهم بالكلام فقط الى جانب سوسيولوجيا علمية ، وعمليا يستبدلون القوانين الحقيقية للتطور الاجتماعي بالقوانين البيولوجية ، ذلك انهم يساوون بين الانسان والحيوان الذي يكافح بشكل اعمى من اجل الوجود . انهم يقومون بهذا من اجل ان يستطيعوا استنادا الى ما يسمى بالقوانين « الطبيعية » التي خلقتها الطبيعة ، « البرهنة » على طبيعة استغلال الانسان للانسان ، وحروب السلب والنهب ، والسيطرة الاستعمارية والعنصرية وغيرها من سمات الراسمالية انبشعة .

ان ممثلي التيار البيولوجي في علم الاجتماع لا يريدون ان يفهموا بأن المطابقة بين قوانين التطور الاجتماعي وقوانين البيولوجيا غير ممكنة اطلاقا . ذلك ان المجتمع يتطور وفق قوانينه الخاصة ، التي تختلف نوعيا عن قوانين تطور الحيوان والنبات . وقد قال لينين عن محاولات المطابقة بين قوانين تطور المجتمع وقوانين الطبيعة بانها العمل الاكثر سهولة ولكنه في نفس الوقت

الاكثر عمقا ، عمل سكولاستيكي (١) ميت .

كما ان انكار اهم قوانين التطور الاجتماعي هو الطابع المميز لممثلي ما يسمى بـ « **الميكرو سوسيولوجيا** » أو ما يسمى ايضا بـ « **السوسيوتوجيا التجريبية** » . ان انصار هذا التيار لا يعلنون صراحة معارضتهم للتعرف على الحياة الاجتماعية ، غير انهم لا يدرسون من السلسلة المعقدة من الظواهر الاجتماعية سوى الامور التافهة في الواقع الراسمالي ؛ ولا يريدون ان يروا ما يكمن وراءها من القوانين الداخلية للتطور الاجتماعي . وهذا يعني في الجوهر تخليا عن العلم ؛ وعن حل القضايا الاجتماعية الاساسية في العصر الراهن .

ان عدم الاعتراف بقوانين التطور الاجتماعي ليس سوى محاولة لفتح الطريق امام الايمان ، في ميدان الحياة الاجتماعية . وليس صدفة ان يتوصل العديد من السوسيولوجيين البورجوازيين الى الاعتراف بالتقدير الالهي المسبق لمجرى التاريخ . لقد كتب المؤرخ الانكليزي ارنولد توينبيّ مثلا ، ان هدف التاريخ هو اقامة المملكة الالهية والتاريخ نفسه هو « وحي ذاتي رباني » .

ان الايديولوجيين البورجوازيين اذ ينكرون الطابع القانوني لقوانين التطور الاجتماعي ، انما ينفذون ارادة اسيادهم ، ساعين الى تشويه حقيقة التقدم التاريخي ، وتجميل الرأسمالية وتبرير سياستها الرجعية الداخلية والخارجية . انهم يحاولون منع الطبقة العاملة من فهم واستخدام القوانين الموضوعية للتطور الاجتماعي ، هذه القوانين التي ، بقوتها ، تسير الرأسمالية نحو نهايتها المحتومة .

انكار التقدم الاجتماعي

ان طابع السوسيولوجيا البورجوازية المعادي للعلم يظهر في انكار التقدم التاريخي والتطور التقدمي للمجتمع . وبالارتباط بهذا يجب ان نلاحظ بأن وجهات نظر السوسيولوجيين البورجوازيين عن طابع العملية التاريخية قد طرأ عليها تغير جدي . ففي الوقت الذي كانت تطمح فيه البورجوازية لاستلام السلطة ، كان مفكرو البورجوازية المتنورون يتحدثون كثيراً عن التقدم الاجتماعي ان فكرة التقدم كانت تخدم البورجوازية كسلاح لقلب النظام

(١) سكولا ستيكي : مدرسي ، مكتبي ، تدريسي ، تعليمي ، مدرساتي . القاموس العصري لواضعه الياس انطون الياس . المترجم .

الاقطاعي القديم ولتوطيد المجتمع الراسمالي الاكثر تقدمية .

غير ان البورجوازية اليوم في السلطة ، وقد اصبح فهمها للتطور الاجتماعي متميز بشكل يثير العجب . فالايديولوجيون البورجوازيون بدأوا يمتدحون بلا حساب ، العلاقات الراسمالية ويصورونها على انها المملكة الخالدة للحرية والعدالة وبأنها تجسيد لمثال التقدم وان هؤلاء الايديولوجيين البورجوازيين يعلنون بأن هدف التطور التقدمي للمجتمع قد تحقق ، ومن ثم لا طريق للامام بعد . وما يحملهم على انكار التقدم هو الخوف من المستقبل الذي لا يعد الراسمالية بغير الفناء المحتم . انه الخوف من الجديد ، من العالم الشيوعي الذي سيخلف حتما المجتمع البورجوازي .

ويعارض السوسيولوجيون البورجوازيون المعاصرون مفاهيم « التقدم » و « التطور » بمصطلح « التبديلات الاجتماعية » الذي يحاولون بواسطته الاحاطة بالعديد من العمليات ذات الاهمية الثانوية ، التي تحدث في المجتمع دون ان يكون لها تأثير واضح في التقدم التاريخي : وبهذا يسعون الى صرف الانتباه عما يجري في عصرنا من تحولات جذرية ثورية وللتقليل من اهميتها ، والتهرب من القضايا الاجتماعية الهامة في هذا العصر .

ومما يشهد على انكار السوسيولوجيين البورجوازيين لفكرة التقدم الاجتماعي ان الكثير من النظريات عن « رجوع المجتمع الى الماضي » و « ركوده » و « انحطاطه » تنشر من قبلهم على نطاق واسع الان .

خلال عشرينيات هذا القرن بشر ايديولوجي الاستعمار الالماني سبخلير بنظرية مشابهة عن « الرجوع الى الماضي » . فقد سعى جاهدا في كتابه « افول الغرب » الى البرهنة بأن المجتمع ليس بمقدوره ان يتخلص من الحلقة المفرغة حيث تتكرر باستمرار نفس المراحل : نشوء وازدهار وانحطاط . والرأسمالية حسب ما يقول سبخلير هي مرحلة ازدهار المدنية والثقافة وباندثارها فان مصير البشرية سيكون العودة نحو التوحش والبربرية . ومن هنا تنبع التبشيرات بعدم جدوى النضال ضد الراسمالية (فلماذا يجب على الناس ان يستبدلوا ما هو احسن بما هو اسوأ ؟) . وانكار ضرورة الثورة البروليتارية والاشتراكية التي هي غير ممكنة ، ذلك ان المجتمع ليس بمقدوره ان يصل الى شيء جديد .

وقد بعثت في ايامنا هذه ، النظرية الرجعية عن « الرجوع التاريخي الى الماضي » على يد ارنولد توينبي الذي ينكر التطور التقدمي الشامل للمجتمع ويسميه بازدراء « وهم التقدم » . ان توينبي اذ يظهر عداءه الشديد للاشتراكية زاعما ان جميع محاولات تحطيم الراسمالية ستؤدي الى اضمحلال

المدنية ، وانحطاطها ، فانه يسعى الى البرهنة على خلود المجتمع الرأسمالي ورسوخه .

الحياة تدحض السوسيولوجيا البورجوازية

ان ايديولوجيي البورجوازية المعاصرة الرجعيين يشوهون مجرى التقدم التاريخي . واذ يشعرون بهزيمة الرأسمالية الحتمية فان صراخهم يعلو عن فناء المدنية والبشرية كلها ، مصورين فناء الراسمالية المحتم فناء للبشرية . ان النظام الرأسمالي سيندثر ، هذا ما لا شك فيه مطلقا ، اما فيما يتعلق بالبشرية فانها ستعيش وستصل بالتأكيد الى القمم الوضاءة للمجتمع الشيوعي . ان الحياة نفسها والتقدم العظيم الذي حققه الاتحاد السوفياتي والبلدان الاشتراكيةالاخرى لم تبق حجرا على حجر في«نظريات» السوسيولوجيين البورجوازيين المعاصرين اللاعلمية . ان هذه « النظريات» جميعا دليل واضح على الازمة التي لا مخرج منها المحيقة بالراسماليةالمعاصرة والسوسيولوجيا الرجعية التي تدافع عنها .

والسوسيولوجيون البورجوازيون بتشويههم طابع العملية التاريخية يستهدفون هدفا محددا تماما وهو ان يمدوا في اجل فناء الراسمالية وان يزينوا واجهة البناء الراسمالي المهتريء ، ويفتروا على الاشتراكية ويدحضوا الماركسية اللينينية ، التعاليم العلمية الوحيدة عن المجتمع .

اية الاعيب لم يلجأ اليها عملاء الراسمالية هؤلاء لتحقيق هذا الهدف ! انهم يلجأون الى الافتراء على الاشتراكية والماركسية اللينينية ، والمديح الذي لا حد له للراسمالية ، والتعليلات الخاطئة عن « الراسماليةالشعبية » والدولة البورجوازية على اعتبار انها « دولة الازدهار العام » و ... الخ . ولكن مهما سعى المدافعون عن الاستعمار فان التاريخ يأخذ طريقه مدللا بقوة كبيرة وباقناع على صحة الماركسية اللينينية الرائعة .

ان العلم والتطبيق الاجتماعي للناس يبرهنان بأن تطور المجتمع هو عملية تاريخية طبيعية تقدمية ، تتم بحكم قوانين موضوعية مستقلة عن الانسان . ان تاريخ المجتمع يمثل سلسلة لا نهاية لها من التطور ، وانتقالات ثورية من ـ علاقات اجتماعية بدائية ، واطئة الى اخرى اكثر تعقيدا ، أعلى. ويكمن في اساس التقدم الاجتماعي تطور وتحسن الانتاج المادي . لقد مر الانتاج في تطوره في طريق طويلة ، فمن ابسط الادوات ، العصي والحجارة ، التي بدا بها الانسان معركته من اجل الحياة ، نحو ارقى المكائن والاجهزة الاوتوماتيكية التي تدار بالطاقة الكهربائية والذرة . وبتقدم الانتاج تطورت

الميادين الاخرى في الحياة الاجتماعية .

الفصل العاشر

اسلوب الانتاج

الاساس المادي للحياة الاجتماعية

ان الامر الرئيسي في المادية التاريخية هو الموضوعة الخاصة بالـدور الحاسم لاسلوب الانتاج في تطور المجتمع . ولكن عملية الانتاج يمكن ان تجري فقط بوجود شروط معينة : وسط جغرافي وسكان . ولذلك فاننا قبل ان نتحدث عن اسلوب الانتاج سنبحث هذه الشروط وسنبين اهميتها في الحياة الاجتماعية .

١ . دور الوسط الجغرافي والسكان في تطور المجتمع .

الوسط الجغرافي والمجتمع

الوسط الجغرافي يعني الطبيعة التي تحيط بالمجتمع ، اي ، المناخ ، الارض ، الانهار والبحار ، عالمي النبات والحيوان والتضاريس الارضية وما يحويه باطن الارض و ... الخ .

ان الوسط الجغرافي **شرط ضروري** للنشاط الانتاجي للانسان . وبدون التفاعل مع الطبيعة ، بالنضال الذي يحصل بواسطته الانسان وسائل معيشته ، لا يمكن التفكير بأي نشاط عملي انتاجي .

ان الوسط الجغرافي يمكن ان يكون تأثيره مزدوجا على تطور المجتمع . فالظروف الطبيعية الملائمة (وجود الخامات ، الغابات ، الانهار ، المناخ الجيد .. الخ) تساعد على تطور المجتمع . اما الظروف الطبيعية غير الملائمة فانها تؤثر بشكل سلبي على المجتمع . فانعدام وجود الخامات مثلا يعيق تطور الصناعة والمناخ الجاف جدا يعرقل تطور الزراعة .

وانطلاقا من ان الوسط الجغرافي أهمية جوهرية لتطور المجتمع يبالغ ممثلو التيار **الجغرافي** في السوسيولوجيا في دور الوسط الجغرافي ويعتبرون بأن تطور المجتمع يقرره اما الوسط الجغرافي ككل ، او بعض عناصر هذا الوسط ، كالمناخ او الانهار أو ... الخ .

وفي عصر الاستعمار اخذ التيار الجغرافي في العديد من البلدان الراسمالية شكل ما يسمى بالنظرية الجيوسياسية (الجغرافية السياسية) ذات الطابع العلمي الزائف. التي تبرر السياسة العدوانية للبلدان الاستعمارية. ان ممثلي وجهة النظر الجيوسياسية في المانيا الهتلرية اعلنوا رسميا مطلب « المجال الحيوي » للالمان الذي أصبح « السند »النظري لميول الفاشية الالمانية للسيطرة العالمية والذي توجب أن يبرر سياستها اللصوصية في الحروب ونهب الشعوب الاخرى .

ومن الواضح ان التيار الجغرافي مفلس تماما من وجهة علمية . انه لا يجيب ولا يمكنه ان يجيب على السؤال التالي : ما هي اسباب تطور المجتمع ولماذا يكون بلدان متجاوران لهما ظروف طبيعية واحدة تقريبا مثل تشيكوسلوفاكيا والنمسا ، في درجات مختلفة من التنظيم الاجتماعي . ففي تشيكوسلوفاكيا بنيت الاشتراكية ، اما في النمسا فتستمر الدولة البورجوازية في الوجود . ان التيار الجغرافي لا يريد ان يأخذ بعين الاعتبار هذه الحقيقة . وهي ان الوسط الجغرافي يتطور أبطأ بكثير من تطور الحياة الاجتماعية ، ولهذا فمن الطبيعي لا يمكنه ان يحدد الحياة الاجتماعية . ففي بلادنا مثلا لم تحدث تقريبا تغيرات على الظروف الطبيعية خلال المئة عام الاخيرة . غير انه خلال هذه المدة استبدل النظام الاقطاعي بالراسمالية والراسماليةبالاشتراكية ، وتبني البلاد السوفياتيةاليوم بنجاح ــ الشيوعية.

وينشأ مما قلناه ان الوسط الجغرافي لا يقرر التطور الاجتماعي رغم انه شرط ضروري للحياة الاجتماعية . انه يمكن فقط ان يساعد على تطورالمجتمع أو ان يعرقل هذا التطور .

السكان والمجتمع

والشرط الاخر لحياة المجتمع المادية هو **السكان** . أن الانتاج لا يمكن ان يتم بدون الناس الذين يشكل عملهم تلك القوة الجبارة التي تقهر الطبيعة وتحملها على خدمة مصالح الانسان . ومن الطبيعي انه في ظل ظروف معينة يمكن لعدد أكبر أو أقل من السكان ولوتائر أسرع أو ابطأ لتكاثرهم ان تسرع او تبطيء تطور البلاد . ومما لا خلاف عليه ان الطاقات البشرية الضخمة

وتنامي السكان السريع في بلادنا هو عامل لنجاحاتنا العظيمة .

ولكن هل يلعب السكان دورا حاسما في تطور المجتمع ؟ واذا كانوا يلعبون مثل هذا الدور فلماذا تكون اذن الباكستان ، وهي التي يوجد فيها ٩٠ نسمة من السكان في الكيلومتر المربع الواحد متأخرة ، من الناحية الاقتصادية كثيرا عن تطور الولايات المتحدة الاميركية التي لا تزيد كثافة سكانها عن ٢٣ نسمة في الكيلو متر المربع الواحد ؟ وكيف نفسر حقيقة ان الاتحاد السوفياتي . الذي تقل كثافة سكانه عما هو موجود في الولايات المتحدة ، قد فاقها في تطوره الاجتماعي والسياسي ؟

من الواضح ان كثافة السكان وتكاثرهم لا تقرر الحياة الاجتماعية . وعلى العكس من هذا فان كثافة السكان وتكاثرهم يتعلقان بطابع النظام الاجتماعي . ففي البلاد السوفياتية مثلا نجد ان نمو السكان عالي جدا . ونسبة الوفيات هي أخفض نسبة في العالم . وهذا ناتج عن عناية المجتمع الاشتراكي البالغة بالانسان .

ورغم هذا فان ممثلي **المالثوسية** وهي تيار رجعي في السوسيولوجيا يعلنون بأن التطور الاجتماعي يتعلق بالضبط بزيادة السكان . ان مؤسس هذا التيار ، الاقتصادي الانكليزي القس مالثوس ؛ أعلن في نهاية القرن الثامن عشر عن قيامه بـ « اكتشاف » « قانون شامل » عن عدم التناسب بين زيادة السكان وانتاج وسائل العيش . فقد زعم مالثوس بأن السكان يزيدون بسرعة اكبر عن زيادة وسائل العيش . ومن هنا ينشأ البؤس والجوع والبطالة وغيرها من الحرمانات للشغيلة . واقترح مالثوس « طريقا » للتخلص من هذه الافات وهو الامتناع عن الزواج وعن انجاب الاطفال .

ان هذه « النظرية » العلمية المزيفة عن السكان كانت ضرورية لمالثوس لرد الاعتبار للراسمالية، ولتبرير الشقاء الذي سببته للشعب الشغيل . ولهذا ليس من قبيل الصدف ان تخدم المالثوسية اليوم البورجوازية الرجعية الاستعمارية التي تحاول بمساعدة اختلاقات القس الانكليزي ان تفسر ليس فقط التناقضات العميقة في الاستعمار ، بل وأن تبرر سياستها الخارجية اللصوصية . ان المالثوسية المعاصرة تتخذ شكل الحقد على البشرية بكل وضوح . انها لا تقتصر اليوم على ابداء النصائح بالامتناع عن الزواج وعن انجاب الاطفال وانما تقترح ابادة «الزائدين» باستخدام القنبلة الهايدروجينية والاسلحة البكتريولوجية ، وغيرها من الوسائل الفظيعة للابادة الجماعية .

ان العلم والتطبيق قد دحضا المالثوسية . فقد برهن ماركس في حينه بأن سبب فاقة وجوع الشغيلة في ظل الراسمالية لا يكمن في القوانين الطبيعية للسكان ، وانما في جوهر النظام الراسمالي في التوزيع غير العادل

نهائيا للخيرات المادية والتي يستأثر الراسماليون بحصة الاسد منها في نفس الوقت الذي يحرم فيه الشغيلة غالبا من اشد ضروريات العيش .

ان افلاس المالثوسية قد دلل عليه ، بشكل مقنع ، التطور الاقتصادي الناجح لبلادنا السوفياتية وكذلك تطور البلدان الاخرى في المنظومة الاشتراكية حيث ، بتصفية الراسمالية الى الابد ، أزيل الجوع والبؤس والبطالة وحيث أصبحت حياة الانسان اضمن وأغنى .

وهكذا فلا الوسط الجغرافي ولا السكان هما السببان المقرران للتطور الاجتماعي . إن السبب المقرر هو اسلوب انتاج الخيرات المادية الذي سنبحثه الان .

٣ . اسلوب الانتاج
القوى المنتجة وعلاقات الانتاج .

ان الناس لا يمكن ان يعيشوا دون مأكل وملبس ومسكن وغيرها من الخيرات المادية . والطبيعة لا تقدم هذه الخيرات جاهزة ، ومن اجل الحصول عليها يتوجب على الناس ان يعملوا . ان العمل هو أساس الحياة الاجتماعية وضرورة طبيعية للانسان . وبدون العمل ، بدون النشاط الانتاجي تصبح الحياة الانسانية نفسها غير ممكنة . ولهذا فان السبب الرئيسي المقرر للتطور الاجتماعي **هو انتاج الخيرات المادية** .

القوى المنتجة

وفي مجرى العمل يغير الانسان الاشياء في الطبيعة من اجل ان يؤمن حاجاته . فمن اجل ان يصنع الانسان ماكينة مثلا ، يتوجب عليه ان يستخرج خامات الحديد وان يصهرها ويحولها الى فولاذ يصنع منه الماكينة بعد ذلك بالشكل المناسب .

ان عملية الانتاج المادي لا يمكن التفكير بها بدون مواضيع العمل وبدون وسائل العمل . ان **مواضيع العمل** هي الاشياء التي ينصب عليها عمل الانسان . **ووسائل العمل** هي المكائن والادوات والاعتدة ومباني الانتاج ومختلف وسائط النقل ... الخ . ان مواضيع العمل ووسائل العمل تؤلف وسائل الانتاج .

وان اهم وسائل العمل هي **أدوات الانتاج** التي يؤثر الناس بواسطتها على مواضيع العمل ويغيرونها بالشكل المناسب . ان الانتاج لا يمكن تصوره

بدون الادوات . فالطبيعة لا تقدم بسهولة ثرواتها وللحصول على هذه الثروات لا تكفي قوة الانسان العضلية وحدها . ان الانسان يستطيع تأمين وسائل معيشته فقط بمساعدة الادوات وبهذا فانه يحصل على وسائل معيشية اكثر كلما كانت الادوات التي يستخدمها اتقن واكثر انتاجية .

ولكن الادوات بذاتها لا تعطي الخيرات المادية للبشرية . فان الادوات ، يتوجب ليس فقط صنعها ، بل ادارتها واستعمالها . ان ارقى المكائن يمكن ان تتحول بعد مدة الى كمية من المعدن لا شكل لها اذا لم تلامسها يد بشرية. ان الناس وحدهم يستطيعون تشغيل الادوات وتنظيم الانتاج المادي ولهذا فانهم عنصر من عناصر الانتاج لا ينفصل عنه .

القوى المنتجة هي وسائل الانتاج التي صنعها المجتمع وقبل كل شيء ادوات العمل وكذلك الناس الذين ينتجون الخيرات المادية . ان القوى المنتجة تقرر علاقات الانسان بالطبيعة وسلطته عليها . ان اهم عنصر في القوى المنتجة هو **الناس ، جماهير الشغيلة** . ان عمل الناس المبدع الخلاق يبعث الحياة فيما صنعوه من أدوات ويرغمها على ان تعطي الانسان ما لا حصر له من الاشياء الضرورية .

علاقات الانتاج

ان القوى المنتجة هي ليست كل ما في الانتاج المادي ، فالناس لا يستطيعون ان ينتجوا على انفراد ، بل بشكل مشترك فقط ، منظمين في مجتمع ، ولهذا فان العمل كان باستمرار عملا اجتماعيا وفي عملية العمل يدخل الناس في روابط وعلاقات معينة فيما بينهم . كتب ماركس : « ان الناس من اجل ان ينتجوا فانهم يدخلون في روابط وعلاقات معينة فيما بينهم ، وفي أطار هذه الروابط والعلاقات الاجتماعية توجد علاقاتهم بالطبيعة ويتم الانتاج » (١) .

ان علاقات الناس في عملية الانتاج تسمى **علاقات الانتاج** ، التي هي جانب لا يمكن فصله عن الانتاج المادي . وهكذا فان **اسلوب الانتاج** المعني تاريخيا يمثل **وحدة لا تتجزأ** بين القوى المنتجة وما يطابقها من علاقات الانتاج .

وقد دخل الناس روابط العمل المتبادلة منذ فجر المجتمع البدائي . ففي القبائل البدائية المتنقلة كانت هذه الروابط روابط رفاقية للصيد المشترك .

---

(١) كارل ماركس و ف . انجلز ـ المؤلفات المختارة في جزئين ج ١ ص ٣ الطبعة الروسية.

وبتطور القوى المنتجة وبتقسيم العمل إصبحت **العلاقات** بين الناس متنوعة اكثر . نشأت علاقات بين الزراع ومربي الحيوانات ، بين الزراع والحرفيين ، بين الحرفيين والتجار و . . . الخ . وبتطور الصناعة الالية خصوصا اصبحت الروابط بين المنتجين متنوعة ومتعددة الجوانب .

ان أساس علاقات الانتاج هو **اشكال الملكية** اي علاقة الناس بوسائل الانتاج – بالارض وباطن الارض ، الغابات ، الحياة ، المواد الخام ومباني الإنتاج وادوات العمل و . . . الخ . وبأشكال الملكية يتحدد **وضع مختلف الجماعات الاجتماعية** في الانتاج ، مسيطرة أم خاضعة ، وعلاقاتها في عملية الانتاج . او كما قال ماركس تبادل نشاطها المشترك . فاذا ما كانت الملكية اجتماعية (وسائل الانتاج تعود للشغيلة) **فعند ذاك تأخذ علاقات الانتاج** طابع التعاون والتعاضد بين عمال احرار من الاستغلال كما هو الحال في الاشتراكية . واذا ما كانت الملكية خاصة (وسائل الانتاج تعود الى حفنة من المستغلين) فعند ذاك تصبح علاقات الانتاج علاقات سيطرة وخضوع ، وهي التي تميز الرأسمالية مثلا . فالشغيلة في المجتمعات الطبقية المتناحرة ما داموا محرومين من وسائل الانتاج فانهم يضطرون الى الخضوع للمستغلين مالكي هذه الوسائل ، وان يعملوا لهم .

وتتعلق بطابع ملكية وسائل الانتاج **أشكال التوزيع** . ان الملكية الرأسمالية الخاصة تسبب توزيعا مجحفا بالمرة للخيرات المادية في الراسمالية . فمالك وسائل الانتاج يحصل هنا على القسم الاكبر من القيم المنتجة رغم انه لا يساهم بشكل مباشر في الانتاج . ان الملكية الاجتماعية في المجتمع الاشتراكي تضمن مبدأ التوزيع حسب العمل الذي يتجاوب ومصالح جميع الشغيلة . وفي الاشتراكية تعود جميع الخيرات المادية المنتجة للشغيلة انفسهم .

وهكذا تتطابق مع علاقات الانتاج : أشكال ملكية وسائل الانتاج التي ينشأ عنها وضع الجماعات الاجتماعية في الانتاج وأشكال توزيع الخيرات المادية .

ان علاقات الانتاج ، تتكون **بشكل موضوعي** مستقل عن ارادة ورغبة الناس . ان هذا الشكل او ذاك من العلاقات بين الناس في عملية الانتاج يظهر فقط عندما تنضج القوى المنتجة التي تطابقها هذه العلاقات .

ان اسلوب الانتاج يتطور بقوة اسبابه الخاصة والدياليكتيك الداخلي الملازم له . لنبحث الان ما هي هذه الاسباب ، وما هو الدياليكتيك الداخلي لتطور الانتاج .

٣ . دياليكتيك القوى المنتجة وعلاقات الانتاج .

ان الانتاج لا يبقى على حاله ، انه ينمو باستمرار ويتطور ويتحسن . ولا يمكن ان يكون الامر على غير هذه الشاكلة . فالناس من اجل إن يعيشوا ينبغي ان ينتجوا الخيرات المادية ، ليس بنفس المقاييس السابقة بل بمقاييس اعظم . وهذا ما يفسره قبل كل شيء واقع ان عدد الناس على كوكبنا يتعاظم باستمرار وحاجاتهم تتنامى كذلك . ان ضروريات الانسان البدائي كانت قليلة جدا : غذاء بسيط وجلد حيوان كلباس وسقف فوق راسه وموقد فيه نار . ولكن كم هي كثيرة حاجات الانسان المعاصر ـ الثقافية ـ والمادية !

ولتأمين الحاجات المتنامية للسكان المتزايدين على الارض يوجد طريق واحد فقط . هو التطوير المتواصل للانتاج وتحسينه . **ان تطور الانتاج ضرورة موضوعية ، انه قانون الحياة الاجتماعية** . ان تاريخ المجتمع ليس سوى تطور قانوني للانتاج الاجتماعي ، وعملية ضرورية لاستبدال اساليب انتاج متدنية بأخرى اعلى .

كيف يتطور الانتاج ؟

إن تطور الانتاج يبدأ بتطور القوى المنتجة . غير ان القوى المنتجة ـ كما نعرف ـ هي ادوات الانتاج والناس الذين يستخدمون هذه الادوات . أي من هذه العناصر من القوى المنتجة يتطور اولا ؟ ان تجربة التاريخ تدل على انه في اطار القوى المنتجة تتطور قبل كل شيء ادوات الانتاج . فالناس من اجل ان يسهلوا عملهم ، ومن اجل ان يحصلوا على اكبر قدر ممكن من القيم المادية وبصرف أقل ما يمكن من عمل ، يحسنون باستمرار الادوات الموجودة ويصنعون أخرى جديدة اكثر انتاجية .

ان تطور وتحسن ادوات الانتاج والتقدم التكنيكي هو نتيجة لنشاط الناس التطبيقي في الانتاج . ولكن مع التقدم التكنيكي يتغير الناس انفسهم ايضا ، تتعاظم خبرتهم الانتاجية ويزداد تخصصهم وتظهر مهن جديدة . وبتغير ادوات العمل والعمال المنتجين تتغير ، بالتالي ، علاقات الناس في عملية الانتاج ـ علاقات الانتاج .

وهكذا فان القوى المنتجة تحدد ، تولد علاقات الانتاج . ولكن ينبغي ان يكون معلوما ، ان القوى المنتجة لا تولد اية علاقات انتاج كانت ، وانما تولد فقط علاقات إنتاج معينة تتجاوب مع طبيعتها الداخلية وطابعها . فالمانيفاكتورة الراسمالية التي ظهرت في رحم الاقطاعية مثلا ولدت بالتأكيد علاقات انتاج راسمالية وليس غيرها .

ان علاقات الانتاج نفسها التي تظهر على اساس القوى المنتجة لا تظل

سلبية . انها تبدي **تأثيرا فعالا** على القوى المنتجة بأن تسرع او تبطيء تطورها. ولكن يجب ان نعرف بأن علاقات الانتاج الجديدة التقدمية التي تتطابق مع طابع القوى المنتجة **تسرع** تطور الانتاج الاجتماعي وانها المحرك الرئيسي لتطور القوى المنتجة . اما علاقات الانتاج القديمة التي تأخرت عن تطور القوى المنتجة فانها **تعرقل** حركتها الى امام .

ان التطابق بين علاقات الانتاج وطابع القوى المنتجة هو شرط لازم لتطور الانتاج . وبهذا الشكل او ذاك فان هذا التطابق يوجد في جميع التشكيلات الاقتصادية الاجتماعية ، ولكن في التشكيلات التي سبقت الاشتراكية ، المؤسسة على الملكية الخاصة والاستغلال لا تستطيع علاقات الانتاج ان تتطابق باستمرار مع القوى المنتجة المتطورة . وهنا تتطابق علاقات الانتاج مع طابع القوى المنتجة وبالتالي تنفذ دور المحرك الرئيسي لتطور الانتاج فقط في المرحلة الاولى من وجود اسلوب الانتاج . وبعد هذا تبدأ علاقات الانتاج تشيخ وتتأخر عن تطور القوى المنتجة مما يؤدي الى ظهور تناقض بين القوى المنتجة الجديدة وعلاقات الانتاج القديمة .

ان هذا التناقض ليس عفويا او انما ينشأ من جوهر الجوانب المختلفة للانتاج الاجتماعي . فالقوى المنتجة هي العنصر الاكثر حركة في الانتاج . انها تتغير باستمرار في اطار اسلوب الانتاج نفسه . ويمكن ان تكون هذه التغيرات جوهرية الى حد كبير . اما فيما يتعلق بعلاقات الانتاج فانها رغم طروء تغيرات معينة عليها . غير انها تبقى ثابتة من حيث الاساس ؛ في اطار اسلوب معين للانتاج . ان القوى المنتجة في الرأسمالية مثلا قد طرات عليها تغيرات عميقة منذ وجدت حتى الان في حين ان علاقات الانتاج هي الان كما كانت في السابق تستند على الملكية الرأسمالية الخاصة .

وبسبب محافظة علاقات الانتاج وثباتها المعروف فانها تتأخر عن تطور القوى المنتجة ولهذا تبدأ باعاقة تطورها ، وتدخل في تناقض معها . وبتطور القوى المنتجة المتواصل يصبح دور علاقات الانتاج المعرقل أوضح للعيان والتناقض اعمق واكثر تفاقما ، وفي النهاية يتحول الى صدام ، وتتضح ضرورة الثورة الاجتماعية التي تبيد علاقات الانتاج القديمة وتدعم الجديدة .

هذا هو الديالكتيك الموضوعي للقوى المنتجة وعلاقات الانتاج في ظروف المجتمع الطبقي المتناحر . لنر الان كيف يبدو هذا الديالكتيك في التطور الحسي للمجتمع البشري .

٤ ـ تاريخ المجتمع كتاريخ للتطور والتبدل القانوني لاساليب الانتاج

ما دام اسلوب الانتاج هو الاساس المادي للحياة الاجتماعية ، الذي يقرر جميع جوانبها الاخرى . فان تاريخ المجتمع يجب ان يبحث قبل كل شيء كتاريخ للتبدل القانوني لاساليب الانتاج .

ويعرف التاريخ خمسة اساليب انتاج متتابعة هي : اسلوب الانتاج المشاعي البدائي ، والقائم على الرق ، والاقطاعي والرأسمالي والاشتراكي . وسنبحثها بهذا التسلسل بالضبط .

المجتمع البدائي

ان تاريخ المجتمع يبدأ بظهور الانسان الذي تميزه عن الحيوانات قدرته الخاصة على صنع ادوات العمل واستخدامها . ان العمل يمثل المرتبة الاولى من الاهمية في تكوين الانسان وتطوره . وفي عملية العمل اكتمل الانسان نفسه وظهرت وتطورت اشكال تنظيماته الاجتماعية . والشكل الاول الادنى لتنظيم الناس هو ـ تاريخيا ـ نظام المشاعية البدائية . فلقد وجد على مدى مئات الوف السنين ، وفي مجرى هذه الفترة الطويلة انتقل الانسان في الانتقال من استعمال الاشياء الجاهزة في الطبيعة ـ كالعصا والحجارة الى صنع اولى ادواته البدائية . وقد كانت هذه في البداية خشنة الصنع من الحجارة والخشب والقرون والعظام (ادوات قاطعة وسكاكين وازاميل ومكاشط ومختلف انواع الرماح وسنارات لصيد السمك وغيرها) . وبعد ذلك تحسنت هذه الادوات وصنعت بعناية . وظهرت ادوات جديدة ووسائل عمل جديدة ، القوس والنشاب ، القوارب ومركبات الجليد و ... الخ . وتعلم الانسان اشعال النار الذي كان له اهمية خاصة كبيرة لتطور البشرية .

وسوية مع اتقان الادوات تطور وتحسن نشاط الناس الانتاجي . وانتقل الانسان من جميع المنتجات الجاهزة في الطبيعة (فواكه واثمار وحشائش) الى تربية النباتات اصطناعيا اي الى الزراعة ، ومن صيد الحيوانات الوحشية الى تدجينها وتحويلها الى حيوانات اليفة ـ أي الى تربية الحيوان .

إن المستوى الواطيء جدا للقوى المنتجة في نظام المشاعية البدائية حتم علاقات انتاج مطابقة لها . وكان أساس علاقات الانتاج هذه الملكية العامة على وسائل الانتاج في ذلك الوقت . وما يرتبط بها من علاقات تعاون ومساعدة متبادلة بين الناس . وان هذه العلاقات حتمها واقع ان الانسان

بوجود ادوات العمل البدائية تلك ما كان يمكنه مواجهة قوى الطبيعة الجبارة الا بشكل جماعي مشترك .

وفي المشاعية البدائية ، عاش الناس في جماعات محددة — عشائر توحدوا فيها على أساس القرابة . وفلحوا بصورة مشتركة الارض المشتركة وبأدوات مشتركة . وكانت مساكنهم مشتركة يلجأون اليها في الاوقات السيئة وهربا من الوحوش الكاسرة . وكان ما يجمع من المنتجات يقسم بالتساوي ، وبسبب مستوى القوى المنتجة الواطيء جدا كان الناس يحصلون على مقدار من المنتجات بالكاد يكفيهم ليظلوا على قيد الحياة . ولم يكن هناك ما يمكن الاستثمار به . ولم توجد ملكية خاصة ولا طبقات ومن ثم لم يوجد استغلال .

غير انه في ظروف المجتمع البدائي جرى تطور القوى المنتجة ، ورغم ان هذا التطور جرى ببطء شديد ، لكنه كان الى امام دائما . وقد تحسنت ادوات العمل واغتنت تجربة الناس الانتاجية . وكانت القفزة الجبارة في تطور الانتاج هي الانتقال من ادوات العمل الحجرية الى المعدنية . ان الادوات الجديدة — المحراث الخشبي ذا السكة المعدنية والفأس البرونزية او الحديدية وغيرها جعلت العمل اكثر انتاجية . واصبح من الممكن تطوير الزراعة وتربية الحيوان بمقاييس اوسع . وظهر الانقسام الكبير الاول للعمل حيث انفصلت تربية الحيوان عن الزراعة . وبعد ذلك بقليل انفصلت الحرف كفرع خاص في الانتاج (صنع ادوات العمل ، الاسلحة ، الملابس الاحذية . . . الخ) وظهر تبادل المنتجات وبدأ في التطور .

وبزيادة انتاجية العمل بدأت العشيرة بالتفكك الى عوائل منفصلة ، وظهرت الملكية الخاصة ، وصار مالك وسائل الانتاج هو العائلة وتركزت هذه الوسائل بشكل رئيسي في ايدي عوائل ارستقراطية العشيرة السابقين . وبسبب ان الشغيل صار ينتج من المنتجات اكثر مما هو ضروري للابقاء على وجوده ظهرت امكانية الاستثمار بالمنتوج الزائد وبالتالي الاستغلال ، واغتناء بعض افراد المجتمع على حساب الآخرين . وبتطور الملكية الخاصة والتبادل اشتدت عملية تفكك العشيرة البدائية وأخلت مساواة المشاعية البدائية المكان لعدم المساواة الاجتماعية ، وظهرت أولى الطبقات المتعادية : العبيد ومالكي العبيد .

وهكذا فان تطور القوى المنتجة ادى الى استبدال مجتمع المشاعية البدائية بمجتمع الرق .

ان القوى المنتجة الموروثة عن مجتمع المشاعية البدائية تطورت اكثر في مجتمع الرق . ان الادوات الخشبية والحجرية تركت مكانها نهائيا للادوات المعدنية ، البرونزية اولا ومن ثم الحديدية . فالمحراث الخشبي ذو السكة المعدنية ، ومن ثم المحراث الحديدي والمنجل المعدني وغيرها من الادوات اعطت امكانية لزيادة انتاجية العمل في الزراعة والى جانب زراعة الحبوب ظهرت زراعة البساتين والخضراوات ولسقي الاراضي بنيت وسائل صناعية : القنوات والسدود والمنشآت المائية و ... الخ . ولطحن الحبوب بنيت المطاحن . وتطور استثمار المناجم حيث يستخدم العمل اليدوي . واستخدمت الخامات المعدنية والمطاحن والهواوين لطحن الخامات وافران صهر المعادن .

واستمرت عملية انقسام العمل وتخصصت في الانتاج الحرفي فروع مختلفة : استخراج المعادن ، صنع الأسلحة ، الملابس ، الاحذية ، الحدادة ، صنع الفخار ، الحياكة ، الجلود و ... الخ . واستعملت مختلف الادوات المختصة في الحرف ، وظهرت ابسط انواع المخارط ومنفاخ الحدادة .

وقد تطور بسعة ، البناء وبناء السفن والتكنيك العسكري . ونمت المدن وتطورت التجارة .

ان تطور القوى المنتجة في ظروف الرق قد سبب تطابق علاقات الانتاج معها . ان اساس علاقات الانتاج في مجتمع الرق كان ملكية مالك العبيد الارقاء الكاملة على وسائل الانتاج وعلى العبد نفسه على حد سواء ، وكذلك على كامل المنتجات التي ينتجها . ان مالك العبيد الارقاء كان يترك للعبد فقط ما هو ضروري لمنعه من الموت جوعا .

وبهذا اقيمت في مجتمع الرق علاقات سيطرة وخضوع ، علاقات الاستغلال القاسي لجماهير العبيد المحرومة تماما من الحقوق . وقد ساعدت هذه العلاقات لفترة معلومة على تطور القوى المنتجة ،، وبعد ذلك ، استنفذت امكانياتها وتحولت الى عقبة كأداء للتطور الاجتماعي . لقد تطلب الانتاج تحسينا مستمرا للادوات ولزيادة انتاجية العمل . ولكن العبد لم تكن له مصلحة في هذا : اذ لم يطرأ على وضعه اي تحسن . وان العبد نفسه ـ القوة المنتجة الاساسية قد انحط جسميا وفكريا ، في ظل ظروف الاستغلال اللاانساني . وبمرور الوقت تفاقمت التناقضات بين القوى المنتجة وعلاقات الانتاج في مجتمع الرق الى حدها الاقصى . وقد وجدت هذه التناقضات تعبيرها في انتفاضات العبيد . ان العبيد المستغلين دون رحمة ، والذين بلغ يأسهم اقصى درجاته انتفضوا ضد مضطهديهم . وقد ادت انتفاضاتهم

الى جانب هجمات القبائل المجاورة الى تقويض اسس النظام القائم على الرق والذي قام على انقاضه المجتمع الجديد ـ الاقطاعي .

المجتمع الاقطاعي

ان التطور التقدمي للقوى المنتجة أستمر ايضا في ظروف الاقطاعية وفي هذا العصر بالذات ملك الناس عنان طاقة المياه والرياح لمساعدة قواهم العضلية ، فاستخدموا المطاحن المائية والهوائية والمراكب الشراعية وغيرها . وتعلم الناس ان يحصلوا على الحديد من الصب واكتشفوا الورق والبارود وطباعة الكتب وقاموا باكتشافات عديدة اخرى لعبت دورا كبيرا في تاريخ البشرية .

وتطورت الحرف اكثر وصنعت اسلحة واجهزة جديدة واتقنت القديمة. وقد احرز تقدم كبير وخصوصا في انتاج النسيج حيث ظهر دولاب الغزل ونول النسيج للاشرطة وبرم الحرير ومكائن الفتل وغيرها من المعدات التكنيكية . وتوسع الاختصاص في العمل الحرفي الذي ازدادت انتاجيته بشكل ملحوظ . وبتطور الحرف والتجارة كبرت المدن ، وتحول بعضها الى مراكز حرفية وتجارية عالمية كبيرة .

وتطورت الزراعة ، وزرعت انواع جديدة وجديدة من الحبوب والثمار والخضراوات وبدىء باستخدام الاسمدة وفلاحة الارض بعناية . وتطورت تربية الحيوانات وبدىء بالاستفادة من الماشية للانتاج والجر على نطاق واسع .

ان تطور القوى المنتجة في الاقطاعية سببته العلاقات الانتاجية الاقطاعية. وكان اساس هذه العلاقات هو الملكية الاقطاعية على وسائل الانتاج وقبل كل شيء الارض ؛ والملكية غير الكاملة على الشغيل ـ الفلاح القن . فقد كان للاقطاعي الحق في ان يرغم الفلاح على العمل له وان يفرض عليه مختلف الالتزامات ، وكان يستطيع بيعه وشراءه (١) ، ولكن حياة الفلاح لم تعد مملوكة للاقطاعي .

وكما هو الحال في النظام القائم على الرق كذلك في الاقطاعية كانت علاقات الانتاج علاقات سيطرة وخضوع واستغلال الفلاح القن من قبل الاقطاعي . ورغم هذا فان هذه العلاقات كانت اكثر تقدمية مما كانت عليه في المجتمع العبودي ذلك انها خلقت مصلحة معينة للشغيل بالعمل . فقد كان

---

(١) مع الارض ـ المترجم .

للفلاحين والحرفيين اقتصادهم الشخصي (فالفلاح كان يملك قطعة ارض، وحصان وغيرها من الماشية البيتية ، ومعدات زراعية ، وكان الحرفي يملك ادوات ومعدات بسيطة جدا) ، الذين يشتغلون فيه لانفسهم بعد ان ينفذوا جميع التزاماتهم تجاه الاقطاعي . وقد كانوا ذوي مصلحة في اتقان الادوات وفي تحسين اساليب العمل في الزراعة والعمل الحرفي .

وقد مر الوقت، واستمرت القوى المنتجة على التطور وسببت الاكتشافات الجغرافية العظيمة في نهاية القرن الخامس عشر وبداية السادس عشر ، دفعا هائلا لتطور القوى المنتجة (اكتشاف اميركا والطريق البحري الى الهند وغيرها) وتكون السوق العالمي ، وتنامي الطلب على مختلف البضائع التي كان يمكن ان تؤمن من قبل الانتاج الحرفي . وهكذا حلت المانيفاكتورة محل مشاغل الحرفيين .

ان المانيفاكتورة حشدت في مكان واحد عدداً وفيرا من العمال وقامت بتقسيم عمل واسع بينهم وبهذا بالضبط زادت انتاجية العمل بشكل كبير . وكان ظهور المانيفاكتورة يعني ولادة الجديد ، الانتاج الراسمالي ، وما يلازمه من طبقات متضادة ــ البورجوازيين والبروليتاريا ــ في رحم المجتمع الاقطاعي .

إن تطور القوى المنتجة الجديدة المتواصل دخل في تناقض مع علاقات الانتاج الاقطاعية . فالمانيفاكتورة بحاجة الى عمال احرار والاقطاعية تربط الفلاح بالارض ، والمانيفاكتورة بحاجة إلى سوق واسع وتكوين هذه السوق يعيقه الانعزال والتضييق الاقطاعيين والاقتصاد الطبيعي . وقد ظهرت ضرورة إستبدال العلاقات الانتاجية الاقطاعية بعلاقات جديدة راسمالية . وقد تم هذا بفعل العديد من الثورات البورجوازية التي ساهم فيها بفعالية وتحت قيادة البورجوازية الفلاحون الاقنان والفئات الدنيا من سكان المدن .

المجتمع الرأسمالي

ان ما يميز القوى المنتجة في **الراسمالية** هو الانتاج الكبير القائم على استخدام الالات . ان المشغل الحرفي والمانيفاكتورة استبدلت بمعامل ومصانع ومناجم واحواض تعدين ضخمة . « ان اخضاع قوى الطبيعة واستخدام الالات وتطبيق الكيمياء على الصناعة والزراعة ، ثم الملاحة التجارية والسكك الحديدية والتلغراف الكهربائي ، وهذه القارات الكاملة التي كانت بورا فأخصبت ، وهذه الانهار والترع التي أصلحت وراحت البواخر تمخر عبابها ،

وهذه الشعوب التي كأنما قذفتها من بطن الارض قوة سحرية » (١) . هذا هو الطابع الذي ميز به ماركس وانجلز القوى المنتجة في الراسمالية وذلك في « بيان الحزب الشيوعي » . وقد عملت الراسمالية في قرن او قرنين من بدء وجودها في ميدان تطور القوى المنتجة اكثر مما تم في كل عصور البشرية السابقة .

ان هذا التطور السريع للقوى المنتجة كانت قد سببته علاقات الانتاج الرأسمالية الجديدة . ان اساسها الملكية البورجوازية الخاصة التي قضت بالتدريج وبدون رحمة على الملكية الاقطاعية . ان العامل المنتج — البروليتير — في الرأسمالية حر من الناحية القانونية ، وغير مرتبط لا بالارض ولا بمؤسسة معينة ما . انه مستقل بمعنى انه حر في ان يعمل لهذا الراسمالي او ذاك ، غير انه ليس مستقلا عن الطبقة البورجوازية ككل . وبحكم حرمانه من وسائل الانتاج فانه مضطر لان يبيع قوة عمله ، ولهذا بالذات يحمل نير الاستغلال .

ان علاقات الانتاج الراسمالية سببت ظهور واقع الربح الراسمالي في الانتاج . ان الجشع للارباح — على وجه الخصوص — هو الذي دفع البورجوازيين على توسيع الانتاج واتقان التكنيك وتحسين الاساليب التكنيكية في الصناعة والزراعة . الا ان هذه العلاقات لم تسبب تطورا في الانتاج لم يسبق له مثيل فحسب وانما سببت خلق تلك القوى المنتجة التي وضعت كامل النظام الراسمالي على حافة فنائه . وقد شبه ماركس وانجلز الراسمال بالساحر الذي اطلق بتعاويذه قوى جبارة الى درجة انه هو نفسه لم يعد قادرا على الصمود امامها .

وارتباطا بالتطور العظيم للقوى المنتجة فان علاقات الانتاج الرأسمالية لم تعد تتطابق معها وتحولت الى قيود تعيق تطورها . وانكشف التناقض العميق جدا في اسلوب الانتاج الراسمالي التناقض بين الطابع الاجتماعي لعملية الانتاج والشكل الرأسمالي الخاص لتملك ثمار الانتاج . ان الانتاج في المجتمع البورجوازي ذو طابع اجتماعي واضح جدا ، حيث تساهم فيه ملايين كثيرة من الشغيلة ، محتشدين في المؤسسات الكبيرة . اما ثمار عمل هذه الملايين فتمتلكه حفنة من مالكي وسائل الانتاج . هذا هو التناقض الاساسي في الراسمالية .

وفي الثلث الاخير من القرن التاسع عشر تطورت الرأسمالية الى **استعمار** ، الذي هو مرحلتها العليا والاخيرة . والسمة الرئيسية للاستعمار

---

(١) ك . ماركس و ف . انجلز : « بيان الحزب الشيوعي » ص ٦٩ . دار الطبع والنشر باللغات الاجنبية — موسكو — الطبعة العربية .

هي سيطرة الاحتكارات التي حلت محل المزاحمة الحرة . ان الاحتكارات هي اتحادات ضخمة للراسماليين تركز في ايديها انتاج وتوزيع الجزء الغالب من هذه المنتجات او تلك . ان الاستعماريين بسعيهم الجشع وراء الارباح يشددون استغلال الشغيلة في بلدانهم وشعوب المستعمرات والبلدان التابعة ، ويشنون صراعا ضاريا لاعادة تقسيم العالم الذي سبق وقسموه فيما بينهم .

وفي ظروف الاستعمار تتفاقم تناقضات المجتمع الراسمالي حتى حدها الاقصى ، وقبل كل شيء التناقض بين الطابع الاجتماعي للانتاج والشكل الخاص للتملك . ان هذا التناقض يولد الازمات والبطالة ويسبب صراعا طبقيا ضاريا بين البورجوازية والبروليتاريا ، وهو الاساس الاقتصادي للثورة الاشتراكية . ان الثورة الاشتراكية الظافرة تدمر علاقات الانتاج الراسمالية وتوطد اسلوب الانتاج الاشتراكي .

الفصل الحادي عشر

اسلوب الانتاج الاشتراكي

تحول الاشتراكية الى الشيوعية

عند بحثنا مسألة تطور الانتاج الاجتماعي اشرنا الى ان كل اسلوب انتاج جديد قائم على التناحر بين الطبقات يظهر في رحم النظام القديم السابق له . والان سنبين كيف يظهر اسلوب الانتاج الاشتراكي ، وما هي خصائص ولادته وتطوره .

١ . خصائص نشوء اسلوب الانتاج الاشتراكي

خلافا لاسلوب الانتاج الراسمالي يقوم اسلوب الانتاج الاشتراكي على اساس الملكية الاجتماعية ولا ينسجم مع الاستغلال . وهذا يعني انه لا يمكن ان يظهر في رحم النظام الراسمالي ، كما ظهر النظام الراسمالي في رحم المجتمع الاقطاعي .

ولا ينشأ عن هذا ان الاشتراكية تظهر في ارض عراء ، ذلك ان مقدمات الاشتراكية تظهر في الراسمالية ـ انتاج الالات الكبير بدرجة عالية من المركزة وازدياد اجتماعية العمل والتطور العالي للعلم والتكنيك ، كما تنمو في الراسمالية القوة المدعوة لتحقيق الاشتراكية ـ الطبقة العاملة التي تمر بمدرسة الصراع الطبقي الضاري ضد البورجوازية وتنشيء حزبها ولها وجهة نظر علمية .

الا أن هذه المقدمات وحدها ليست كافية لاقامة اسلوب الانتاج الاشتراكي ، ذلك ان علاقات الانتاج الاشتراكية لا يمكن ان تتكون في رحم الراسمالية . ان الاشتراكية تقطع كل صلة نهائيا بالملكية الخاصة وتزيل ، الى

الابد ، الاستغلال وكل اضطهاد آخر . ولهذا لا بد من ثورة اشتراكية ومرحلة انتقالية كاملة من الراسمالية الى الاشتراكية . وفي هذه المرحلة ، تنشيء الطبقة العاملة التي اخذت بأيديها السلطة ، بالتعاون مع جميع الشغيلة ، وبشكل واعي مبرمج ، اسلوب الانتاج الاشتراكي الجديد . وتلعب دورا كبيرا في هذا الانشاء الدولة الاشتراكية والحزب الشيوعي .

إن الطبقة العاملة في بلادنا بعد ان احرزت السلطة ، بنتيجة ثورة اوكتوبر الاشتراكية العظمى ، بدات حالا في خلق الظروف لتعزيز علاقات الانتاج الاشتراكية . وقد تم اولا تأميم الانتاج الرأسمالي الكبير ، الصناعة الكبيرة ، البنوك ، النقل ، و (البرق والبريد والتلفون) ووسائل المواصلات . وبهذا توطدت علاقات الانتاج الاشتراكية في القطاع الاساسي من الاقتصاد الوطني – الصناعة . وصفيت في الوقت نفسه الملكية العقارية الكبيرة على الارض . ان هذين الاجرائين الهامين جدا قوضا من الاساس القوة الاقتصادية للبورجوازية ، وصفيا طبقة الملاك الكبار الرجعية وعززا تحالف العمال والفلاحين .

ان الطبقة العاملة بعد ان اخذت بأيديها المواقع القيادية في الاقتصاد الوطني ، حصلت على امكانية الشروع في تحقيق البرنامج الذي وضعه لينين لبناء الاشتراكية . واهم حلقاته تصنيع البلاد واشاعة التعاونية في الزراعة . ان انتصار سياسة التصنيع اعطى امكانية خلق القوى المنتجة للاشتراكية في الصناعة ، وتحضير مقدمات التحويل الاشتراكي في الزراعة ، وضمان احدث المكائن والمعدات . وبتحقيق برنامج لينين التعاوني تم خلق اقتصاد زراعي كبير قائم على اساس استخدام المكائن ، وكان هذا يعني توطد العلاقات الانتاجية الاشتراكية في هذا الفرع المتأخر في الاقتصاد .

وبنتيجة تحقيق تصنيع البلاد واشاعة التعاونية في الزراعة كانت قد توطد في الاتحاد السوفيتي في نهاية الثلاثينات اساوب الانتاج الاشتراكي . فخلال عام ١٩٣٧ كانت ٩٩٪ من الارصدة الانتاجية في البلاد ملكية اجتماعية . واعطت المؤسسات الاشتراكية في هذه السنة ٩٩٫٨٪ من المنتوج العام في الصناعة و ٩٨٫٥٪ في الزراعة .

واليوم تسير في طريق التطور الاشتراكي العديد من البلدان الديمقراطية الشعبية في اوروبا وآسيا . ان عملية خلق اسلوب الانتاج الاشتراكي في هذه البلدان تخضع للقوانين العامة لنظام الاشتراكية ككل . غير ان اشكال وتائر التحويل الاشتراكي ليست واحدة في الاقطار المختلفة . اذ تختلف مثلا اشكال اعادة بناء الصناعة الراسمالية الى اشتراكية ، وتختلف وتائر التصنيع . ففي البلدان المتاخرة من ناحية تطورها الصناعي في السابق يتم

التصنيع بأسرع من البلدان المتطورة صناعيا في السابق . وتختلف كذلك اشكال اشاعة التعاونية في الزراعة من بلدان المنظومة الاشتراكيه .

ولكن رغم الاشكال المختلفة فان جوهر هذه التحويلات يظل واحدا : تصفية الملكية الراسمالية الخاصة وتوطيد الملكية الاجتماعية الاشتراكية ـ الاساس الاقتصادي للاشتراكية .

٢ . دياليكتيك القوى المنتجة وعلاقات الانتاج في الاشتراكية

القوى المنتجة وعلاقات الانتاج في الاشتراكية

ان الصناعة الاشتراكية ، والزراعة ، والنقل ووسائل الاتصال وصناعة الانشاءات وكذلك الشغيلة العاملين في هذه الفروع من الاقتصاد الوطني ـ هي **القوى المنتجة** في مجتمعنا . توجد في البلاد السوفييتية مئتا الف مؤسسة حكومية تنتج القسم الاعظم من كل المنتوج الصناعي ، وعشرات الوف مؤسسات الصناعة المحلية . وفي الزراعة يوجد حوالي ستة آلاف سوفخوز وعشرات الوف الكولخوزات . وتوجد في بلادنا ايضا شبكة واسعة من خطوط السكك الحديد وطرق السيارات واسطول نهري وبحري . وقد انجز في بلادنا بناء عظيم ، واتسعت وتطورت شبكة التلغراف والتلفون والراديو والتلفزيون و .. الخ .

ان القاعدة التكنيكية للاقتصاد الاشتراكي هي الانتاج الالي الكبير ، المتطور باستمرار والذي يستخدم على نطاق واسع الطاقة الكهربائية والكيمياء ، وفي بعض الفروع الطاقة الكهربائية والمكننة المجموعية والاتمتة .

وان القاعدة الاساسية لكل الاقتصاد الوطني في بلادنا ومصدر جبروته وغناه هي الصناعة الثقيلة .

ان اهم عنصر في القوى المنتجة في الاشتراكية هو الناس ، شغيلة بلادنا ـ العمال ، والكولخوزيون ، واختصاصيو الهندسة والتكنيك . وفي سنوات السلطة السوفييتية كدس عمال الانتاج الاشتراكي خبرة انتاجية هائلة ، وهم يديرون بنجاح اعقد التكنيك واكثره تنوعا ، ويؤمنون تقدما تكنيكيا متواصلا وزيادة مستمرة لانتاجية العمل .

ان تطور القوى المنتجة والاتقان المستمر لادوات ووسائل الانتاج ، والعادات الانتاجية لدى الناس هي شرط ضروري لتطور الانتاج الاشتراكي .

وعلى اساس القوى المنتجة للاشتراكية نمت وتطورت **علاقات الانتاج الاشتراكية** . ويكمن في اساس هذه العلاقات الملكية الاجتماعية الاشتراكية على وسائل الانتاج . والملكية الاجتماعية توجد بشكلين : **ملكية الدولة** اي

ملكية الشعب كله في شخص الدولة الاشتراكية **والملكية الكولخوزية التعاونية** اي ملكية كولخوزات معينة او اتحادات تعاونية . وشكلا الملكية هذين شكلان اشتراكيان للملكية يضمنان حل مهمات بناء الشيوعية . ان الشكل الاساسي والغالب للملكية في المجتمع الاشتراكي هو ملكية الدولة .

ان الملكية الاشتراكية في النظام الاشتراكي تسبب علاقات انتاج تقوم على التعاضد الاخوي والمساعدة المتبادلة بين العمال في الانتاج . ولا مكان هنا لاي استغلال للانسان من قبل الانسان ، وهذا في الواقع اعظم افضليات علاقات الانتاج الاشتراكية والفارق الجذري بينها وبين علاقات الانتاج في المجتمع الطبقي المتناحر .

وعلى اساس الملكية الاشتراكية تأكد المبدأ الاشتراكي للتوزيع حسب العمل . « من لا يعمل لا يأكل » — هذا ما يقول به المبدأ .

وهكذا فان الملكية الاشتراكية على وسائل الانتاج وما ينشأ عنها من علاقات التعاضد الرفاقي والمساعدة المتبادلة بين عمال متحررين من الاستغلال، وكذلك المبدأ الاشتراكي للتوزيع حسب العمل تمثل جوهر علاقات الانتاج في الاشتراكية .

تطابق علاقات الانتاج الاشتراكية مع طابع القوى المنتجة

ان المجتمع الاشتراكي قد قضى نهائيا على التناقض التناحري الذي يلازم الرأسمالية ، التناقض بين الطابع الاجتماعي للانتاج والشكل الخاص للتملك . فالانتاج في ظل الاشتراكية له طابع اجتماعي واضح . اذ يعمل في المؤسسات الصناعية والزراعية الكبيرة في بلادنا ملايين العمال والكولخوزيين . ولكن خلافا للرأسمالية حيث نتائج عمل الملايين تعود الى حفنة من المستغلين ، فان ثمار الانتاج في المجتمع الاشتراكي تعود الى المنتجين انفسهم ، الى الشغيلة . ان سيادة الملكية الاشتراكية التي هي اساس علاقات الانتاج الاشتراكية تحدد الطابع الاجتماعي للتوزيع . ان ثلاثة ارباع الدخل الوطني في بلادنا يستخدم لتأمين الحاجات الشخصية للشغيلة المادية منها والثقافية . والجزء المتبقي من الدخل يذهب لتوسيع الانتاج ولفيره من الحاجات الاجتماعية ، اي انه يعود للشغيلة ايضا .

وفي المجتمع الاشتراكي **يوجد تطابق بين علاقات الانتاج وطابع القوى المنتجة** ، ومن المهم ان يلاحظ ان هذا التطابق له طابع غير مؤقت او انتقالي وانه يوجد ليس في المرحلة الاولى من تطور الانتاج ، كما هو الحال في الراسمالية مثلا ، وانما طيلة الوقت ، ما دام يوجد ويتطور اسلوب الانتاج الاشتراكي . والامر على هذه الشاكلة لان الطابع الاجتماعي للقوى المنتجة في

الاشتراكية يتطابق مع الملكية الاجتماعية على وسائل الانتاج .

ان علاقات الانتاج الاشتراكية اذ تتطابق مع القوى المنتجة تعطي مجالا لا مثيل له لحركتها الى إمـام وانها عامل جبار لتطور الانتاج . فليس الطمع في الحصول على الارباح وانما مصلحة الشغيلة كلها في نهوض الانتاج هي التي تدفع تطور الانتاج الاشتراكي .

والمظهر الواضح لعلاقات التعاون والمساعدة المتبادلة الاشتراكية ، هو المباراة الاشتراكية ، التي يسعى الشغيلة في مجراها ، الى التخلص من نواقص العمل ويساعدون المتأخرين على اللحاق بمستوى الطليعيين .

وتولد علاقات الانتاج الاشتراكية واقعا قويا للتقدم الاقتصادي ، ذلك هو **المصلحة المادية** للعامل في نتائج عمله. فكلما كان عمل العامل او الكولخوزي او المثقف كثيفا وذا نوعية إعلى ، كلما حصل على وسائل معيشية اكثر . ومن هذا سوف يكسب المجتمع ايضا . ان **التوفيق العضوي بين المصالح الشخصية والاجتماعية** في الاشتراكية هو عامل قوي لتطور الانتاج .

وبفضل علاقات الانتاج الاشتراكية حول الشعب السوفييتي ، بقيادة الحزب الشيوعي ، روسيا المتأخرة الى دولة اشتراكية جبارة ذات صناعة وزراعة كولخوزية ، لقد انتج خلال عام ١٩٦١ في الاتحاد السوفييتي من الحديد ١٢ مرة ، ومن الفولاذ ١٦٫٥ مرة ، ومن البترول ١٦ مرة ، ومن الفحم الحجري ١٧٫٥ مرة اكثر مما انتج في روسيا القيصرية عام ١٩١٣ .

وفي يوم واحد تنتج صناعتنا لبناء المكائن والتعدين الان بمقدار ما كانت تنتجه الصناعة في روسيا قبل الثورة . وان كمية الطاقة الكهربائية التي كانت تنتجها روسيا قبل الثورة تنتجها محطاتنا الكهربائية اليوم في يومين وبضع ساعات . وان النجاحات في حقل الزراعة عظيمة ايضا . فقد تمنى لينين العظيم ان يكون لدينا مئة الف تراكتور لاظهار افضلية الاقتصاد التعاوني القائم على استخدام الالات. واليوم تعمل في حقول وطننا ملايين التراكتورات وغيرها من المكائن الزراعية التي تدلل على القوة العظمى للنظام الكولخوزي .

ومما يميز سرعة تطور الانتاج الاشتراكي انها اكبر بمرات عديدة مما هو موجود في اكثر البلدان الراسمالية تطورا . فخلال سنوات ١٩٥٦ ــ ١٩٦١ كان معدل الزيادة السنوية للمنتوج الصناعي في الاتحاد السوفييتي ١٠٫٢٪ . اما في الولايات المتحدة فقد كان نقط ٢٫٣٪ . ان الاتحاد السوفييتي يلحق بثقة الولايات المتحدة سواء من حيث الحجم العام للانتاج او من حيث الانتاج بالنسبة للفرد من السكان .

ان علاقات الانتاج الاشتراكية تضمن تقدما عاصفا للاقتصاد الوطني لجميع البلدان الراسمالية . ففي الوقت الذي لم تزد فيه وتائر تطور

الاقتصاد الراسمالي خلال السنوات العشر الاخيرة عن ٥٪ بلغت في العالم الاشتراكي ما يقرب من ١٤٪ .

حول تناقضات اسلوب الانتاج الاشتراكي ان نطابق القوى المنتجة وعلاقات الانتاج في الاشتراكية لا ينفي وجود تناقضات معينة بينها. فالقوى المنتجة التي هي محتوى الانتاج الاجتماعي ، هي في الاشتراكية ايضا الجانب الاكثر حركة وثورية . اما فيما يتعلق بالشكل الذي هو علاقات الانتاج ، فانها شأنها شأن كل شكل ، تتأخر عن تطور المحتوى . ومن هنا تنشأ بعض التناقضات بين القوى المنتجة وعلاقات الانتاج في ظروف الاشتراكية .

ما هو جوهر هذه التناقضات ؟

سبق وان بينا انه في الاشتراكية تكونت على اساس الملكية الاجتماعية على وسائل الانتاج علاقات اشتراكية للصداقة والمساعدة المتبادلة بين الناس. هذه العلاقات تمثل سلسلة معقدة من التأثير المتبادل بين العمال في الصناعة والزراعة ، بين مختلف فروع الانتاج الصناعي والزراعي ، بين المدينة والقرية، بين اناس العمل الفكري والجسدي و .. الخ .

ان هذه السلسلة من تفاعل الروابط الاقتصادية بين الناس السوفييت ، تتطابق بشكل عام مع طابع القوى المنتجة وتضمن تطورها السريع الشامل . ولكن مهما كانت هذه السلسلة جيدة فان بعض حلقاتها لا تستطيع ان تتابع التطور العاصف للقوى المنتجة وتتأخر . ولهذا فانها تدخل في تناقض مع القوى المنتجة وتتحول الى عقبات في طريق التطور الاقتصادي وتظهر ضرورة استبدال هذه الحلقات الشائخة بأخرى جديدة وبهذا يضمن التطور المطرد للانتاج دون عقبات . ان الطابع المبرمج للاقتصا دالاشتراكي

، ومصلحة الشغيلة كلهم في استبعاد العوائق التي تعرقل تطور الانتاج تمكن الحزب الشيوعي والدولة السوفييتية من تحسين علاقات الإنتاج الاشتراكي واستبدال الحلقات الشائخة من هذه العلاقات — في الوقت المناسب — بأخرى جديدة تقدمية ، والتغلب ، بهذا الشكل ، على تناقضات اسلوب الانتاج الاشتراكي .

وسنضرب على هذا بعض الامثلة .

في المرحلة التي كانت فيها مكننة الزراعة في بلادنا غير عالية بما فيه الكفاية ، اقيمت كولخوزات صغيرة بأرض قليلة نسبيا . ومن ثم جهزت الزراعة بمكائن ومعدات بمقاييس كبيرة غير ان الكولخوزات الصغيرة لم تعط الامكانية لاستخدام التكنيك الزراعي الموجود ، بشكل فعال ، الامر الذي

سبب تناقضات معينة في الزراعة . وبعد تكبير الكولخوزات بموافقة تامة واسناد كامل من جانب الكولخوزيين تغلب الحزب الشيوعي والحكومة السوفييتية على هذه التناقضات وضمنا تطور الانتاج الكولخوزي .

وفيما بعد دخل تطور القوى المنتجة في الزراعة في تناقض مع الاشكال الشائخة لتجهيز الكولخوزات بالتكنيك من قبل محطات التراكتورات والمكائن الزراعية . ان محطات التراكتورات والمكائن الزراعية لعبت دورا كبيرا في عملية خلق الانتاج الكولخوزي ، ولكن بعد ذلك ، وعندما توطدت الكولخوزات بشكل ملحوظ بدا وجود مالكين على ارض واحدة (محطة التراكتورات والمكائن الزراعية من جهة والكولخوز من جهة اخرى) يعيق استخدام التكنيك والقوة العاملة .

ونتيجة لاعادة التنظيم التي قام بها الحزب والحكومة خلال عام ١٩٥٨ لمحطات التراكتورات والمكائن الزراعية . وبيع الاجهزة التكنيكية الزراعية للكولخوزات ، كان قد ابعد التناقض الذي ظهر . ان هذا الاجراء خطوة هامة جدا في تطور علاقات الانتاج الاشتراكية . وان نتيجة هذا كانت تمتين الرابطة بين الانتاج الصناعي والزراعي ، وتعزيز النظام الكولخوزي . وقد اصبحت الكولخوزات الان السيد الوحيد للارض التي اعطيت لها من قبل الدولة للاستثمار الدائم ، واصبحت المستثمر ذو السلطة المطلقة للقوة العاملة والتكنيك .

ان الاجراء الهام الذي ازال العائق لتطور القوى المنتجة في المجتمع الاشتراكي ، كان ما ذكرناه سابقا ، من تغيير جرى عام ١٩٥٧ حيث استبدل النظام السابق لقيادة الصناعة والبناء عن طريق الوزارات والادارات المركزية بمجالس الاقتصاد الوطني للمناطق الاقتصادية . ان تكوين مجالس الاقتصاد الوطني قد حسن بشكل ملحوظ استخدام الطاقات الانتاجية والثروات الطبيعية . وكان من نتيجة ذلك توطيد وتطوير الروابط الانتاجية بين المناطق الاقتصادية والمشاريع بشكل اعظم ، وبالتالي توطيد وتعزيز علاقات الوحدة والمساعدة المتبادلة بين الشغيلة .

وينشأ عما قلناه ان التطابق بين القوى المنتجة وعلاقات الانتاج في الاشتراكية ليس شيئا جامدا حصل مرة واحدة ويبقى على الدوام . ان هذا التطابق بتطوره وتحسنه المستمرين لا ينفي وجود تناقضات معينة . غير انه ، خلافا لما في الراسمالية حيث علاقات الانتاج ككل هي في تناقض تناحري مع طابع القوى المنتجة ، نجد في الاشتراكية ان بعض العناصر والجوانب المنفردة من علاقات الانتاج هي وحدها التي تتأخر عن تطور القوى المنتجة . وبينما تؤدي تناقضات الانتاج الراسمالية في النهاية الى الثورة

الاشتراكية والى استبدال علاقات الانتاج الراسمالية بعلاقات انتاج جديدة اشتراكية ، نجد في ظروف الاشتراكية ان حل التناقضات غير التناحرية في اسلوب الانتاج يتم فقط بتغيير العناصر المنفردة الشائخة من علاقات الانتاج . اما فيما يتعلق بعلاقات الانتاج ككل فانها تستمر في التطور والتحسن .

٣ . انشاء القاعدة المادية والتكنيكية للشيوعية وتحول علاقات الانتاج الاشتراكية الى شيوعية

ان المنجزات العظيمة في جميع ميادين الحياة الاجتماعية ، والنجاحات الهائلة للاشتراكية مكنت البلاد السوفييتية من الانتقال الى مرحلة جديدة في تطورها ـ مرحلة **البناء الواسع للشيوعية** . ان المهمة الاقتصادية الرئيسية لهذه المرحلة هي انشاء **القاعدة المادية والتكنيكية للشيوعية** . وسنبحث ماذا تمثل القاعدة المادية والتكنيكية للشيوعية وكيف يتم انشاؤها ، وبعد ذلك سنشرح كيف تتحول علاقات الانتاج الاشتراكية ، على اساس هذه القاعدة ، الى شيوعية .

انشاء القاعدة المادية والتكنيكية للشيوعية

لقد حقق الانتاج الاشتراكي في سنوات السلطة السوفييتية نجاحات هائلة ومع هذا فهو ليس في وضع يمكنه تماما من ضمان الوفرة من الخيرات المادية والروحية الضرورية لسد حاجات الناس المتنامية ولتطورهم الشامل المتناسق . وبدون هذا ، كما هو معروف ، لا يمكن ان توجد شيوعية . فمن اجل بناء المجتمع الشيوعي اذن يجب الوصول اولا الى نهوض جديد اكثر جبروتا للانتاج الاجتماعي ، وبكلمة اخرى ، يجب انشاء القاعدة المادية والتكنيكية للشيوعية .

ان انشاء القاعدة المادية والتكنيكية للشيوعية هو الحلقة الحاسمة في سلسلة المهام الاقتصادية والاجتماعية والثقافية التي تمليها الظروف الداخلية والخارجية لتطور بلادنا على حد سواء . وان بناءها سيمكن البلاد السوفييتية من حل اهم مهمات بناء الشيوعية :

ـ انشاء قوى منتجة جبارة لا مثيل لها في السابق ، واحتلال المرتبة الاولى في العالم من حيث الانتاج بالنسبة للفرد الواحد من السكان

ـ تطوير انتاج الخيرات المادية لسد جميع حاجيات الناس السوفييتيين وضمان اعلى مستوى معيشة لجميع السكان ، وخلق كل الشروط الضرورية

للانتقال للتوزيع حسب الحاجات .

ــ ضمان اعلى انتاجية عمل في العالم ، التي هي في النهاية الامر الرئيسي الاكثر اهمية لانتصار النظام الجديد ، الشيوعي ، وتسليح الانسان السوفييتي بأحدث التكنيك ، وتحويل العمل عن هذا الطريق الى مصدر للسعادة والاسهام والابداع .

ــ التحويل التدريجي لعلاقات الانتاج الاشتراكيه الى شيوعية ، وانشاء المجتمع اللاطبقي ، وتصفية الفروق الجوهرية بين المدينة والقرية ، وبعد ذلك بين العمل الفكري والعمل اليدوي .

ــ الاحتفاظ باستمرار بقدرة البلاد الدفاعية في مستوى يمكن من تحطيم كل معتدي يتجرأ على رفع يده ضد الاتحاد السوفييتي وكل المعسكر الاشتراكي .

ما هي خصائص القاعدة المادية والتكنيكية للشيوعية ، وما هي طرق ومراحل بنائها ؟

ان الجواب الشافي على هذه الاسئلة يعطيه البرنامج الجديد للحزب الشيوعي في الاتحاد السوفييتي . فقد اوضح في البرنامج بأن انشاء القاعدة المادية والتكنيكية للشيوعية ينبغي ان لا يفهم على انه مجرد نمو كمي للقدرات الانتاجية ، وزيادتها بشكل بسيط . انه يفترض اولا وقبل كل شيء ، **تغييرات** نوعية عميقة في طابع العملية الانتاجية نفسه . ان كهربة البلاد كهربة تامة ، وعلى هذا الاساس ، اتقان التكنيك وتكنولوجية وتنظيم الانتاج الاجتماعي في جميع فروع الاقتصاد الوطني ، والمكننة المجموعية لعمليات الانتاج . واشاعة الاتمتة بصورة اكمل فأكمل ، واستخدام الكيمياء على نطاق واسع في الاقتصاد الوطني ، والتطور الشامل لفروع الانتاج ذات الفعالية الاقتصادية والحصول على انواع جديدة من الطاقة والمواد ، واستخدام الموارد الطبيعية والمادية والعملية استخداما شاملا وعقلانيا ، والجمع بين العلم والانتاج جمعا عضويا ، والتقدم العلمي والتكنيكي بوتيرات سريعة ، وارتفاع مستوى الشغيلة الثقافي والتكنيكي ، والتفوق تفوقا ملحوظا على ارقى البلدان الراسمالية من حيث انتاجية العمل ــ هذه هي الخصائص النوعية للقاعدة المادية والتكنيكية للشيوعية .

ان اساس بناء اقتصاد المجتمع الشيوعي هو **الكهربة** . انها تلعب دورا قياديا في جميع فروع الاقتصاد الوطني ، وفي ضمان التقدم التكنيكي الحديث بأجمعه . ولهذا تلحظ في برنامج الحزب الشيوعي في الاتحاد السوفييتي وتيرات عالية لانتاج الطاقة الكهربائية ، تفوق تطور الفروع الاخرى للاقتصاد الوطني . ففي نهاية مرحلة العشرين سنة سيصل انتاج الطاقة

الكهربائية في الاتحاد السوفييتي حوالى ٣٠٠٠ مليار كيلوواط ساعة سنويا ـ وهو ما يقارب مقدار مرة ونصف المرة مما تنتجه سنويا في الوقت الحاضر جميع المراكز الكهربائية في كل اقطار العالم . ان انتاج مثل هذه الكمية من الطاقة الكهربائية سوف يعني تحقيق صيغة لينين « الشيوعية هي سلطة سوفييتية مضافا اليها كهربة البلاد بأسرها » .

ان الكهربة الكاملة ستضمن الحد الاقصى من الاسراع في **التقدم العلمي التكنيكي** اي التطوير والاتقان المتواصلين لادوات وتكنولوجية وتنظيم الانتاج على اساس احدث منجزات العلم والتكنيك ، وستمكن من تحقيق المكننة المجموعية واشاعة الاتمتة في الانتاج . ونتيجة هذا سوف تزيد انتاجية العمل وسيصبح العمل نفسه اسهل بدرجة ملحوظة . ان الاتمتة والكهرباء سوف تحرر الانسان من العمل المرهق والضار وغير الموصوف . وسيصبح العمل مشوقا ومبدعا وغير متعب جسديا . وهذا شرط اللازمي لتحول العمل الى حاجة حيوية اولى .

ومما له اهمية كبيرة جدا لانشاء القاعدة المادية والتكنيكية للشيوعية هو الزيادة السريعة المطردة في انتاج **المعدن والوقود** والحد الاقصى من تطوير **بناء المكائن وصناعة البناء** وجميع انواع **النقل والمواصلات** .

وستتطور **الصناعة الكيمياوية** بوتائر عالية استثنائية ،

وهذا

ليس امرا عفويا . فالانتاج الحديث بسرعته التي لا سابق لها ، وضغطه العالي وحراراته العالية جدا لا يمكن التفكير به دون مواد تركيبية جديدة ووقود ومواد اولية جديدة تتفوق بنوعيتها على كل ما هو معروف في الطبيعة تفوقا ملحوظا . ان الاستخدام الواسع للمواد التركيبية كشف آفاقا لا سابق لها في تطور العلم والتكنيك وزاد من سيطرة الانسان على الطبيعة وجمل حياته .

ومن بين المهام ذات الاهمية البالغة في البناء الشيوعي على نطاق واسع هي **التوزيع العقلاني للقوى المنتجة على المناطق** . وستبنى لهذا الهدف مراكز كهربائية جديدة ومعامل ومصانع ومناطق تعدينية ومناجم في مناطق شرقي الاورال التي تحوى ثروات طبيعية لا حصر لها ، من مصادر المواد الاولية والطاقة . وسيتطور بصورة اكبر اقتصاد جميع المناطق الاخرى في البلاد .

ان التوزيع العقلاني يؤمن التوفير في العمل الاجتماعي وتطوير المناطق ككل وتخصص اقتصاداتها ويزيل احتشاد السكان الكثيف في المدن الكبرى . وبهـذا سيتساوى اكثر فاكثر مستوى التطور الاقتصـادي لمختلف مناطق وطننا .

وللعلم اهمية هائلة في انشاء القاعدة المادية والتكنيكية للشيوعية ، وبنجاحات البناء الشيوعي سيتخذ استخدام احدث المنجزات العلمية مقاييس اوسع فأوسع . وسيندمج العلـم فـي النتيجة اندماجا عضويـا بالانتاج وسيتحول الى قوة منتجة مباشرة . ان اندماج العلم بالانتاج عامل هام جدا للتعجيل بالتقدم العلمي التكنيكي .

والى جانب تطور ادوات ووسـائل الانتاج تتغـير في مجرى البـناء الشيوعي ايضا القوة المنتجة الرئيسية في المجتمع الا وهي الناس . الشغيلة . ان تقدم التكنيك وتطوير واتقان ادوات الانتاج يفترض بشكل الزامي وجود اناس قادرين على تحقيق التقدم التكنيكي والسير معه خطوة فخطوة ، دون ان يتخلفوا في تطورهم عن المتطلبات العالية للتكنيك الـذي يزداد تعقيدا باستمرار . وفي مجرى انشاء القاعدة المادية والتكنيكية للشيوعية يجري بالتأكيد تكوين هؤلاء الناس ـ العمال والمهندسين التكنيكيين والملاكات العلمية، القادرين على تشغيل التكنيك الجبار للشيوعية ولينفخوا فيه الحياة .

ان التقدم التكنيكي يزيد زيـادة ملحوظة متطلبات الثقافة الانتاجية والاعداد الاختصاصي والتعليم العام لجميع الشغيلة . ولهذا فـان تطوير واتقان التكنيك يرفع بشكل دائب مستوى الثقافة التكنيكية لشغيلة الانتاج . ويلعب في هذا دورا ملحوظا ما يرتبط بالتقدم التكنيكي من تسهيل لشروط العمل وانقاص وقته وازدهار المعيشة .

ان ثقافة الشغيلة الواسعة التكنيكية وحذقهم في ادارة الانتاج الممكنن والمؤتمت هي وسـائل جبارة للوصول الـى انتاجية عمل عالية جدا ؛ هذه الانتاجية التي يتميز بها الانتاج الشيوعي .

ان انشاء زراعة متطورة من جميع النواحي وعالية المردود ؛ الى جانب الصناعة الجبارة هي شرط الزامي لبناء القاعدة المادية والتكنيكية للشيوعية . وان النهوض الجبار للقوى المنتجة في الزراعة يمكن من تحقيق الوفرة فـي المنتجات الغذائية العالية النوعية للسكان والمواد الاولية للصنـاعة وسيؤمن انتقال القرية السوفييتية تدريجيا الى العلاقات الاجتماعية الشيوعية .

تحول علاقات الانتاج الاشتراكية الى علاقات شيوعية

ان انشاء القاعدة المادية والتكنيكية للشيوعية هو اساس التطور اللاحق لعلاقات الانتاج الاشتراكية ولتحولها تدريجيا الى علاقات شيوعية ، التي ستكون **ارقى علاقات بين اناس احرار ، واعين ومتطورين من جميع النواحي .**

ان علاقات الانتاج الاشتراكية والشيوعية تستند الى الملكية الاجتماعية على وسائل الانتاج . ولكن في الشيوعية ، بدلا من شكلي الملكية الموجودين

في الاشتراكية ــ ملكية الشعب بأسره ــ ملكية الدولة والملكية التعاونية ــ الكولخوزية . ستوجد **الملكية الشيوعية الواحدة** التي تعود لجميع افـراد المجتمع دون استثناء .

ان التقدم اللاحق نحو الشيوعية سيتم عن طريق تطوير وترقية شكلي الملكية الاشتراكية . وستنضج اكثر ملكية الدولة نتيجة تمركز الانتاج المطرد وازدياد الطابع الاجتماعي للعمل ، واتساع التخصص والتعاون . غـير ان التغيرات العميقة ستحل بالملكية التعاونية الكولخوزية ايضا . فعلى اساس من التطور المتواصل للقوى المنتجة للكولخوزات سيرتفع تدريجيا مستوى اتساع الانتاج الكولخوزي بالطابع الاجتماعي ، وستقترب الملكية التعاونية الكولخوزية اكثر فأكثر من ملكية الدولة ومن ثـم ستندمجان فـي الملكية الشيوعية الواحدة . ان عملية الملكية التعاونية الكولخوزية ستتم منذ الان . حيث تنمو الصناديق غير القابلة للقسمة في الكولخوزات، والتي هي الاساس الاقتصادي للتطور اللاحق للانتاج الكولخوزي . وتتطور الان وستتطور في المستقبل الروابط بين الكولخوزات . وسيتخذ مقاييس اوسع فأوسع بنـاء المراكز الكهربائية ومؤسسات تصنيع المنتجات الزراعية و .. الخ . بجهود العديد من الكولخوزات . ومع تطور كهربة القرية واشاعة المكننة والاتمتة في انتاج المنتجات الزراعية ستتحد وسائل الانتاج الكولخوزية اكثر فأكثر مع وسائل الشعب بأسره ومع تطور الاقتصاد الاجتماعي . فـان حاجات الكولخوزيين من المنتجات الـزراعية سوف تؤمن اكثر فأكثر مع وسائل الشعب بأسره ومع تطور الاقتصاد الاجتماعي . فان حاجات الكولخوزيين من المنتجات الزراعية سوف تؤمن اكثر فأكثر ، ليس من الاستثمـارات الفردية الثانوية الضعيفة المردود ، وانما من المنتوج الكولخوزي العام .

ان ضرورة التقريب التدريجي للملكية التعاونية الكولخوزية من ملكية الشعب بأسره لا تعني مطلقا بـأن الشكل الكولخوزي للملكية قـد فات آوانه . ان هذا الشكل من الملكية يتجاوب تماما مع مستوى وحاجات تطور القوى المنتجة الحالية في القرية . ان الكولخوز هو مدرسة للشيوعية بالنسبة للفلاحين . ولهذا فان طريق تطور العلاقات الانتاجية الشيوعية في القرية هو طريق دعم وتطوير النظام الكولخوزي من جميع النواحي .

وكما قلنا في السابق ان علاقات الانتاج الاشتراكية هي علاقات تعاون وصداقة ومساعدة متبادلة بين جميع شغيلة المجتمع . وفي مجرى البناء الشيوعي فان هذه العلاقات التي تلازم المجتمع الشيوعي ايضا ستصل الى درجة عالية من الرقي لم يسبق لها مثيل . وسيصبح تبادل النشاط الانتاجي بين المدينة والقرية اوثق واكثر تنوعا . وستتطور اكثر اشـكال

تعاون الانتاج بين المناطق الاقتصادية في البلاد والروابط الاقتصادية بين المؤسسات في اطار المناطق نفسها ، والمساعدة المتبادلة بين شغيلة المؤسسات المنفردة ، وبالتالي ستظهر **أسرة شغيلة العمل الشيوعية** الموحدة والعالية التنظيم . ان كل عضو في المجتمع سوف ينفذ بشغف وحماس واجباته العملية وسيساهم في الحياة الاجتماعية . يقول برنامج الحزب الشيوعي في الاتحاد السوفييتي : « ان الشيوعية تحتل اعلى شكل لتنظيم الحياة الاجتماعية . فان جميع الخلايا الانتاجية وجميع الرابطات ذات القيادة الذاتية سترتبط ارتباطا منسقا في اقتصاد عام منهاجي التنظيم ؛ في وتيرة واحدة للعمل الاجتماعي » .

ولحركة فرق ومؤسسات العمل الشيوعي التي يظهر اعضاؤها الآن كنماذج للموقف الجديد ، الشيوعي تجاه ما يعهد اليهم من عمل . ان لهذه الحركة اهمية كبيرة لتطوير واتقان علاقات الانتاج الاشتراكية الى علاقات شيوعية . ان اعضاء هذه الحركة يعتبرون واجبهم الرئيسي استيعاب التكنيك الحديث والاتقان التدريجي للعادات الانتاجية والارتفاع بثقافتهم العامة .

وفي المباراة من اجل العمل الشيوعي تتكون علاقات جديدة بين الناس ويتشكل طراز عالي من الجماعية والتعاضد ويتعاظم الطموح الى المعرفة والتجديد والابداع والرغبة في مساعدة الرفيق على التخلص من عادات وتقاليد الماضي الضارة .

وبتطور القوى المنتجة وزيادة انتاج الخيرات المادية والثقافية على اساس تطوير الملكية الاجتماعية يتطور ويتقن توزيع الخيرات المادية . وبنتيجة هذا ستتأمن اكثر فأكثر الحاجات المادية والثقافية للشغيلة .

قال برنامج الحزب الشيوعي في الاتحاد السوفييتي : ان عمل الشعب السوفييتي البطولي خلق اقتصادا جباراً ومتطورا من جميع النواحي وتتوافر الآن كل الامكانيات من إجل الاسراع في رفع رفاهية السكان كافة : العمال والفلاحين والمثقفين . ان الحزب الشيوعي في الاتحاد السوفييتي يضع مهمة ذات اهمية تاريخية عالمية : يجب ان يتأمن في الاتحاد السوفييتي اعلى مستوى حياة بالمقارنة مع اي بلد من البلدان الرأسمالية. ولتحقيق هذا الهدف توقع برنامج الحزب الشيوعي في الاتحاد السوفييتي تطويرا سريعا لانتاج مواد الاستهلاك الشعبي . ان الموارد المتنامية للصناعة ستستخدم اكثر فأكثر من إجل تأمين حاجات المواطنين السوفييت من جميع النواحي ، ومن اجل بناء وتجهيز المؤسسات واماكن السكن والخدمة الثقافية للسكان .

ان الدخل الوطني في الاتحاد السوفييتي سيزيد خلال السنوات العشر الحالية حوالى المرتين ونصف المرة ، وفي عشرين سنة حوالى خمس مرات . ان المداخيل الفعلية للفرد الواحد من السكان ستزيد خلال عشرين سنة اكثر من ثلاث مرات ونصف . ومن المهم ان نبين بأن الزيادة المستمرة للمداخيل الفعلية للشغيلة سيرافقها تخفيض مستمر لوقت العمل وتحسين متواصل لظروف العمل .

ان الطريق الرئيسي لرفع مستوى معيشة الشغيلة هو رفع الاجور الفردية بصرف النظر عن كمية ونوعية العمل ، وبالتوافق مع تخفيض اسعار المفرق والغاء الضرائب المفروضة على السكان .

وكما قلنا سابقا فان المجتمع الاشتراكي الآن ليس في وضع يمكنه ان يؤمن حاجات جميع المواطنين تأمينا كاملا . ولهذا وضع الحزب مهمة المحافظة بدقة على المبدا الاشتراكي للتوزيع حسب العمل واتقانه في المستقبل ايضا ، موفقا بهذا بين المصلحة المادية للشغيلة وبين تطور الدوافع المعنوية تجاه العمل . وفي هذا المجال توجد اهمية كبيرة لتنظيم الاجور المطبق حاليا والذي يتم بموجبه وضع اجور الشغيلة في كل فرع من فروع الاقتصاد الوطني تبعا لكمية ونوعية عمله ، الى درجة اكبر فاكبر . على ان يؤخذ بعين الاعتبار التخفيض المستمر للفارق بين دخول فئات ذوي الاجور العالية وذوي الاجور الواطئة من الشغيلة .

وتتقن اشكال دفع الاتعاب في الكولخوزات وتنتشر هناك ، اكثر فاكثر ، اشكال تقدمية كالسلف الشهرية للكولخوزيين والدفع نقدا مقابل العمل وغيرها . وسيصبح دفع اتعاب العمل للكولخوزيين بالتدريج بنفس الشكل المتبع في مؤسسات الدولة ، وسيحصل الكولخوزيين على جميع انواع الضمانات الاجتماعية (الاجازات والتقاعد و .. الخ) على حساب اموال الكولخوزات والدولة .

والى جانب زيادة الاجور الفردية للشغيلة فان الطريق الآخر لوصول الاتحاد السوفييتي ارقى مستوى معيشة في العالم هو توسيع الصناديق الاجتماعية الى الحد الاقصى ، هذه الصناديق التي توزع بين اعضاء المجتمع بصرف النظر عن كمية ونوع عملهم ؛ اي مجانا (التعليم ؛ الطبابة ، اعالة الاطفال في مؤسسات الاطفال و .. الخ) .

وبتقدم المجتمع السوفييتي نحو الشيوعية فان وتائر تنامي الصناديق الاجتماعية للاستهلاك ، المخصصة لتلبية الحاجات الشخصية ستزيد على وتائر زيادة الدفع الفردي حسب العمل ، وبالتالي فان الصناديق الاجتماعية للاستهلاك ستشكل ، بعد عشرين سنة ، حوالي نصف مجموع الدخول

الفعلية للسكان . وان هذا سيمكن من تأمين اعالة الاطفال في مؤسسات الاطفال ، والمدارس الداخلية والتعليم في جميع المعاهد التعليمية، والخدمات الطبية لجميع المواطنين مع توفير الدواء لهم ، والتطبيب في المصحات للمرضى واستخدام المساكن والخدمات العامة والنقل وبعض انواع الخدمات المعيشية مجانا وعلى حساب المجتمع . وستخفض الضرائب باستمرار وسيطبق الاستخدام المجاني جزئيا لدور الراحة والبانسيونات ومحطات السياح وكذلك سيتحقق الانتقال التدريجي الى التغذية المجانية (وجبة الغذاء) في المشاريع والدوائر والكولخوزات . وستؤمن للسكان مساعدات اوسع فأوسع وامتيازات ومخصصات (مساعدات للامهات الوحيدات ومخصصات للطلاب .. الخ) وان المجتمع سيأخذ على عاتقه كليا اعالة العاجزين عن العمل .

ان هذا الطريق بالتأكيد طريق زيادة الصناديق الاجتماعية للاستهلاك الفردي ، تدريجيا ، بالتوافق مع التوزيع حسب العمل هو المحتوى الملموس للتحول التدريجي من المبدأ الاشتراكي للتوزيع حسب العمل الى المبدأ الشيوعي للتوزيع حسب الحاجات .

غير ان الانتقال نهائيا الى المبدأ الشيوعي للتوزيع سوف لن يتم الا عندما يستنفذ المبدأ الاشتراكي دوره تماما اي عندما يتم التوصل الى الوفرة في الخيرات المادية والثقافية ويتحول العمل الى حاجة حيوية اولى لجميع اعضاء المجتمع . وان هذا الوقت سيحل بصورة اسرع كلما تطورت القوى المنتجة بسرعة اكبر وارتفعت انتاجية العمل وازداد النشاط العملي للشعب السوفييتي سعة .

هذه هي المهمات الاقتصادية الاساسية للبناء الشيوعي في بلادنا . ان تنفيذ هذه المهام سيكون له اهمية بالغة بالنسبة لمصير البشرية كلها .

ان الشيوعية هي الهدف العظيم للحزب الشيوعي والشعب السوفييتي . والآن ماذا تعني الشيوعية ، وما هي الآفاق التي تكشفها امام البشرية ؟

٤ • الشيوعية هي المستقبل المشرق للانسانية جمعاء

ان الشيوعية هي حلم الانسانية طيلة قرون . فمنذ القرن السادس عشر ، ايام القرون الوسطى المظلمة كتب العالم الانجليزي الانساني توماس مور كتابه المشهور « اتيوبيا » وتحدث فيه عن المجتمع الذي ينعدم فيه استغلال الانسان وحيث يخلق الناس الوفرة من وسائل المعيشة ويحصل كل واحد منهم على نعم الحياة الضرورية حسب حاجاته .

ومن ثم تخيل مثل هذا المجتمع الفريد المفكر الايطالي كاميانيلد والاشتراكيان الطوباويان الفرنسيان فورييه وسان سيمون والكاتب والفيلسوف الروسي جيرنيشفسكي وكثير غيرهم من عقول البشرية النيرة . ان الاشتراكيين الطوباويين انتقدوا الراسمالية بعمق وتنبأوا بعبقرية ببعض ملامح المجتمع الشيوعي الذي يجب ان يحل محلها . ولكن لم يكن بامكانهم ان يكتشفوا الطرق الحقيقية لبناء هذا المجتمع . ان الطوباوية وعدم تحقيق تخيلاتها عن الشيوعية كان بسبب عدم نضج العلاقات الاجتماعية في ذلك الوقت . فلا تطور الانتاج ولا غيره من الظروف الاجتماعية في ذلك الزمن البعيد كانت تسمح ببناء الشيوعية .

ان ماركس وانجلز — نظريي وقائدي الطبقة العاملة العبقريين — وحدهما استطاعا ان يحولا الشيوعية من فكرة طوباوية الى علم . فانهما اذ كشفا قوانين التاريخ الانساني برهنا بأن الشيوعية ليست حلما انسانيا غير قابل للتحقيق ، وانما هي نتيجة حتمية للتطور الاجتماعي . ان ماركس وانجلز لم يحدداً اوضح الخصائص المميزة للشيوعية فحسب وانما اشارا الى طرق الوصول اليها . وبكشفهما اعمق تناقضات الراسمالية برهنا بشكل مقنع بأن الوسيلة الوحيدة لحل هذه التناقضات هي الثورة الاشتراكية . واشارا الى القوة الثورية المدعوة لتحطيم العالم القديم وبناء الجديد . وهذه القوة هي البروليتاريا . ان البروليتاريا بعد ان تحطم سيطرة البورجوازية تقيم سلطتها هي — دكتاتورية البروليتاريا — وتؤمن انتصار الاشتراكية عن طريق تنظيم الفئات الواسعة من الشغيلة .

ان لينين العظيم طوز فيما بعد التعاليم الماركسية عن الشيوعية . فقد بلور وعمق التعريف الذي اعطاه ماركس وانجلز عن طوري المجتمع الشيوعي ، وقام بوضع برنامج بناء الاشتراكية وكشف سنن تحولها تدريجيا الى الشيوعية .

ان الناس السوفييتيين تحت قيادة الحزب الشيوعي اذ ساروا في طرق غير معروفة وتغلبوا على مصاعب وحرمانات هائلة جعلوا من البرنامج

اللينيني لبناء الاشتراكية واقعا حيا . فقد انتصرت الاشتراكية في البلاد السوفييتية انتصارا تاما ونهائيا . ان العمل الجبار والنضال المتفاني والرجولة الخارقة للحزب اوصلت بلادنا الى مقربة من الشيوعية ، حيث ان بناء المجتمع الشيوعي اليوم هو مهمة الشعب السوفياتي العملية المباشرة .

فماذا تمثل الشيوعية ؟

الشيوعية هي نظام اجتماعي لا طبقي تقوم فيه ملكية الشعب بأسره الواحدة لوسائل الانتاج ، والمساواة الاجتماعية التامة بين جميع اعضاء المجتمع ، حيث ، الى جانب تطور الناس من جميع النواحي ، ستنمو ايضا القوى المنتجة على اساس العلم والتكنيك المتطورين على الدوام ، وتتدفق جميع مصادر الثروة الاجتماعية سيلا كاملا ويتحقق المبدأ العظيم « من كل حسب كفاءاته ولكل حسب حاجاته » . ان الشيوعية انما هي مجتمع عالي التنظيم لكادحين احرار وواعين ، سترسخ فيه الادارة الذاتية الاجتماعية ، ويغدو فيه العمل لخير المجتمع الحاجة الحيوية الاولى في نظر الجميع وأمرا يدركون ضرورته ، وتطبق فيه كفاءات كل فرد بافيد وجه في صالح الشعب(١) .

ان الشيوعية تنجز رسالة تاريخية عظيمة : انها تخلص جميع الناس من التفاوت الاجتماعي ، ومن جميع اشكال الاضطهاد والاستغلال ومن فظاعات الحروب وتقيم على الارض السلم والعمل والحرية والمساواة والاخوة والسعادة لجميع الشعوب .

ان قيام الشيوعية على الارض سوف يكون اعظم انقلاب ثوري في كل تاريخ الانسانية ، الممتد عبر القرون ، وسوف يعني تغيرات عميقة بكل معنى الكلمة في جميع نواحي النشاط الانساني في الانتاج وفي طابع ظروف العمل ، وفي العلاقات الاجتماعية والثقافة واسلوب معيشة الناس وفي افكارهم ووجهات نظرهم . ان الشيوعية ستؤمن لكل انسان الظروف التي

---

(١) برنامج الحزب الشيوعي في الاتحاد السوفييتي - الطبعة العربية . ص٧٧ .

تتجاوب تماما مع اخص مطامحه والتي تتفق مع انبل المثل الانسانية .

ان المجتمع الشيوعي يتميز اولا بمستوى عال جد للانتاج المتطور باستمرار وبانتاجية عمل لـم يسبق لها مثيل ، هذه الانتاجية التي يضمنها التقدم العلمي التكنيكي السريع . وفي الشيوعية سيتم التوصل الى اعلى درجة من التنظيم المنهاجي للاقتصاد ويتأمن استخدام الخيرات المـادية والموارد الطبيعية بانجع وجه واعقله . ان الشيوعية اذ تسلم الناس بأرقى واقوى تكنيك ترفع الى مستوى عالي سيطرة الانسان على الطبيعة وتمكن من ترويض قواها العفوية اكثر فأكثر ، والاستفادة منها لصالح الانسان . ان هدف الانتاج الشيوعي هو تأمين التقدم الاجتماعي المستمر واعطاء كل فرد في المجتمع القيم المادية والثقافية وفقا لحاجاته المتنامية باستمرار واهتماماته وذوقه .

ان الشيوعية اذ تؤمن مختلف حاجات الناس سوف لن تكون مجتمع الفوضى والكسل والمطالة . وسيكون العمل هو المصدر الرئيسي لغنى المجتمع الشيوعي المادي والمعنوي . وفي الشيوعية سوف يعمل الجميع بطواعية ووفقا لقدراتهـم ، وبهذه الطريقة يضاعفون الثروة الاجتمـاعية ويعززون جبروت المجتمع ، وسيتبدل طابع العمل نفسه . فسيتوقف العمل عن ان يكون وسيلة للعيش فقط وسيتحول الى حاجة حيوية اولى والى ابداع حقيقي ومصدر للفرح والسعادة .

ان الشيوعية تضع حدا لانقسام المجتمع الى طبقات وفئات اجتماعية. وان التغلب النهائي على الفوارق الاجتمـاعية ـ الاقتصـادية ، والثقافية والمعيشية بين المدينة والقرية ، واندماج شكلي الملكية الاشتراكية في الملكية الشيوعية الواحدة ، سيؤدي الـى اختفاء طبقتي العمال والفلاحين . ان شغيلة العمل اليدوي سيرتفعون الى المستوى الثقافي والتكنيكي لشغيلة العمل الفكري . وبسبب هذا فسوف لن يوجد المثقفون في الشيوعية كفئة اجتماعية مستقلة . ان كل عضو من اعضاء المجتمع سوف يمارس العمل الفكري والعمل اليدوي على حد سواء حيث ستتوحد جهود الفرد الفكرية والجسدية في نشاطه الانتاجي بشكل عضوي .

وسيكون لجميع اعضاء المجتمع الشيوعي علاقة واحدة بوسائل الانتاج ولهذا سيكون لهم وضع متساو وشروط متساوية في العمل والتوزيع وسيشتركون بنشاط في تصريف الشؤون الاجتماعية . وسيتوطد انسجام العلاقات بين الفرد والمجتمع على اساس الوحدة المتينة للمصالـح العامة والفردية .

وستحقق الثقافة في الشيوعية نهوضا لم يسبق له مثيل . ان الثقافة

الشيوعية التي ترث وتطور كل ما هو تقدمي ، وافضل ما خلقته الثقافة العالمية ستكون مرحلة جديدة عليا في تطور الانسانية الثقافي ، انها سوف تجسد في ذاتها كل غنى وتنوع الحياة الثقافية والمبدئية السامية وانسانية المجتمع الجديد .

ان الشيوعية تفترض انسانا جديدا يتناسق فيه الغنى الروحي والنقاء الاخلاقي والكمال الجسماني . ان الوعي الشيوعي وحب العمل والانضباط والاخلاص لمصالح المجتمع ، تلك هي الصفات المتكاملة لهذا الانسان . وان التنظيم والدقة التي يتطلبها الانتاج الشيوعي سوف تتأمنان لا عن طريق الاكراه بل على اساس ادراك الواجب الاجتماعي ادراكا عميقا . وسيكون انسان الشيوعية متناسقا ومتطورا من جميع النواحي ؛ حيث ستتطور قابلياته ومواهبه وتزدهر كليا وتتجلى بوضوح افضل خصاله الروحية والجسمانية .

وبالوصول الى الشيوعية سيتحقق الهدف السامي للحزب الشيوعي حيث سيبنى المجتمع الذي سيخط على رايته « من كل حسب قدرته ولكل حسب حاجته » وسيتحقق كليا شعار الحزب « كل شيء باسم الانسان ولخير الانسان » .

الفصل الثاني عشر

القاعدة والبناء الفوقي

كنا قد بينا ان القوة الرئيسية المقررة للتطور البشري هي اسلوب انتاج الخيرات المادية . اما مسألة : كيف يقرر اسلوب الانتاج ، علاقات الانتاج : جميع العلاقات الاجتماعية الاخرى (السياسية والحقوقية والخلقية وغيرها) وكيف تؤثر هذه الاخيرة من جهتها على التطور الاقتصادي، فالنظرية الماركسية اللينينية عن القاعدة والبناء الفوقي هي التي تحلها .

١ . التاثير المتبادل بين القاعدة والبناء الفوقي وخصائص تطورها

ما هي القاعدة وما هو البناء الفوقي

تعين المادية التاريخية العلاقات **المادية** : **الانتاجية** ، من بين جميع العلاقات الاجتماعية المختلفة الاشكال ، باعتبارها العلاقات الرئيسية المقررة . ان مجموع العلاقات الانتاجية يمثل التركيب الاقتصادي للمجتمع اي **قاعدته** . وسنكرر ان علاقات الانتاج تشمل اشكال الملكية وما ينشأ عنها من علاقات بين الناس في عملية الانتاج واشكال توزيع الخيرات الاجتماعية .

ولكل مجتمع قاعدته . ان نوع القاعدة كمجموع لعلاقات الإنتاج يتعلق بوضع القوى المنتجة . وان اية قاعدة لا يمكن ان تظهر قبل ان تنبثق في داخل المجتمع القديم الظروف المادية المناسبة ــ القوى المنتجة الضرورية لظهورها .

ان القاعدة حال ظهورها تلعب دورا كبيرا في حياة المجتمع . انها تمكن الناس من ان ينظموا انتاج وتوزيع الخيرات المادية . ذلك انهم لا

يستطيعون ان ينتجوا ومن ثم ان يوزعوا وسائل المعيشة دون ان يقيموا فيما بينهم علاقات اقتصادية .

ان اهمية القاعدة هي في كونها الاساس الحقيقي الذي يرتفع فوقه **البناء الفوقي** أي آراء المجتمع السياسية والحقوقية والفلسفية والاخلاقية والفنية والدينية والمؤسسات والتنظيمات التي تناسبها . ولهذا فان القاعدة تمثل ذلك الجانب من اسلوب الانتاج الذي يقرر **مباشرة** ، **مظهر** المجتمع ، آراءه ومؤسساته .

وللبناء الفوقي دور كبير في التطور الاجتماعي . فانه بعد ان يظهر على اساس قاعدة اقتصادية معينة ، يعبر في النهاية عن موقف الناس تجاه القاعدة . وان مختلف الافكار تساعد الناس على البرهنة على ضرورة توطيد او تحطيم قاعدة ما ، اما المؤسسات والتنظيمات (الدولة ، الاحزاب السياسية .. الخ) فتعطيهم امكانية تحقيق هذه الآراء في الحياة . ويبدي البناء الفوقي تأثيره على تطور القوى المنتجة عن طريق القاعدة . فمن المعروف جيداً — مثلا — دور الحزب الشيوعي والدولة السوفييتية والبناء الفوقي الاشتراكي ككل في حل مهمة بناء القاعدة المادية والتكنيكية للشيوعية ولتطوير القوى المنتجة الشيوعية .

الدور المقرر للقاعدة بالنسبة للبناء الفوقي

ان البناء الفوقي **يولد** من القاعدة ويرتبط بها بشكل لا ينفصل . فكما تكون القاعدة يكون البناء الفوقي . لنأخذ مثلا البناء الفوقي في المجتمع البدائي . فان انعدام الملكية الخاصة والطبقات فيه ، وبالتالي انعدام التناقضات الطبقية كان سببا في ان البناء الفوقي في المجتمع البدائي ليس فيه دولة ولا افكار سياسية وحقوقية ولا ما تقتضيه من مؤسسات .

ان ظهور الملكية الخاصة والطبقات ، اي ظهور قاعدة مجتمع ملاك العبيد ولد وقتذاك نوعا آخر من البناء الفوقي وظهرت الآراء التي تدعم سيطرة ملاك العبيد على العبيد ، وكذلك المؤسسات (الدولة وغيرها) التي تحمي هذه السيطرة .

ان قاعدة المجتمع الطبقي المتناحر ، متناقضة . وانها اذ تعكس علاقات الناس المختلفة بوسائل الانتاج فانها تصور التضاد بين المصالح الطبقية والتناحر بين المضطهدين والمضطهدين . هذا هو ، مثلا ، حال القاعدة الاقتصادية الراسمالية المعاصرة ، التي تتميز قبل كل شيء بالتناحر بين البورجوازية والبروليتاريا ، رغم ان التركيب الاقتصادي للمجتمع

البورجوازي لا يمكن انتصاره طبعا على العلاقات بين هاتين الطبقتين المتناحرتين ، ذلك انه يوجد في المجتمع الراسمالي ، ما عدا البورجوازية والبروليتاريا ، طبقات وفئات اجتماعية اخرى ـ الفلاحون الكادحون والحرفيون والبورجوازية الصغيرة في المدينة والقرية ، وهؤلاء كلهم ايضا يوجدون في تناقض مع البورجوازية الاحتكارية .

وبالنظر لان البناء الفوقي للمجتمع الطبقي المتناحر هو انعكاس للتناقضات في القاعدة فانه بدوره متناقض ايضا . انه يضم في ذاته افكارا ومؤسسات مختلف الطبقات والجماعات الاجتماعية وتسيطر فيه افكار ومؤسسات الطبقة المسيطرة اقتصاديا . كتب ماركس وانجلز : « ان الطبقة التي تمثل القوة **المادية** المسيطرة في المجتمع هي في نفس الوقت القوة **الروحية** المسيطرة(١) » . وتبعا لسيطرة البورجوازية اقتصاديا في الراسمالية تسيطر في المجتمع الافكار والمؤسسات البورجوازية التي تستخدمها البورجوازية في صراعها ضد البروليتاريا ، من اجل تخليد سيطرتها .

غير انه في المجتمع الراسمالي تقف بوجه البورجوازية البروليتاريا التي تصوغ افكارها وتقيم مؤسساتها . وقد بدأ البروليتاريون يفهمون تدريجيا جوهر الراسمالية ، ويدركون ضرورة ابادتها واقاموا تنظيماتهم للنضال ضد البورجوازية ـ الاحزاب السياسية والنقابات والتعاونيات وغيرها . وفي مجرى النضال الثوري استوعبت البروليتاريا النظرية الماركسية التقدمية واعدت مفهومها الاخلاقي وآراءها السياسية والحقوقية والجمالية .

ان الدور المقرر للقاعدة بالنسبة للبناء الفوقي يظهر ليس فقط في ان البناء الفوقي يولد من القاعدة وانما ، ايضا ، في ان التغيرات الجوهرية في النظام الاقتصادي تؤدي حتما الى تغيرات في البناء الفوقي . فبانتقال الراسمالية من مرحلة ما قبل الاحتكار الى مرحلة الاستعمار تحمل الاقتصاد الراسمالي تغيرات جدية : فقد حل الاحتكار محل المزاحمة الحرة . وطبقا لهذا تغير البناء الفوقي البورجوازي وانتقلت البورجوازية في العديد من البلدان من اشكال الديمقراطية البورجوازية لادارة الدولة نحو الاشكال الرجعية الفاشية وشبه الفاشية ، وتضيق اكثر فأكثر حقوق العمال وسائر المنظمات التقدمية الاخرى وينحط الفن البورجوازي وتسيطر في الفلسفة اشد اشكال المثالية رجعية وينشر الدين على نطاق واسع .

---

(١) كارل ماركس و ف. انجلز ـ المؤلفات المختارة ـ ج٢ ص٤٥ . الطبعة الروسية .

ان تغيرات عميقة تجري في البناء الفوقي ، خصوصا ، عند استبدال قاعدة إقتصادية بأخرى نتيجة لثورة اجتماعية . ففي مجرى الثورة تدمر السيطرة السياسية للطبقة القديمة وتقام سيطرة الطبقة الجديدة . ويتكون مكان جهاز الدولة القديم ، جهاز جديد (نظام من المؤسسات السياسية والحقوقية) ويتبدل الوعي الاجتماعي : فالايديولوجية القديمة تستبدل بايديولوجية جديدة تلائم القاعدة المقامة حديثا ، وبكلمة واحدة وكما قال لينين : « فان البناء الفوقي القديم يتحطم في العصر الثوري ويقام الجديد بفعل النشاط الذاتي لمختلف القوى الاجتماعية » (١) .

الاستقلال النسبي للبناء الفوقي ودوره الفعال

ان البناء الفوقي الناشيء عن القاعدة له **استقلال نسبي** واحد فظاهر هذا الاستقلال الهامة هي **الاستمرارية** في تطور البناء الفوقي . ان هذه الاستمرارية تجد تعبيرها في ان التبدل الذي يطرأ على البناء الفوقي عند استبدال القاعدة القديمة بأخرى جديدة لا يعني تصفية اوتوماتيكية لجميع مظاهر البناء الفوقي القديم . فبابادة القاعدة القديمة مثلا يعود يوجد البناء الفوقي للمجتمع القديم ككل وكنظام من الآراء والمؤسسات ، غير ان عناصر معينة منه تعيش اكثر من القاعدة التي ولدت منها . وتنتقل الى البناء الفوقي للمجتمع الجديد . وهنا نرى ان البناء الفوقي الجديد يأخذ من القديم فقط تلك العناصر التي يمكن ان تكون نافعة لطبقات المجتمع الجديد والتي تتجاوب مع مصالح هذه الطبقات .
وهكذا فان كل مجتمع استغلالي حديث الظهور يأخذ من البناء الفوقي للمجتمع الذي سبقه تلك الافكار التي تبرر الاستغلال وتدافع عن المؤسسات السياسية والحقوقية للمستغلين ، ويأخذ الدين . فالدين المسيحي ــ مثلا ظهر ايام النظام القائم على الرق ، وقد خدم الاقطاعية بصدق واخلاص واليوم يخدم البورجوازية .

وتوجد ايضا في البناء الفوقي لكل مجتمع عناصر ثابتة لا تتبدل ، وهي ذات اهمية للانسانية كلها . ومنها مثلا قواعد الاخلاق الانسانية العامة واروع منجزات الثقافة والفن .

وبسبب وجود الاستمرارية فان البناء الفوقي لكل مجتمع انما هو ظاهرة معقدة جدا . فهو يحتوي على الافكار والمؤسسات الموروثة من المجتمع القديم وكذلك الافكار المنبثقة على اساس القاعدة الاقتصادية المعينة .

---

(١) لينين ، المؤلفات المختارة ــ ج٩ ص ١٢٥ ــ ١٢٧ .

ان الاستقلال النسبي للبناء الفوقي يظهر ايضا في ان البناء الفوقي الذي ظهر على اساس القاعدة الاقتصادية ، يلعب دورا فعالا في تطورها . ان الافكار والمؤسسات المسيطرة في المجتمع الطبقي المتناحر تخدم للحفاظ على قاعدته وتوطيدها . انها تدعم سيطرة الطبقة التي ولدتها والمصالح المدعوة للدفاع عنها . ان هذه الافكار والمؤسسات تنير نظريا . وتنظم صراع الطبقة المسيطرة ضد الطبقات الاخرى في المجتمع في المجتمع التناحري المعين ، وقبل كل شيء ضد الطبقات الشغيلة خانقة طموحها نحو التحرر من الاستغلال والاضطهاد الاستعماري وغيره من انواع الاضطهاد.

لنأخذ مثلا إفكار ومؤسسات البورجوازية . ففي مرحلة تكون القاعدة الراسمالية كانت تنشط من اجل تطويرها وتوطيدها وكانت وسيلة جبارة في النضال ضد الاقطاعية . اما الآن حيث تفسخت القاعدة الرأسمالية وحكم عليها التاريخ بالفناء الحتمي فان الافكار والمؤسسات البورجوازية تخدم اضطهاد جميع القوى التقدمية ، وللمحافظة على هذه القاعدة بأي ثمن ، ومن اجل الحيلولة ، او على الاقل تأجيل ، فناء الراسمالية . ان الرأسمالية المعاصرة قد فات إوانها غير انها باقية ، وباقية قبل كل شيء لانه تقف في الدفاع عن مصالحها الدولة البورجوازية والقوانين وجميع وسائل التربية الايديولوجية التي لها دور عظيم جدا في الدفاع عن الرأسمالية .

٣ . القاعدة والبناء الفوقي في المجتمع

تحدثنا في الفصل السابق عندما حللنا خصائص ظهور اسلوب الانتاج الاشتراكي. عن كيفية نشوء علاقات الانتاج الاشتراكية ـ القاعدة الاقتصادية للاشتراكية . ونذكر هنا مرة اخرى ان القاعدة الاشتراكية لا تظهر في رحم الراسمالية وان ما يوجد في الرأسمالية هو فقط مقدمات لاقامة القاعدة الجديدة الاشتراكية .

ومن ثم وبتوطيد القاعدة الاشتراكية يتوطد البناء الفوقي ايضا . ويتطور ويتقن جهاز الدولة ويحقق العلم والفن تطورا عاليا . ويتبدل وعي الناس وتترسخ مبادىء الخلق الشيوعي . وبانتصار الاشتراكية وبرسوخ القاعدة الاشتراكية تنتهي عملية تكون البناء الفوقي الاشتراكي .

ان الشرط الضروري لانشاء القاعدة الاقتصادية للاشتراكية هو اقامة دكتاتورية البروليتاريا ، اي احراز الطبقة العاملة السيطرة السياسية . ومن ثم وبعد ان تركز في يديها وسائل الانتاج الاساسية تنظم الدولة

البروليتارية بشكل منهاجي بناء علاقات الانتاج والاشتراكية في المدينة والقرية . وان اهم مراحل اقامة القاعدة الاقتصادية للاشتراكية هي تصنيع البلاد واشاعة التعاونية في الزراعة .

وبالتالي ، فان القاعدة الاشتراكية لا تظهر عفويا . كما هو حال قواعد المجتمعات الطبقية المتناحرة التي سبقتها ، وانما تقام تحت تأثير الدولة الاشتراكية . وان الدور الفعال في خلقها يلعبه نشاط الشغيلة الواعي الفعال ، وعلى راسها الطبقة العاملة وحزبها الماركسي اللينيني .

وخلافا للقاعدة فان بعض عناصر البناء الفوقي الاشتراكي تظهر في رحم الراسمالية . فالنظرية الماركسية اللينينية وحزب الطبقة العاملة ، ونقابات العمال والخلق البروليتاري والثقافة والفن البروليتاريان كلهاتظهر في ظروف سيطرة القاعدة الراسمالية ، وبعد ذلك تنتقل الى البناء الفوقي للمجتمع الاشتراكي وما عدا ذلك فان البناء الفوقي للاشتراكية يرث افضل منجزات العلم والثقافة والفلسفة لجميع العصور السابقة . غير ان جميع هذه العناصر لا تشكل البناء الفوقي الاشتراكي ككل ، كمجموعة منالافكار والمؤسسات والتنظيمات . ذلك انالبناء الفوقي الاشتراكي ، ككل ، يشيد بعد بناء القاعدة الاشتراكية .

وإرتباطا بهذا سنبحث كيف شيد البناء الفوقي للمجتمع السوفياتي الاشتراكي . ان اسس القاعدة الاشتراكية كانت قد اقيمت في بلادنا منذ الاشهر الاولى للسلطة السوفياتية بتأميم وسائل الانتاج الاساسية . وفي الوقت نفسه تقريبا تم تحطيم جهاز الدولة القديم تماما ، واقيمت الدولة البروليتارية ــ اهم عنصر في البناء الفوقي الاشتراكي . وفي ٢٦ تشرين الاول عام ١٩١٧ كان قد شكل مجلس مفوضي الشعب وفي كانون الاول عام ١٩١٧ شكل Bzt جهاز النضال ضد اعداء الثورة ومقاومة التخريب . وفي ١٥ كانون الثاني ١٩١٨ صدر مرسوم تشكيل جيش العمال والفلاحين الاحمر . وفي ١٤ شباط صدر مرسوم تشكيل الاسطول الاحمر ، وشكلت اجهزة السلطة المركزية والسلطات المحلية .

ان الايديولوجية الاشتراكية والمؤسسات المطابقة لها ــ الدولة الاشتراكية والحزب الشيوعي ، النقابات والكومسومول ومنظمات نشر الثقافة والرياضة والدفاع وغيرها ــ تؤلف بمجموعها **البناء الفوقي الاشتراكي** .

ان البناء الفوقي للمجتمع الاشتراكي يختلف جذريا عن البناء الفوقي للراسمالية المعاصرة.

ان القاعدة الاستغلالية للاستعمار تسبب الطابع الرجعي للبناء الفوقي

الراسمالي. وان ايديولوجية البورجوازية ومؤسساتها وتنظيماتها تتعارض والتقدم الموضوعي لمجرى التاريخ ولا تتجاوب — حتى ولو بمقدار ضئيل — مع مصالح حاجات المجتمع المادية . ومصالح الجماهير الشعبية . انها تنفذ دورا تاريخيا حقيرا — هو الدفاع عن نظام الراسمالية الاقتصادي المتعفن.

ان القاعدة الاشتراكية الطليعية التقدمية تعين جوهر البنـاء الفوقي الاشتراكي وطابعه الفعال الثوري — المحول . ان البناء الفوقي الاشتراكي اذ يعكس التقدم التاريخي وحركة الانسانية الدائبة من الراسمـالية الى الشيوعية يساعد بكل قواه هذه الحركة وينفذ الرسالة التاريخية العظيمة، رسالة توطيد وتطوير القاعدة الاشتراكية التقدمية .

ومن المعلوم ايضا انه في المجتمع الاشتراكي لا تزال توجد افكار وآراء مختلفة كبقايا الراسمالية في وعي بعض الناس السوفياتيين . غير ان هذه الاراء لا تدخل ، ولا يمكنها ان تدخل في البناء الفوقي الاشتراكي . انهـا لا تنشأ عن جوهر القاعدة الاشتراكية نفسه وانما يرثها المجتمع الاشتراكي عن الراسمـالي .

ان البناء الفوقي الاشتراكي إذ يعكس مصالح الشغيلة ويحميها ، فانه من جهته يستفيد من دعم الشغيل المتواصل. ومن هنا منشأ الفعالية الكبيرة للبناء الفوقي الاشتراكي ودوره الهـائل في تطوير القاعدة الاشتراكية وفي كل تطور المجتمع الاشتراكي . ومن الامور المميزة ، انه يتقدم المجتمع السوفياتي نحو الشيوعية فان اهميـة البنـاء الفوقي وتأثيره على تطور قـاعدة المجتمع ككل ، تتعاظم باستمرار . وهذا مرتبط بمهام البناء الاقتصادي والثقافي الهائلة في بلادنا ، وبجذب جماهير جديدة وجديدة الى المساهمة الفعالة في العمل الاجتماعي وارتفاع دور العمل الايديولوجي والتربوي . ان البناء الفوقي الاشتراكي وقبل كل شيء اهم عناصره هما الدولة السوفياتية والحزب الشيوعي اللذان ينظمان الحيـاة الاقتصادية والسياسية والثقافية في بلادنا ، هو عامل هام من أجل البناء الناجح للشيوعية .

الفصل الثالث عشر

الجماهير الشعبية – القوة الحاسمة في التطور الاجتماعي
دور الفرد في التاريخ

ذكرنا فيما سبق ان المجتمع يتطور وفقا لقوانينه الخاصة ، بقوة الضرورة التاريخية . غير إن القوانين الاجتماعية تظهر دائما عن طريق تصرفات وفعاليات الناس الذين يصنعون تاريخهم بانفسهم .

فما هي اهمية الناس في العملية التاريخية ، وما هو دور الجماهير الشعبية ، وما هو دور الافراد المعنيين في التاريخ ؟

انالمادية التاريخية تعتبرالشعب هو الصانع الحقيقي للتاريخ. فلماذا يكون الشعب هو صانع التاريخ ، وما هو دور الفرد فيالتطور الاجتماعي ؟

١ . الشعب هو الصانع الحقيقي للتاريخ، والقوة الحاسمة فيالتطور الاجتماعي .

مفهوم الشعب من اجل الكشف عن دور الشعب كصانع للتاريخ لا بد اولا من تحديد ما نعنيه بالشعب والجماهير الشعبية .

ان الشعب ليس شيئا ثابتا ، خارج التاريخ ، حدد مرة واحدةوالى الابد . كما انه ليس « الفوغاء » البلداء الذين لا يضبطهم نظام و « العامة » المعلومينلكل حضارة وتقدم، كما يحاول انيصوره مفكرو الطبقاتالمستغلة.

الشعبهو اولا الشغيلة، وفيالمجتمعات الطبقيةالمتناحرةهوالمستغلون. في مجتمع الرق الشعب بصورة رئيسية هو العبيد وفي الاقطاعية – الفلاحون والحرفيون . وفي المجتمع الراسمالي يضم الشعب الطبقةالعاملة والفلاحين والمثقفين الشغيلة والفئات الاخرى التي تعملللتطورالاجتماعي. ان الشعب في المجتمعات الطبقية المتناحرة هو الجمهور الاساسيمن

السكان وليس كل السكان . وفي المجتمع الراسمالي المعاصر مثلا تقف بمواجهة الطغمة الرجعية الاستعمارية.

الشعب صانع التاريخ

ان الاهمية الحاسمة للجماهير الشعبية في مجرى التاريخ تنبثق من الدور الحاسم لاسلوب انتاج الخيرات المادية فيتطور المجتمع . ان الانتاجالمادي الذي ذكرناه هو اساس الحياة الاجتماعية . اما القوة المنتجة الرئيسية فهي الشغيلة ، الجماهير الشعبية . وبالتالي فان الشعب ، الشغيلة هم **القوة الحاسمة** في التطور الاجتماعي ، **الصانع** الحقيقي للتاريخ .

. ما هو الشيء الملموس الذي يظهر فيه دور الشعب كصانع حقيقي للتاريخ ؟

ان الشغيلة يصنعون التاريخ اولا وقبل كل شيء بعملهم المنتج. انهم يخلقون جميع القيم المادية : القرى والمدن ، المعامل والمصانع ، الطرق والجسور ، مختلف انواع المكائن ، الملابس والاحذية ، المنتجات الغذائية ومواد الاستهلاك الواسع ، اي كل ما لا يمكن للانسانية ان تعيش بدونه .

ان الجماهير الشعبية هي القوة المحركة الاساسية للتقدم التكنيكي. فلقد طورت جماهير الشغيلة وإتقنت ادوات العمل ، بصبر وداب ، يوما بعد يوم وسنة بعد سنة ، وقرنا بعد قرن ، وغالبا ما قامت بذلك بدون وعي ، وادى هذا في النهاية الى تغييرات جذرية في التكنيك ولتغييرالقوى المنتجة ، هذا التغيير الذي ادى الى تغيير اسلوب الانتاج كله . فمن هذا القبيل مثلا – وحتى قبل ان يوجد الاضطهاد المرهق فيالنظام الاستغلالي– اوجد عمل الناس البسطاء المقدمات المادية للتقدم الانساني ، للانتقال الى نظام اجتماعي جديد .

غير ان دور الجماهير الشعبية في التاريخ لا يقتصر على تطوير القوى المنتجة وتحضير المقدمات المادية للانتقال الى نظام اجتماعي جديد عن هذا الطريق . ان الجماهير الشعبية هي **القوة الرئيسية** التي تقرر مصير الثورة والحركات السياسية والوطنية التحررية . ان الصراع بين الطبقات وقبل كل شيء نضال الشغيلة ضد المستعبدين ، وشكله الاعلى الثورة الاجتماعية، هو القوة المحركة للمجتمع الطبقي المتناحر . ان انتفاضات العبيد قوضت اساس الرق وكانتاحد اهم الاسباب للانتقال الىالاقطاعية. وكانالفلاحون وفقراء المدن احدى اهم القوى المحركة للثورات البورجوازية التي كانت نتيجتها اخلاء الاقطاعية مسرح التاريخ للنظام الراسمالي الاكثر تقدمية .

وفي مجتمعات ما قبل الاشتراكية لم يكن الشعب يحصل على ثمار عمله ونضاله ، غير ان عمل الشعب ونضاله كانا عاملين هامين جدا واديا في النهاية الى تحرير الشغيلة واقامة النظام الاشتراكي التقدمي .

ان الجماهير الشعبية قدمت مساهمتها الهائلة كذلك في تطوير ثقافة المجتمع . كتب مكسيم غوركي : « ان الشعب ليس القوة التي تخلق جميع القيم المادية فحسب ، بل هو المنبع الوحيد الذي لا ينضب للقيم الروحية، انه الاول في العبقرية والابداع ، فهو فيلسوف وشاعر للجمال ، ومبدع كل الملاحم العظيمة وكل تراجيديات الارض، واعظمها كلها تاريخ الثقافةالعالمية، ان عمل الشعب وابداعه الملهم هما ينبوع العلم والفن . ومن اوساط الناس البسطاء خرج العديد من العلماء المرموقين والكتاب والفنانين وغيرهم من رجال الثقافة الذين اغنوا الانسانية بابداعاتهم العبقرية . فمنهم مثلا م. ف. لومونوسوف . وكان ابن صياد سمك ، واسحق نيوتن — ابن مزارع فقير ، وجيربانوف الاب والابن اللذين صنعا اول قاطرة في روسيا . فقد كانا من الفلاحين الاقنان و . . . الخ. ان الشعب هو الذي خلق الملاحم والاقاصيص المدهشة والاغاني والرقصات التي تبعث في النفس اعظم البهجة . وان اعظم الفنانين كانوا ، دائما وفي كل مكان ، يأخذون نماذج افضل نتاجاتهم من كنز الابداع الشعبي الذي لا ينضب .

تعاظم دور الشعب في عملية التطور التاريخي

ان الشعب يصنع التاريخ . ولكنه لا يصنعه بشكل تحكمي، وانما تبعا للظروف الموضوعية، وقبل كل شيء تبعا لاسلوب انتاج الخيرات المادية المحددة تاريخيا . ونظرا لان الانتاج المادي يزداد اتقانا ويتطور باستمرار من الادنى الى الاعلى ، فان دور الشعب في سير التاريخ يتغير ايضا . وبهذا **فمع تطور الانسانية التقدمي يتعاظم دور الشعب في التاريخ .** ان الماركسية تبرهن على انه كلما كانت التحولات الاجتماعية اكثر عمقا وكلما ازدادت المهام التي تواجه المجتمع جدية ، كلما كان الناس الذين يساهمون في العملية التاريخية **اكثر** ؛ وكلما كانت الجماهير الشعبية **اكثر فعالية** . كتب ماركس : « باتساع الحدث التاريخي ، يتعاظم . . . حجم الجماهير التي يشكل هذا الحدث التاريخي قضيتها » (١) .

كان الشغيلة في مجتمع الرق والمجتمع الاقطاعي محرومين من ابسط الحقوق الانسانية او كانت قواهم الابداعية مضطهدة بدون رحمة .

(١) ك. ماركس ، ف. انجلز — المؤلفات — الجزء ٢ ص٩٠ .

ان مالكي الرقيق اذ ركزوا في ايديهم ادارة الدولة والنشاط السياسي والعلم والفن ابقوا الجماهير في ظلام الجهل حيث لم يتركوا لها غير العمل العبودي الشاق . ولقد كانت فعالية الجماهير وقتذاك ضئيلة نسبيا ، ولم تستطع نضالاتها ضد المستغلين ان تحرز النجاح . ولذا ــ كما لاحظ لينين ــ ما كان باستطاعة التاريخ سوى ان يزحف ببطء شديد .

وفي الراسمالية وجدت المقدمات المادية لتحرر الشغيلة من الاستغلال . ظهر الانتاج الآلي الكبير وظهرت طبقة البروليتاريا القادرة على قيادة الشعب في النضال ضد الراسمالية وتأمين انتصار النظام الاشتراكي . وقد انشأت هذه الطبقة الحزب الشيوعي الذي يقف على راس النضال الثوري للشغيلة ، مسترشدا بوجهة النظر العلمية الوحيدة ، وهي النظرية الماركسية اللينينية . ونظرا للاسباب المذكورة فان دور الجماهير الشعبية قد تعاظم في ظل الراسمالية . ويضم النضال السياسي النشيط ملايين جديدة من الشغيلة الامر الذي يؤدي الى تسارع سير التاريخ بدرجة كبيرة .

ان الشعب ، جماهير الشغيلة ، هو القوة المحركة الرئيسية في الثورة الاشتراكية . وخلافا للثورات السابقة التي يلعب فيها الشعب فقط دور تحطيم النظام القديم ، فان الشعب في الثورة الاشتراكية لا يحطم المجتمع القديم ، الراسمالي فحسب ، وانما يشيد المجتمع الجديد ، الاشتراكي .

ان فعالية الجماهير الشعبية ودورها كبير ، خصوصا »، في الحياة الاجتماعية في المجتمع الاشتراكي . ان الاشتراكية تتجاوب مع اشد مصالح الشغيلة حيوية ولهذا فان الشغيلة تهتم اهتماما حيويا ببناء الاشتراكية . قال لينين : « ان الاشتراكية الحية ، الخلاقة ، من صنع الجماهير الشعبية نفسها » (١) . **ان تعاظم فعالية الجماهير الشعبية في بناء الحياة الجديدة هو قانون تطور الاشتراكية** . ان هذه السنة الثابتة تظهر بوضوح خاص في حياة بلادنا اول بلاد للاشتراكية الظافرة .

ان تعاظم دور الجماهير الشعبية بشكل كبير في الاشتراكية يقرره قبل كل شيء **جوهر النظام الاشتراكي نفسه** ، وسيطرة علاقات الانتاج الاشتراكية . ان الملكية الاشتراكية السائدة في البلاد توحد وترص الفئات الواسعة من الشغيلة وتؤمن مساهمتها النشيطة في حل مهام بناء الشيوعية.

ونتيجة لهذا يحل عشرات الملايين من الناس السوفييت ، يوحدهم هدف مشترك

---

(١) لينين ــ المؤلفات ــ ج٢٦ ص٢٥٥ .

ومصالح سياسية واقتصادية مشتركة وتلهمهم الماركسية اللينينية ، يحلون اليوم مهمات جبارة لم تستطع إجرا عقول الانسانية حتى على التفكير بها في السابق .

وفي الاشتراكية فقط يتحقق توافق منسجم بين المصالح الاجتماعية والفردية وتؤمن المصلحة المادية للشغيلة في نتائج عملها . ان الجماهير الشعبية في الراسمالية تخلق القيم المادية والثقافية الهائلة . وهي المساهم الرئيسي في جميع الحركات الاجتماعية والتقدمية ، غير ان ثمار عملها ونضالها وجهودها تتملكها حفنة ضئيلة من المستغلين . والامر على خلاف هذا في الاشتراكية : فجماهير الشغيلة هنا ذات مصلحة حيوية في توطيد وتطوير النظام الاشتراكي . ذلك ان هذا النظام هو اساس حريتها السياسية وازدهارها المادي وتنامي ثقافتها . كتب لينين : « لاول مرة ، بعد قرون من العمل للغير ، العمل قسرا للمستغلين ، ظهرت امكانية لان يعمل الشغيلة لانفسهم ، هذا العمل الذي يستند الى مكتسبات ارقى التكنيك والثقافة كلها » (١) .

ان وعي الشغيلة بأنهم يعملون لانفسهم ولمجتمعهم ولشعبهم يولد لديهم حماسا في العمل والتجديد والمبادرة الخلاقة والمباراة الاشتراكية الجماهيرية .

وان تعاظم دور الجماهير الشعبية في الاشتراكية تسببه ايضا **ضخامة المهام** التي تواجه الشعب باني الشيوعية . ان انتصار الشيوعية سوف يعني قفزة جبارة في تطور المجتمع وسيكون نتيجة تحولات هائلة لا مثيل لها في التاريخ ، في جميع ميادين الحياة الاجتماعية . ومن الواضح تماما ان حل هذه المهام ، وانجاز هذه التحولات الهائلة لا يمكن التفكير به مطلقا دون المساهمة الواسعة من جانب الشغيلة العديدة الملايين .

أن الشعب السوفييتي كسب مجد الشعب البطل ، الشعب العامل واحرز النصر التاريخي العالمي للاشتراكية في ظروف صعبة للغاية . وفي النضال الجبار ضد المحتلين الفاشست الالمان في الحرب الوطنية العظمى ١٩٤١ ــ ١٩٤٥ دافع عن مكتسبات الاشتراكية وصان البشرية من الاحتلال الدموي من قبل البربرية المعاصرة . وبعد ان جدد الاقتصاد الذي دمرته الحرب حقق نجاحات جديدة في العمل البناء . واليوم يبني الشيوعية على نطاق واسع .

ان الناس السوفييت يشعرون بوعي وبشكل واقعي بقرب الشيوعية

---

(١) لينين ــ المؤلفات ــ ج٢٦ ص٣٦٨ .

ويفهمون بأنها تدخل منذ الآن في عملهم وحياتهم ويقومون ببنائها بجهودهم وان انتصارها يتعلق بهم انفسهم ، بمساهمتهم في القضية العظمى قضية بناء الشيوعية . ومن هنا يظهر الحماس الهائل العملي والسياسي الذي لا سابق له ، والذي يجد تعبيره في الحركة الشعبية الحقيقية لتنفيذ ما رسمه البرنامج العظيم للحزب الشيوعي في الاتحاد السوفييتي برنامج بناء الشيوعية .

ان قيادة الحزب الشيوعي في الاتحاد السوفييتي هي عامل هام لتعاظم دور الجماهير الشعبية في المجتمع الاشتراكي . ان الحزب يسلح الناس السوفييت بسياسة صحيحة علميا ، تستند الى القوانين الموضوعية وتأخذ بعين الاعتبار حاجات الحياة المادية للمجتمع . ان الحزب اذ ينطلق من مستوى الانتاج الذي جرى التوصل اليه ، ومن الامكانيات الحقيقية يضع امام الشعب مهمات جديدة ويشير الى الطرق والوسائل لحل هذه المهمات . ان الحزب يثقف السوفييتيين يوميا ويرفع نشاط الشعب الخلاق ويسعى من اجل جعل مساهمته في البناء الهائل للمجتمع الجديد اكثر سعة ، جهد الامكان . وما دامت سياسة الحزب تتجاوب والمصالح الحيوية للشغيلة ــ ذلك ان الاهتمام برفاه الشغيلة هو اسمى قانون في نشاط الحزب ــ فان الحزب يتمتع بثقة الجماهير الشعبية التي لا حد لها ، ويعتبر بحق المعبر عن ارادة الشعب ومصالحه ومطامحه ، قائد ومنظم نضاله من اجل الشيوعية .

ان الجماهير الشعبية هي القوة السياسية الحاسمة في عصرنا ويظهر هذا في النجاحات التي لا مثيل لها للشعب السوفييتي الذي يبني الشيوعية ، وفي نهوض الشعوب الهائل الخلاق في البلدان الاشتراكية الاخرى التي تبني الاشتراكية ، وفي مساهمة الشغيلة الفعالة في الدول الراسمالية في النضال من اجل الديمقراطية والتقدم الاجتماعي والاشتراكية ، وفي اتساع حركة التحرر الوطني لشعوب المستعمرات والبلدان التابعة . ان الشغيلة في ايامنا هذه تدافع عن السلم بثبات ، وهي تلتهب حماسا ، في العالم اجمع . وان نضالها من اجل السلم يشكل عقبة جدية امام القوى الاستعمارية في محاولاتها لاشعال نيران حرب عالمية جديدة .

٢ دور الفرد في التاريخ

ان الايديولوجيين البورجوازيين مغرمون جدا باتهام الماركسيين باعتبار انهم يعترفون بالضرورة التاريخية وينكرون اهمية الافراد والناس العظماء والقادة في التاريخ . ان هذه المزاعم لا تعمد للنقد ابدا . ان استصغار دور الفرد غريب عن الماركسية . ورغم ان الماركسيين يعتقدون بأن الفرد لا يستطيع برغبته هو ان يبدل سير التاريخ الموضوعي ، فانهم يعترفون بأن الفرد يلعب دورا معينا غير صغير في التطور الاجتماعي . ولقد اشار لينين الى : « ان فكرة الضرورة التاريخية لا تلغي دور الفرد في التاريخ مطلقا . ان التاريخ كله قد صنعه بالتأكيد نشاط الشخصيات الذين هم بلا شك قادة » (١) . ان الماركسية وحدها تبين اهمية الفرد الحقيقية في التطور الاجتماعي وتشير ايضا الى الظروف التي بمكنه فيها ان يلعب دورا جديا في التاريخ .

دور القادة في التاريخ

ان الجماهير الشعبية – كما سبق وبينا – تصنع التاريخ والجماهير تنقسم الى طبقات . وفي مجرى الصراع الطبقي تؤلف هذه الطبقات احزابها السياسية، وترفع الاحزاب من بين صفوفها القادة – ممثليها الاكثر تجربة واستعدادا ونشاطا . ان دور هؤلاء القادة في التاريخ يكمن في انهم ينظمون الجماهير ويرفعون فعاليتها ويضعون امامها مهمات محددة ويعبئون الجماهير لحلها .

وكلما كانت مساهمة الجماهير اكثر فعالية في التاريخ وكلما اتسعت دائرة صناع الحياة الاجتماعية ، كلما كانت ضرورة القادة المجربين الناضجين اكثر الحاحا . ان الطبقة التقدمية بدون قادة وبدون زعماء ليست قادرة على الاستيلاء على السلطة السياسية وأقامة دولتها وشن نضال ناجح ضد اعدائها السياسيين . كتب لينين : « لا توجد طبقة في التاريخ حققت سيطرتها دون ان ترفع قادتها السياسيين ، ممثليها الطليعيين القادرين على ان ينظموا الحركة وان يقودوها » (١) . ان دور قادة ومفكري وزعماء حركة البروليتاريا كبير بوجه خاص. ذلك ان التنظيم والضبط الحديدي للبروليتاريا هما وسيلة هامة جدا لحل المهام التي تواجهها . ولا يمكن التفكير بتنظيم بدون قادة مجربين وصلبين . ان الحركة العمالية لم يكن بمستطاعها ان تجد طرقا ووسائل صحيحة للنضال

(١) لينين – المؤلفات – ج١ ص١٤٢ .

ضد المستثمرين بدون قادة ذوي سمعة مرموقة ، بدون منظمين شجعان ومفكرين حكماء .

لماذا تظهر الشخصيات الفذة وبماذا تكمن قوتها

ان الشخصيات العظيمة لا تظهر عفوا ، وانما بقوة الضرورة التاريخية ، وذلك عندما تنضج الظروف الموضوعية الملائمة لهذا الظهور . فالقادة السياسيون وزعماء الجماهير يظهرون في مرحلة التحولات الثورية الجذرية في المجتمع ، في النضالات السياسية الكبيرة والانتفاضات الشعبية . أن عباقرة العلم يظهرون غالبا عندما تولد حاجات الانتاج ضرورة هذا الاكتشاف العلمي الكبير او ذاك . وان شخصيات الفن الفذة تكشف عن مواهبها عادة في لحظات الانعطاف الهامة في التاريخ . وهنا ينبغي أن يكون معلوما ان هذه الموهبة او تلك تظهر وتدخل التاريخ فقط عندما تكون لازمة له ، وعندما تكون قابليات هذه الموهبة وغابعها وتفكيرها ضرورية للمجتمع في مرحلة معينة من تطوره .

ان ظهور الشخصيات الفذة ، عندما يكون لازما انما هو ضروري . غير ان واقع ، انه في ظروف معينة تظهر **بالذات هذه** الشخصية ، انما هو صدفة . كتب انجلز : « واقع ان هذا الانسان العظيم يظهر في بلد معين ، وفي زمن معين هو، بالطبع ، محض صدفة . غير اننا اذا استبعدنا هذا الانسان تظهر الحاجة الى من يشغل مكانه . وهذا البديل يوجد ــ وهو لائق بهذه الدرجة او تلك ، غير انه يوجد بمرور الزمن » (١) ، انه يوجد عندما تنضج المقدمات الاجتماعية لظهوره ، عندما تنضج الظروف الاقتصادية والسياسية الملائمة .

لقد كتبت في صفحات التاريخ اسماء كثيرة ، ولكن ليس كل اسم منها عظيم في الحقيقة . ان التاريخ يعرف اناسا عملوا على الضد من حاجات التاريخ وحاولوا ان يرجعوا عجلته الى الوراء . وان هؤلاء الشخصيات كممثلين لمصالح الطبقات الرجعية قد اسقطوا حتما سوية مع ما تراسوه من حركات شريرة .

ان العظيم **الحقيقي** هو فقط ذلك الذي يعمل طيلة حياته وبكل طاقته من اجل تقدم المجتمع والذي يناضل دون ان يدخر جهدا او طاقة من اجل كل ما هو تقدمي وجديد : والذي يساعد بلا كلل الطبقات التقدمية في المجتمع في اقامة النظام الاجتماعي التقدمي .

---

(١) ك. ماركس ، ف. انجلز ــ الرسائل المختارة ــ ١٩٥٣ ــ ص ٤٧٠ ــ ٤٧١ .

ولكن كيف تستطيع الشخصية الفذة ان تنجز مثل هذه المهام الكبيرة والصعبة ، واين تكمن قوتها ؟

ان قوة الشخصية الفذة هي قبل كل شيء في قوة الحركة الاجتماعية التقدمية التي تكون قائدا لها ومعبرا عنها . ان الفرد العظيم ، عظيم لانه يفهم السير الموضوعي لمجرى التاريخ ويرى حاجات تطور المجتمع ويعرف كيف يستجيب لهذه الحاجات . وكيف يجعل الحياة الاجتماعية احسن . ان قوته في كونه يخدم مصالح الطبقات الاجتماعية والجماهير الشعبية العديدة الملايين ويحظى ، بسبب من هذا ، بدعمها وثقتها غير المحدودة .

وهنا لا بد من الاشارة الى ان الصفات الشخصية للفرد العظيم نفسه لها اهمية جوهرية . ان الانسان الذي يمتلك قابليات غير اعتيادية — عقل كبير ، وطاقة لا تنضب وروح مبادرة وحزم وشجاعة هو وحده الذي يمكن ان يقوم بما يضعه التاريخ على عاتقه من مهام . وكلما كانت هذه الصفات الشخصية لدى الفرد تستجيب بشكل اكمل للمتطلبات الاجتماعية كلما كان اعظم وكان دوره في التاريخ اهم .

ان اعظم الشخصيات التاريخية التي تركت اثرا عميقا في التاريخ هم الزعماء العظام للبروليتاريا ولكل الشغيلة — كارل ماركس . فردريك انجلز وفلاديمير اليتش لينين . انهم قادة من طراز جديد نوعيا . نظريون ومنظمون عباقرة لاعظم الحركات الشعبية — حركة البروليتاريا الثورية . انهم يتميزون بقدرة نظرية هائلة وبقابليات تنظيمية باهرة يصحبها حزم وشجاعة وقناعة ذاتية لا تتزعزع بعدالة الشيوعية ، وحب للشعب وكره شديد لاعدائه . لقد كانوا مرتبطين بالجماهير ، علموها وتعلموا منها وعمموا تجربتها الثورية .

ان القضية العظمى التي بدأوها يواصلها بنجاح تلامذتهم ومواصلو رسالتهم القادة البارزون للحزب الشيوعي في الاتحاد السوفييتي والاحزاب الشيوعية والعمالية الشقيقة الذين يرأسون اعظم حركة في عصرنا — حركة الشعوب نحو الشيوعية .

كتب لينين ان « الطبقة العاملة التي تشن نضالا صعبا وشاقا في جميع انحاء العالم من اجل تحررها الكامل بحاجة الى قادة ذوي سمعة » (١) . وتتطلب الماركسية اللينينية حفظ سمعة القادة المخلصين للشعب وللحزب ، الواهبين جميع معارفهم وطاقاتهم الخلاقة وكل تجربتهم الفنية .

وهكذا فان سير التطور التاريخي كله يدلل على انه مهما كان الفرد المعين عظيما فانه ليس باستطاعته ان يحدد سير التاريخ . ان المبدع الحقيقي للتاريخ وصانع جميع القيم المادية والثقافية هو الشعب ، جماهير الشغيلة .

---

(١) لينين ـ المؤلفات ـ ج١١ ص٢٤٧ .

الفصل الرابع عشر

الطبقات والصراع الطبقي

كنا قد بينا في الفصل السابق ان القوة الرئيسية الحاسمة في تطور المجتمع هي الشعب ، جماهير الشغيلة . غير ان المجتمع ليس كلا متجانسا . انه يتألف من طبقات معينة وفئات ومراتب اجتماعية .

ماذا تعني الطبقات ؟ وما هو دورها في التطور الاجتماعي ؟ ان النظرية الماركسية اللينينية عن الطبقات والصراع الطبقي تجيب على هذه الاسئلة .

١ . جوهر الطبقات ومنشؤها

لاحظ العلماء انقسام الناس الى طبقات والصراع الطبقي في المجتمع منذ ما قبل ظهور الماركسية . ولكن بسبب كونهم مثاليين في فهمهم الحياة الاجتماعية فانهم لم يستطيعوا انيكشفوا الاساس الموضوعي لانقسام المجتمع الى طبقات . ولم يروا ان اساس انقسام المجتمع الى طبقات ينبغي البحث عنه في الانتاج المادي ــ الميدان الرئيسي للعلاقات الانسانية .

لقد اعطى لينين اكمل تعريف للطبقات في مؤلفه « المبادرة الكبرى » حيث كتب قائلا : « ان كلمة طبقات تطلق على جماعات واسعة من الناس تمتاز بالمكان الذي تشغله في نظام للانتاج الاجتماعي محدد تاريخيا ، بعلاقتها (التي يحددها ويكرسها القانون في معظم الاحيان) بوسائل الانتاج، بدورها في التنظيم الاجتماعي للعمل وبالتالي بطرق الحصول على الثروات الاجتماعية وبمقدار حصتها من هذه الثروات . ان الطبقات هي جماعات من الناس تستطيع احداها ان تستملك عمل جماعة اخرى بسبب الفرق

في المكان الذي تشغله في نظام معين من الاقتصاد الاجتماعي » (١) .

ومن بين السمات المذكورة للطبقات فان السمة الرئيسية هي **العلاقة بوسائل الانتاج** . فمن العلاقة بوسائل الانتاج يتحدد مكان ودور الطبقات في الانتاج الاجتماعي . وكذلك طرق الحصول على المداخيل ومقاييسها .

ان الطبقات لا توجد دائما . ففي المجتمع البدائي لم يكن لها وجود . عند ذاك فان الانتاج في مستوى منخفض من التطور ولم يعط امكانية للحصول على ما يزيد عن الحد الادنى من الخيرات المادية ، التي كانت تكفي الناس البدائيين بالكاد وتمنع عنهم الموت جوعا . ولهذا فان كل إمكانية لتراكم القيم المادية ولظهور الملكية الخاصة والطبقات والاستغلال كانت منتفية .

غير انه فيما بعد وارتباطا بتطور القوى المنتجة وزيادة إنتاجية العمل بدأ الناس ينتجون اكثر مما يستهلكون ، ونشأت امكانية تراكم الثروات المادية وامتلاك وسائل الانتاج ظهرت الملكية الخاصة التي ساعد ظهورها على التقسيم التقدمي للعمل وتنامي التجارة .

وبعد هذا وبتطور الملكية الخاصة وحلولها محل الملكية المشاعية تزايد التفاوت الاقتصادي بين الناس . فالبعض ، وهم في الغالب ارستقراطية العشيرة ، اغتنوا ، اغتصبوا وسائل الانتاج المشاعة . وآخرون : المحرومون من هذه الوسائل اضطروا الى العمل عند مالكيها . وهكذا سارت عملية تفكك المشاعية البدائية وتم إنقسامها الى طبقات . وقد انتهت هذه العملية بظهور الطبقات المتعارضة والاستغلال .

لقد ظهرت الطبقات في مرحلة تفكك نظام المشاعية البدائية وتكون نظام ملاك العبيد . ان التعارض في وضع الطبقات في المجتمع هو الذي سبب صراعها القاسي . ان الصراع الطبقي اصبح سمة هامة جدا لتطور الانسانية على مر القرون .

٢ . الصراع الطبقي ـ مصدر تطور المجتمعات الطبقية المتناحرة

اشار ماركس وانجلز الى ان تاريخ المجتمع الطبقي المتناحر انما هو تاريخ الصراع الطبقي . « فالحر والعبد والنبيل والعامي ، السيد الاقطاعي والقن والمعلم(١) والصانع ، اي باختصار المضطهدون والمضطهدون كانوا في

(١) لينين ـ ماركس انجلز ـ الماركسية ـ الطبعة العربية ـ ص٦١٢ ـ ٦١٣ .

تعارض دائم وكانت بينهم حرب مستمرة ، تارة ظاهرة وتارة مستترة ، حرب كانت تنتهي دائما اما بانقلاب ثوري يشمل المجتمع بأسره واما بانهيار الطبقتين المتناقضتين معا » (٢) .

ان صراع الطبقات المتناحرة لا يقبل المصالحة . انه ناشيء عن التضاد الجذري لوضعها الاقتصادي والسياسي في المجتمع . فعلى مر القرون استغل الشغيلة بوحشية — عبيدا كانوا ام فلاحين ام عمال — من قبل الطبقات المستغلة . وان نضالهم ضد الاضطهاد وطموحهم الى حياة حرة سعيدة كان طبيعيا ومشروعا .

وينبغي أن يؤخذ بعين الاعتبار بأن كل مجتمع طبقي يحوى طبقات اساسية واخرى غير اساسية . **ان الطبقات الاساسية** هي تلك التي ترتبط باسلوب الانتاج السائد في مجتمع ما . وهي في المجتمع الطبقي المتناحر التالية : الطبقة التي تعود اليها ملكية وسائل الانتاج والطبقة التي تقف في الجانب المضاد — الطبقة المضطهدة . العبيد وملاك العبيد في مجتمع الرق . الفلاحون الاقنان والاقطاعيون في الاقطاعية والبروليتاريا والبورجوازية في الراسمالية — هذه هي الطبقات الاساسية في المجتمعات الطبقية المتناحرة .

وما عدا هذه توجد في المجتمعات الطبقية المتناحرة **طبقات غير اساسية** ، وهي غير المرتبطة بأسلوب الانتاج السائد (الحرفيون الاحرار في مجتمع الرق . الفلاحون في المجتمع الراسمالي وغيرهم) وكذلك مختلف الفئات الاجتماعية (المثقفون ، رجال الدين وغيرهم) . ان الصراع الطبقي في المجتمعات المتناحرة هو اولا صراع بين الطبقات الاجتماعية الاساسية . اما فيما يتعلق بالطبقات غير الاساسية والفئات الاجتماعية فانها أعتياديا ، ليس لها خطها الخاص في هذا الصراع ، وانما تقف الى جانب احدى الطبقتين الاساسيتين المتناحرتين وتدافع عن مصالحها . **ان صراع الطبقات هو قوة محركة جبارة ومصدر تطور المجتمع الطبقي المتناحر** . وان هذا الصراع يدفع تطور المجتمع الطبقي المتناحر سواء في الفترات « السلمية » نسبيا او — خصوصا — في مراحل الاعاصير والهزات الثورية .

فالصراع الطبقي في الرأسمالية عامل جوهري لتطور القوى المنتجة .

---

(١) المعلم عضو كامل الحقوق في الحرفة . معلم داخل المشغل لا رئيسه (ملاحظة انجلز للطبعة الانجليزية سنة ١٨٨٨) .

(٢) ك. ماركس و ف. انجلز — بيان الحزب الشيوعي ص٨ . الطبعة العربية الصادرة عن دار الطبع والنشر باللغات الاجنبية — موسكو .

مثلا لولا نضال العمال فان اهتمام الراسماليين بتطوير التكنيك كان سيقل كثيرا . اذ من الابسط والارخص ، نسبيا ، ان يحصلوا على الارباح بالوسائل المجربة كاطالة يوم العمل وتخفيض الاجور . غير ان نضال العمال المتواصل الى جانب المنافسة بين الراسماليين تجبر الاخيرين على ادخال تكنيك جديد وتكنولوجيا جديدة في الانتاج . اشار ماركس الى : « ان جميع الاختراعات الجديدة . تقريبا ، كانت نتيجة للصدامات بين العمال واصحاب الاعمال .. وبعد كل اضراب جديد هام ، تقريبا ، تظهر ماكينة جديدة » (١) .

وللصراع الطبقي اهمية اكبر في الحياة السياسية في المجتمع المتناحر . فنضال الطبقة العاملة في المرحلة المعاصرة هو عقبة جدية في طريق تحقيق الخطط الشريرة للاستعماريين الذين يحاولون اشعال حرب عالمية جديدة ويسعون لتحطيم الحركة التحررية الوطنية ، وتصفية بقايا الحريات الديمقراطية وليوقفوا بهذه الطريقة التطور التقدمي للمجتمع.

ولولا صراع الطبقات لم يكن ليوجد تقدم اجتماعي ، ولهذا فان التطور التقدمي للمجتمع يتم بشكل اسرع ، اعتياديا ، كلما كان نضال المضطهدين ضد المضطهدين اكثر دأبا واكثر تنظيما .

ويحتل الشكل الاعلى للصراع الطبقي . الثورة الاجتماعية ، دورا خاصا كبيرا في التقدم الاجتماعي ، الثورة التي بنتيجتها يجري تحطيم النظام الاجتماعي القديم وتتم إشادة نظام اجتماعي جديد اكثر تقدمية .

ان تاريخ المجتمعات المتناحرة مليء بنضالات المستغلين ضد المستغلين .

لقد جرت صراعات ضارية بين العبيد وملاك العبيد في مجتمع الرق . وقد اتخذت هذه الصراعات اشكالا شتى من تحطيم لادوات الانتاج الى الانتفاضات الجماهيرية ، كالانتفاضة التي حدثت بقيادة سبارتاك (القرن الاول قبل الميلاد) التي ساهم فيها ...ر..١٠ عبد .

وفي الاقطاعية اتخذ الصراع الطبقي اشكالا اكثر حدة . وكانت الطبقات المتصارعة الاساسية فيها هي الفلاحين والاقطاعيين . وكثيرا ما كان ينظم الى جانب الفلاحين شغيلة المدن وخصوصا الحرفيين . وقد اتخذت الانتفاضات طابع حروب فلاحين حقيقية ، ساهم فيها عشرات ومئات الوف الفلاحين . وشملت هذه الحروب احيانا مساحات هائلة واستمرت سنوات طويلة . ومن هذا القبيل مثلا الانتفاضات التي قادها ووت تايلر في انجلترا (القرن الرابع عشر) وجاكرياتا في فرنسا (القرنين

---

(١) ك. ماركس و ف. انجلز ـ المؤلفات ـ ج٤ ص١٥٧ .

الرابع عشر والخامس عشر) وحرب الفلاحين في المانيا (القرن السادس عشر) والانتفاضات تحت قيادة بولوتنيكوف ورازين (القرن السابع عشر) وبوغاجوف (القرن الثامن عشر) في روسيا وانتفاضة تايين في الصين (في القرن التاسع عشر) وغيرها .

غير ان الانتفاضات في مجتمع الرق والاقطاعية لم تستطع ان تضع حدا للاستغلال وذلك لعدم نضوج الشروط الضرورية لمثل هذا الامر . فمستوى الانتاج لم يكن يسمح بعد بالانتقال الى نظام خالي من الاستغلال والاضطهاد . وكانت هذه الانتفاضات تفتقر الى التنظيم . ولم يكن لدى المنتفضين انفسهم ادراك واضح لا لاهداف النضال ولا لطرق تحقيقها . فلم يكونوا يملكون نظرية تقدمية تنير طريقهم في النضال ولا حزبا . وكما سنرى فيما بعد فان هذين الشرطين تكونا فقط في الراسمالية .

ومع كل هذا فان انتفاضات العبيد والفلاحين الاقنان لعبت دورا تقدميا كبيرا في التاريخ . فلقد قوض العبيد دعائم مجتمع الرق وكان الفلاحون احدى القوى الرئيسية التي حطمت الاقطاعية وادت الى استبدالها بنظام اكثر تقدمية هو الراسمالية .

٣ . الصراع الطبقي في المجتمع الراسمالي

الصراع بين البورجوازية والبروليتاريا قانون في تطور الراسمالية

من المعلوم ان الطبقات الاساسية في المجتمع الراسمالية هي البورجوازية والبروليتاريا . ان البورجوازية في نهمها الى الارباح تستغل البروليتاريا . وبتطور الراسمالية يصبح هذا الاستغلال اقسى فأقسى ويصبح عمل العمال اكثر حدة ، ويتحول العامل اكثر فأكثر الى تابع اعتيادي للآلة . وتحمل الازمات الاقتصادية والبطالة والحروب اللصوصية التي تلازم الراسمالية الى العمال فظاعات وآلام هائلة .

ومن الواقع ان البروليتاريا لا يمكن ان تهادن وضعا كهذا . ان جوهر الراسمالية الداخلي نفسه ؛ حيث العامل محروم من ثمار عمله ، ووضع البروليتاريا في المجتمع يدفعها للنضال ضد البورجوازية . ولهذا فليس من قبيل الصدف ان يكون تاريخ المجتمع الراسمالي هو تاريخ النضال الضاري بين البروليتاريا والبورجوازية . ان هذا النضال حتمي وهو مصدر هام جدا لتطور الراسمالية . ان نضال البروليتاريا ضد البورجوازية قد اشتد خصوصا في عصر الاستعمار حيث تفاقمت تناقضات الراسمالية الاقتصادية والسياسية بشكل لم يسبق له مثيل .

لقد وقعت على عاتق البروليتاريا رسالة تاريخية عظمى وهي **ان تضع مرة واحدة والى الابد حدا للاستغلال وان تحطم الراسمالية وتقيم المجتمع الشيوعي اللاطبقي** . ان انجاز مثل هذه الرسالة العظيمة والنبيلة ليس في مقدور اية طبقة اجتماعية اخرى ، ذلك لان الطبقات الاخرى كلها ليست ثورية حتى النهاية .

لقد كانت البورجوازية ثورية فقط عندما قادت النضال ضد الاقطاعية من اجل السيطرة في المجتمع . وبعد ان اخذت السلطة اصبحت رجعية وصار هدفها الوحيد المحافظة على الاستغلال الى الابد . وكذلك حال الفئات المتوسطة التي تضم بالاساس الفلاحين والحرفيين الذين هم ذوي عدد كبير خصوصا في ظل الرأسمالية . فهذه الفئات لا تشغل مكانا مستقلا في المجتمع ، وبتطور الرأسمالية تتفكك الى فئات اجتماعية إخرى . فالقسم الاعظم من الفلاحين والحرفيين يصيبهم الخراب ويتحولون الى صفوف البروليتاريا . وينتظم عدد ضئيل منهم في صفوف البورجوازية . ويشغل الفلاحون مواقع متذبذبة في الصراع الطبقي الضاري . ولهذا تقع على عاتق البروليتاريا مهمة جذبهم الى جانبها وجعلهم حلفاء امناء لها . كما ان فئة المثقفين في الرأسمالية (المهندسون ، التكنيكيون ، الاطباء ، المعلمون . شغيلة العلم .. الخ) ليست ثورية حتى النهاية والاكثرية منهم يخدمون الطبقات المستغلة .

ان الطبقة الوحيدة الثورية بشكل ثابت في المجتمع الراسمالي هي البروليتاريا . انها إذ ترتبط بأرقى اشكال الانتاج وإكثرها تقدمية ــ الصناعة الآلية . تنمو وتتطور باستمرار . ان طابع الانتاج الراسمالي نفسه يساعد على توحيد وتنظيم وتعليم البروليتاريا . فالبروليتاريا محرومة من الملكية وليس لها ما تفقده في النضال . وهي اذ تناضل من اجل تحررها يمكنها ان تنظم وتقود وراءها جميع الناس العاملين الذين هم ايضا ، يكرهون النظام الراسمالي . وبعد ان تحرر البروليتاريا نفسها تكون قد حررت جميع الشغيلة ايضا والغت استغلال الانسان للانسان الى الابد . وعندما تنتصر تعيد للشغيلة كل ما انتجوه ، وبهذا تزيل الظلم الاجتماعي الكبير ــ النظام الاجتماعي الذي تتملك فيه حفنة من المضطهدين نتاج عمل الملايين .

اشكال نضال البروليتاريا الطبقي

بتطور الراسمالية تتطور البروليتاريا ايضا وتصبح اشكال نضالها ضد البورجوازية اكثر تنوعا واشد حدة . وتوجد ثلاثة اشكال رئيسية لنضال

البروليتاريا الطبقي – الاقتصادي والسياسي والايديولوجي (الفكري) .

ان الشكل الابسط والاقرب الى متناول جماهير العمال الواسعة هو **النضال الاقتصادي** ، نضال البروليتاريا لتحسين وضعها المادي وظروف عملها . ان العمال اذ يشنون نضالا إقتصاديا يريدون من ارباب العمل زيادة الاجور وتخفيض ساعات العمل . الخ واذا لم تلب هذه المطالب فانهم لا يذهبون الى العمل ويعلنون الاضراب . ان النضال الاقتصادي كأول شكل لنضال البروليتاريا الطبقي لعب دورا كبيرا في تطوير حركتها الثورية . فقد ساعد على جذب جماهير بروليتارية واسعة الى النضال الطبقي وكان مدرسة جيدة لهذه الجماهير من اجل التنظيم . وفي مجرى هذا النضال تنامى وعي العمال لمكانتهم في المجتمع وتضامنهم الطبقي وظهرت التنظيمات العمالية الاولى – النقابات والتعاونيات وصناديق المساعدة المتبادلة .

وفي نفس الوقت فان النضال الاقتصادي ذو طابع محدود . فانه لم يصبح بعد نضال الطبقة البروليتارية كلها ضد البورجوازية ، وانما صدامات مجموعات من العمال مع راسماليين منفردين في هذا المعمل او ذاك وفي هذه المنطقة او تلك . وهو لهذا – وهذا امر هام – لا يمس اساس اسس الراسمالية – الملكية الخاصة – ولا يصنع مهمة تصفية سلطة الدولة البورجوازية . ان هدف هذا النضال هو ليس ازالة الاستغلال ، وانما فقط الحد منه وتخفيفه . وبتنامي وتطور البروليتاريا يندمج نضال العمال الاقتصادي في المعامل والمناطق المختلفة في النضال المشترك للطبقة العاملة ضد طبقة الراسماليين كلها . ان النضال الطبقي يتخذ شكله الاعلى – الشكل السياسي .

ان **النضال السياسي** هو نضال يستهدف تحطيم اسس النظام الراسمالي نفسها ، النضال من اجل سلطة الدولة ، من اجل دكتاتورية البروليتاريا .

تستطيع البروليتاريا عن طريق النضال الاقتصادي ان تحسن اوضاعها المادية الى درجة ما ، وان تحصل على بعض التنازلات الاقتصادية من جانب البورجوازية ، غير انها لا تستطيع ان تؤمن مصالحها الاقتصادية والسياسية الاساسية وان تتخلص الى الابد من الاستغلال دون ان تحطم السيطرة السياسية للبورجوازية وتقيم سلطتها الخاصة – دكتاتورية البروليتاريا . ولفرض الوصول الى هذا الهدف تشن البروليتاريا نضالا سياسيا مستخدمة شتى الوسائل – الاضرابات ، المظاهرات السياسية ، النضال السلمي في البرلمان والنضال المسلح . غير ان جميع هذه الوسائل

هي في النهاية **خاضعة لتحضير** وانجاز الثورة الاشتراكية . ان الثورة الاشتراكية البروليتارية هي المرحلة العليا للنضال الطبقي للبروليتاريا والوسيلة الحاسمة الوحيدة لازالة الرأسمالية واحراز السلطة السياسية من قبل البروليتاريا .

وللنضال الفكري اهمية كبيرة في حركة البروليتاريا الثورية . وهو النضال ضد الايديولوجية البورجوازية التي تسود المجتمع الرأسمالي ، ومن اجل انتصار الايديولوجية البروليتارية الاشتراكية .

ان تطور الراسمالية يؤدي بالضرورة الى رص وتنظيم البروليتاريا . ولكن ، يتوجب على البروليتاريا ، لكي تحطم النظام الراسمالي ، لا ان تعد نفسها كطبقة فحسب وانما ان تدرك مصالحها الطبقية ومهمتها التاريخية العظمى .

ولهذا الهدف تحتاج البروليتاريا الى نظرية ثورية . وبالنظر لعدم وجود الوقت والوسائل والتعليم الكافي فان البروليتاريا لوحدها لم تستطع ان تعد هذه النظرية . وقد اعدت من قبل ممثلي المثقفين الذين انتقلوا الى جانب البروليتاريا . هذه النظرية الثورية الجديدة – الماركسية اللينينية – كانت قد اعدت من قبل قادة البروليتاريا العظام ماركس – انجلز – لينين .

ولكن المهمة ليست فقط في ان تعد نظرية تقدمية ثورية . فبعد ان تكون مثل هذه النظرية قد اعدت من الضروري ان تدخل وعي العمال . وبالتالي فان النضال الايديولوجي هو نضال ضد الفوضى والعفوية في الحركة العمالية ، نضال من اجل استيعاب الايديولوجية الماركسية اللينينية التقدمية ، من قبل الجماهير البروليتارية الواسعة .

ان النظرية الماركسية اللينينية هي باستمرار موضوع للهجوم من جانب الايديولوجيين البورجوازيين وكذلك الاصلاحيين والتحريفيين . ولهذا يرتبط بالنضال الايديولوجي النضال من اجل نقاوة النظرية الماركسية اللينينية والنضال ضد كل اعدائها من مختلف الانواع وقبل كل شيء ضد ايديولوجيي الرجعية الاستعمارية .

ان النضال على الصعيد الايديولوجي كالنضال الاقتصادي ليس هدفا في ذاته ، انه خاضع للمهمات السياسية ، لمهمات قلب السيطرة البورجوازية واقامة سيطرة البروليتاريا .

الحزب الماركسي منظم وقائد نضال البروليتاريا الطبقي ان حزب البروليتاريا السياسي هو وحده القادر على ان يؤمن قيادة حكيمة لنضال الشغيلة الطبقي، وان يوفق بشكل صائب بين جميع اشكاله . ان

دور هذا الحزب كبير وخصوصا في مرحلة الاستعمار حيث اصبحت الثورة الاشتراكية مهمة عملية مباشرة نتيجة التفاقم الشديد لتناقضات الراسمالية .

ان احزاب الاممية الثانية الاصلاحية والتوفيقية لم تنجح في قيادة الحركة البروليتارية في الظروف التاريخية الجديدة . لقد كان ضروريا ايجاد حزب من نوع جديد ، حزب ثوري ماركسي . ومثل هذا الحزب اسسه لينين .

ان الحزب الماركسي هو فصيلة طليعية ثورية للبروليتاريا . انه طليعتها . وهو — كأعلى شكل لتنظيم البروليتاريا — يربط جميع منظماتها الاخرى (النقابات ، التعاونيات و .. الخ) ويقودها سياسيا ويوجهها للوصول الى الهدف المشترك — قلب الراسمالية واقامة المجتمع الاشتراكي. كتب لينين : « ان الماركسية اذ تربي الحزب العمالي ، تربي طليعة البروليتاريا القادرة على ان تأخذ السلطة وان **تقود الشعب باسره** نحو الاشتراكية ، وان توجه وتنظم النظام الجديد وتكون معلم وقائد جميع الشغيلة والمستغلين في العمل لبناء حياتهم الاجتماعية بدون البورجوازية وضد البورجوازية » (١) .

ان الحزب يمكن ان يقوم بدوره كطليعة وكفصيلة امامية للطبقة العاملة ، وكقائد للشعب كله، لانه مسلح بالنظرية الماركسية العلمية ويعرف قوانين التطور الاجتماعي ويستطيع عمليا استخدام هذه القوانين لتحويل المجتمع تحويلا ثوريا .

وكفصيلة طليعية واعية يثقف الحزب ، باستمرار ، الجماهير العمالية الواسعة بالوعي الاشتراكي ويحمي الطبقة العاملة من تأثير الايديولوجية البورجوازية المنحطة ، ويقود نضالا لا هوادة فيه ضد جميع محاولات تشويه وتحريف الماركسية ، ومن اجل تطويرها على اساس احدث منجزات العلم والتطبيق الاجتماعي التاريخي .

ان الحزب الماركسي ليس طليعة واعية فحسب ، وانما هو فصيلة منظمة للطبقة العاملة مرتبطة بالهدف المشترك لتحقيق الافكار الثورية العظيمة — افكار المارسية اللينينية .

ولا يطيق الحزب وجود الانتهازيين على اختلافهم بين صفوفه ، هؤلاء الذين يحاولون ان يقوضوا وحدته ويفسخوه من الداخل ويحرموه — بهذه الطريقة — من قدرته على قيادة نضال البروليتاريا الطبقي .

---

(١) لينين — المؤلفات — ج٢٥ ص٢٧٦ .

والحزب الماركسي يوحد احسن ممثلي الشعب ، ويرتبط بآلاف الصلات بجماهير الشغيلة الواسعة . وكمعبر عن رغبات الشعب الصميمية وكمدافع متفان عن مصالح الشعب الحيوية الملحة يتمتع الحزب بثقة لا حد لها وبدعم الجماهير الواسعة . ان قوة الحزب الماركسي التي لا تقهر تكمن في علاقته الوثيقة بالشعب ، وفي الدعم والرعاية التي يمنحها الشعب اياه .

ان مثل هذا الحزب الثوري حقا هو الذي اسسه لينين ، الحزب الشيوعي في الاتحاد السوفييتي .

افلاس النظريات البورجوازية والتحريفية عن الطبقات والصراع الطبقي

ان الايديولوجيين البورجوازيين يعارضون النظرية الماركسية عن الطبقات والصراع الطبقي ، بالتبشير للسلم الطبقي في الراسمالية ، وينكرون ، بشدة ، خصوصا ، وجود الطبقات والصراع الطبقي في المجتمع البورجوازي المعاصر . فبعض الايديولوجيين البورجوازيين يعلنون صراحة بأن المجتمع الراسمالي المعاصر ليس فيه استغلال ولا طبقات متعارضة وانما توجد فقط فئات اجتماعية (« مراتب ») تجمع الناس بصرف النظر عن مهنهم ، وتحصيلهم ودخلهم وعمرهم وآرائهم الدينية والسياسية وغيرها من صفاتهم . والناس الذين ينتمون الى هذه الفئات ليسوا مرتبطين بأية علاقات ملكية وان العلاقات فيما بينهم منسجمة ارقى انسجام . وهذه الفئات ليست ثابتة ويستطيع الانسان الانتقال ، بسهولة ، ووفقا لرغبته ، من فئة الى اخرى .

وآخرون رغم اعترافهم بوجود الطبقات ، يزعمون بأن المجتمع البورجوازي المعاصر يشهد عملية زوال الفوارق الطبقية وتحول الطبقات تدريجيا الى طبقة « وسطى » كبيرة . ويقولون في هذا الصدد ان عملية نشوء هذه الطبقة « الوسطى » تشرف على نهايتها في الولايات المتحدة الاميركية . فعالم الاجتماع الاميركي المعروف ستراوس هيوبه اعلن في كتابه « منطقة اللافروق » (سنة ١٩٥٢) ان من الصعب ان نفرق في اميركا المعاصرة بين المستغلين والمستغلين . فالفقر – على ما يزعم هو – قد اختفى والطبقة الراقية اصبحت من امور الماضي . ولم يعد عمال اميركا من وجهة نظر الايديولوجيين البورجوازيين ، بروليتاريين . اذ ان لهم مستوى معيشة مرتفع وتوفيرات ويشترون اسهما . ولذا فانهم يملكون – كما هو حال مالكي المشاريع – حصة في المداخيل . ومن جهة

اخرى حددت الدولة حقوق اصحاب العمل ، الامر الذي جعلهم يلعبون دورا اصغر في الانتاج .

ان تلفيقات المدافعين عن الراسمالية الزاعمة بعدم وجود طبقات وصراع طبقي في المجتمع البورجوازي المعاصر يدعمها الاصلاحيون والتحريفيون . فان احد قادة المؤتمر الاميركي للنقابات الانتاجية الاصلاحي ف. ميري كتب بصراحة ان لا وجود للطبقات في اميركا وان « الجميع هناك عمال » وبالتالي فان مصالح المزارعين والعمال الصناعيين ورجال الاعمال والمستخدمين والمثقفين متطابقة . ويؤيده في هذا التحريفيون حيث يعلنون ان التحديد اللينيني للطبقات قد « شاخ » ويرون من الضروري ان نضع مكانه مفهوم « جماعة » وغيرها . ان الناس – على ما يزعم هؤلاء – يتوحدون في جماعات متشابهة ليس على اساس العلاقة بوسائل الانتاج وانما على اسس ثانوية . ان التحريفيين اذ ينكرون وجود الطبقات ينكرون بالتالي الصراع الطبقي . فالتحريفي الايطالي جوليني مثلا يقول ان مهمة العمال اليوم هي ليس النضال ضد البورجوازية بل ان يساعدوا التقدم التكنيكي . ونتيجة لهذا التقدم التكنيكي ستنتقل السلطة الى ايدي الشعب اوتوماتيكيا دون نضال طبقي وثورة .

ان المدافعين عن البورجوازية وخدمهم التحريفيين اذ ينشرون الاكاذيب عن عدم وجود طبقات وصراع طبقي في المجتمع البورجوازي المعاصر ، ويعلنون النصر المزيف « للتوافق بين مصالح الراسمال والعمل » ، انما يحاولون تضليل الطبقة العاملة ويوحون اليها بفكرة ان النضال الطبقي ضد البورجوازية لا لزوم له ، ولكي يوجهوا الحركة العمالية في الطريق الاصلاحي .

ولكن ما هو واقع الامر ؟

من المعروف ان المستوى المعاشي لقسم معين من العمال الامريكيين ، وخصوصا فئتهم العليا ، عالي كثيرا سيما بالمقارنة مع مستوى الطبقة العاملة في البلدان الراسمالية الاخرى . ولكن ينبغي ان لا يغيب عن البال بانه ليس كل العمال الامريكان لهم مثل هذا المستوى . فملايين العاطلين والعمال الزنوج والمكسيكيين وغيرهم لا يحصلون حتى على الحد الادنى . وفي الوقت نفسه فان واحد بالمئة من الامريكان يمثلون البورجوازية الاحتكارية ، يمتلكون حوالي ٦٠٪ من مجموع الثروة الوطنية في الولايات المتحدة الامريكية . ومن بين هؤلاء حوالي ١٥٠ من اقطاب الراسماليين الكبار يحصلون على دخل سنوي يزيد على المليون دولار لكل منهم .

ان بعض العمال الامريكان لديهم توفيرات ، ولكن ما هو نصيبها من

المبلغ العام للتوفيرات ؟ ان نصف سكان الولايات المتحدة يملكون ، على العموم ، واحد بالمئة من التوفيرات في حين ان النصف الثاني يملك ٩٩٪ الباقية .

وللعمال الامريكان اسهم . غير ان القيمة السوقية لاسهم كل الشغيلة الامريكان ، مأخوذة معا ، هي بالكاد حوالي (٢ر٠٪) عشري الواحد بالمئة من قيمة جميع الاسهم في الولايات المتحدة الامريكية ، وهي اقل بعشر مرات من قيمة اسهم عائلة ديبون فقط .

فعن اي اختفاء للطبقات . وعن اي « طبقة وسطى امريكية كبيرة » يمكن الحديث ؟ كلا ، ان الولايات المتحدة الامريكية هي بلد الفوارق الاجتماعية الهائلة والتناقضات الاجتماعية العميقة . اما فيما يتعلق بالبلدان الراسمالية الاخرى فان وضع الشغيلة في غالبيتها اسوا بكثير مما هو في الولايات المتحدة الامريكية والتناقضات بين البروليتاريا والبورجوازية إكثر عمقا وحدة .

وبالتالي فلا يوجد شك في ان المجتمع البورجوازي المعاصر تسوده الملكية الراسمالية ولهذا توجد فيه طبقات متناحرة ــ البورجوازية والبروليتاريا . وان صراعا طبقيا ضاريا بينهما يستمر اليوم ايضا .

٤ . الطبقات والصراع الطبقي في المرحلة الانتقالية من الرأسمالية الى الاشتراكية

رأينا فيما مضى انه منذ ظهور الملكية الخاصة على وسائل الانتاج والطبقات المتناحرة ، استعر نضال لا هوادة فيه بين المستغلين والمستغلين. ان هذا النضال يؤدي في النهاية الى الثورة الاشتراكية التي تحطم سيطرة البورجوازية وتقيم سلطة دكتاتورية البروليتاريا . ان اقامة دكتاتورية البروليتاريا تعني بداية المرحلة الانتقالية من الرأسمالية الى الاشتراكية .

الصراع الطبقي في المرحلة الانتقالية من الرأسمالية الى الاشتراكية

ان صراع الطبقات في المرحلة الانتقالية من الرأسمالية الى الاشتراكية هو امر حتمي . فالبورجوازية المسقطة لا يمكن ، بالمرة ، ان تسلم بواقع مجيء الكادحين انفسهم الى السلطة . هؤلاء الذين استغلتهم عشرات السنين وان ينتزع هؤلاء الناس قدس اقداسها ـ الملكية الخاصة . ان البورجوازية لا يمكن ان تؤمن مطلقا ان قد حلت نهاية حياتها الفارغة اللاابالية التي تتصور انها خالدة ولا نهاية لها ، وثرواتها وامتيازاتها وسلطتها غير المحدودة . ولهذا فانها تقاوم السلطة البروليتارية الجديدة بضراوة وباندفاع تعصبي تماما .

ان البورجوازية في صراعها ضد البروليتاريا تلجأ الى مختلف الاساليب . وهي اذ تستغل مواقعها الاقتصادية وصلاتها السابقة بالفئات العليا من المثقفين والموظفين والاختصاصيين العسكريين تسعى الى اشاعة الفوضى في حياة البلاد الاقتصادية وعمل مؤسسات الدولة والدفاع . وتحاول ان تؤثر على وعي الجماهير الشعبية . واخيرا وبهدف ارجاع الرأسمالية تلجأ الى النضال المسلح المكشوف ضد الشغيلة معتمدة بشكل رئيسي على مساعدة الرأسمال العالمي . ان تجربة التاريخ (حملة الـ ١٤ دولة استعمارية ضد الجمهورية السوفييتية الفتية التدخل الاستعماري في الصين وكوريا ، احداث المجر خلال تشرين الاول ١٩٥٦) دللت على ان

البروليتاريا المنتصرة تشن نضالا ضاريا ليس ضد بورجوازيتها فحسب وإنما ضد البورجوازية الرجعية العالمية .

وينجم عن هذا ان دكتاتورية البروليتاريا لا تزيل الصراع الطبقي ، وان هذا الصراع يستمر في المرحلة الانتقالية ايضا . غير ان هذا النضال يشن عند ذاك في ظروف تكون فيها البروليتاريا هي المسيطرة سياسيا وتركز في ايديها المواقع الهامة في الاقتصاد . وتتبدل اشكال الصراع الطبقي طبقا للظروف . كتب لينين يقول : « ان دكتاتورية البروليتاريا ليست نهاية للصراع الطبقي وانما هي استمرار له بأشكال جديدة . ان دكتاتورية البروليتاريا هي صراع طبقي من قبل البروليتاريا الظافرة التي تسيطر على السلطة السياسية ضد البورجوازية المغلوبة ولكن غير المحطمة والتي لم تختف بعد ، ولم تتوقف عن ابداء المقاومة والتي شددت مقاومتها » (١) .

ان القضاء على مقاومة المستغلين واللجوء الى الاساليب المسلحة والنضال لتحرير الفلاحين من تأثير البورجوازية الى البناء الاشتراكي وجذب الاختصاصيين البورجوازيين الى العمل في الاقتصاد الوطني واعتياد الضبط الاشتراكي ـ تلك هي الاشكال الجديدة للصراع الطبقي في المرحلة الانتقالية من الرأسمالية الى الاشتراكية .

موقف البروليتاريا من العنف

ان نضال الطبقة العاملة والفلاحين الذي لا هوادة فيه ضد البورجوازية المحتضرة ، ولكنها تقاوم ، هو عامل عامل هام جدا في تطور المجتمع في المرحلة الانتقالية من الرأسمالية الى الاشتراكية . ان هذا النضال يؤدي في النهاية الى التصفية التامة للبورجوازية كطبقة والى اقامة المجتمع الخالي من استغلال الانسان للانسان .

ولكن بأية وسائل تتغلب البروليتاريا على مقاومة البورجوازية وما هو موقفها من العنف ؟

---

(١) لينين ـ المؤلفات ـ ج٢٩ ص٣٥٠ .

لقد حاولت البورجوازية في البلاد السوفياتية ، التي انجزت فيها الثورة الاشتراكية ، ان تستعيد سلطتها المفقودة وملكينها وامتيازاتها بقوة السلاح .ولجأت الى الكفاح المسلح بمساعدة الراسمال العالمي . وفي تلك الظروف لم تكن الطبقة العاملةتملك سوى مخرج واحد – ان تسحق البورجوازيةبقوة السلاح . وبالتالي فان سحقالبورجوازيةبالسلاح – الحرب **الاهلية** – كان احد الاشكال الخاصة للصراع الطبقي في الاتحاد السوفياتي خلال المرحلة الانتقالية . وقداستخدمت الاجراءات العنيفة في النضال لسحق الكولاك .

٥ ـ التركيب الطبقي للمجتمع الاشتراكي ـ

ان التركيب الطبقي للمجتمع تبدل جذريا ببناء الاشتراكية في الاتحاد السوفياتي . فقد أزيلت ، نهائيا ، الملكية الخاصة على وسائل الانتاج والغي استغلال الانسان للانسان ، وصفيت الطبقات المستغلة في المدينةوالريف.

ان الطبقة العاملة لم تعد اليوم البروليتاريا السابقة ، المستغلة المحرومة من الحقوق في ظل الراسمالية . انها اليوم ، سوية مع الشعب الشغيل ، تسيطر على وسائل الانتاج واصبحت السيد الحقيقي لبلادها . ان الطبقة العاملة اذ جعلت من نفسها الطبقة الواعية والمنظمة ارقى تنظيم ، الحاملة في ذاتها علاقات التعاضد الرفاقي والمساعدة المتبادلة حققت في ظل الاشتراكية وخلال مرحلة البناء الواسع للشيوعية الدور القيادي في المجتمع .

إن اشاعة التعاونية في الزراعة والثورة الثقافية غيرتا ، لدرجة لا يكاد يعرف معها ، مظهر الفلاحين السوفيات . فقد تحول الفلاحون من طبقة مجزأة جاهلة مستغلة من قبل الملاكين الكبار والكولاك ، الى طبقة حرة حقيقية ، تعمل في زراعة كبيرة ممكننة .

ان العمل الجماعي من اجل الوطن حطم عزلة الفلاح التي استمرت قرونا ، وساعد على التغلب على نفسية الملكية الخاصة لديه . ومن اجل تثقيفه بروح الجماعية والصداقة والروح الرفاقية . ونمت ثقافة الفلاحين السوفيات ، وخلق الاستعمال الواسع للتكنيك الحديث، في القرية كوادر موصوفة من الميكانيكيين الذين لا يختلف عملهم عن عمل العمال الا قليلا .

ولقد طرات على مثقفينا تغيرات هائلة . ان فئة المثقفين السوفياتية شعبية حقا . وان اكثرية ممثليها خرجوا من وسط الطبقة العاملة والفلاحين .

ان صفوف المثقفين قد تعاظمت بشكل ملحوظ خلال سنوات السلطة السوفياتية . ونما عدد الاختصاصيين ذوي التحصيل العالي وشبه العالي والاعدادي من ٢٩٠ الف خلال عام ١٩١٣ الى ١٣٢٤٠٠٠٠٠٠ عام ١٩٥٩ .
ان مليوني معلم ومئات الالوف من شغيلة العلم من اطباء ومهندسين وتكنيكيين وقانونيين وماليين وغيرهم من الاختصاصيين يعملون اليوم من أجل خير الشعب السوفياتي .

٦ . طرق التغلب على الفوارق الطبقية .

توجد في المجتمع الاشتراكي طبقتـــان متآخيتان : الطبقة العاملة والفلاحين . وهذا ناشيء عن واقع وجـــود شكلي الملكيـــة الاشتراكية : ملكية الشعب بأسره والملكية التعاونية الكولخوزية ومن ثم لوجود الفوارق الجوهرية بين المدينة والقرية . و توجد في الاشتراكيـــة فئة اجتماعية هي المثقفين التي هي نتيجة للفارق الجوهري بين العمـــــل الفكري والعمل اليدوي الذي لا يزال موجودا .

ولذا فان عملية التغلب على الفوارق الطبقية وكذلك الغاء الفوارق بين المثقفين من جهة والطبقة العاملة والفلاحين من جهة اخرى يعني في الواقـــع تصفية الفوارق بين المدينةوالقرية بين العمل الفكري والعمل اليدوي . لقـــد اشار اينين الى ان ازالة الطبقات تماما تستوجب ليس فقط ازالة الطبقات المستغلة وانما « ازالة الفارق سواء بين المدينة والقرية او بين شغيلة العمـــل اليدوي وشغيلة العمل الفكري » (١) .

ان عملية ازالة الفوارق الاجتماعية في المجتمع السوفياتي تتم تدريجيا على اساس التطوير المتواصل للقوى المنتجة وعلاقات الانتاج الاشتراكيـــة وتحويلها الى علاقات شيوعية .

---

(١) لينين — المؤلفات ج ٢٩ ص ٢٨٨ .

في ظل الراسمالية تستغل المدينة القرية بلا رحمة . ومن هنا ينشأ التضاد الذي لا يقبل التوفيق بين مصالحهما . ان الاشتراكية تلغي هذا التضاد بين المدينة والقرية. اما الفوارق الجوهرية بينهما ، ذات الطابع الاجتماعي ـ الاقتصادي والثقافي فانها تبقى . ان هذه الحقيقة تنعكس قبل كل شيء في واقع وجود ملكية الدولة ، ملكية الشعب بأسره في المدينة ، في الصناعة ، في حين يوجد في القرية الانتاج الكولخوزي والملكية الجماعية، التعاونية ، الكولخوزية . واضافة الى هذا فان القرية تتأخر عن المدينة قليلا من ناحية مستوى الثقافة وتختلف عنها من ناحية المعيشة وطريقة الحياة .

وفي بناء الشيوعية ، على اساس التوطيد والتطوير المطردين للملكية الكولخوزية سوف تتطور عملية التقارب التدريجي لهذه الملكية مع ملكية الشعب بأسره . وسوف تجري هذه العملية على اساس تطوير القاعدة التكنيكية للانتاج الكولخوزي الذي سوف يؤدي الى تحول العمل الزراعي تدريجيا الى نوع من العمل الصناعي . وقد كانت اعادة تنظيم محطات التراكتورات والمكائن الزراعية وبيع موجوداتها التكنيكية الى الكولخوزات خطوة هامة جدا في هذا التحول الذي خلقت الكولخوزات بموجبه قاعدتها الخاصة من التكنيك الزراعي الحديث .

ان زيادة المكننة تؤدي الىارتفاع انتاجية العمل بشكل مستمر وزيادة انتاجية الانتاج الزراعي التي تؤدي بالتالي الى زيادة مداخيل الكولخوزات والكولخوزيين . ان مقاييس واشكال دفع اتعاب الكولخوزيين ستتقارب مع مقاييس واشكال اجور العمال في المؤسسات الصناعية في المدن .

وبتغيير طابع الانتاج الزراعي يتغير وجه القرية وحياة الفلاحين وترتفع ثقافتهم . وتبنى اليوم في القرية على نطاق واسع مباني للمكائن ولتصليحها ومباني لتربية الحيوان ومخازن وغيرها من مباني الانتاج ومؤسسات تحويل المواد والمنتجات الزراعية ولاعداد مواد البناء .

وقد اتخذ بناء المطاعم ورياض الاطفال ودور الحضانة والافران والمخازن وغيرها من مؤسسات العيش والتجارة نطاقا واسعا في القرية . وقد تم بناء واسع للمساكن حيث تبنى على طراز المدن ـ تدفئة مركزية وماء ومجاري وغيرها من وسائل الراحة المعيشية. انالقرى الكولخوزية ستتحول تدريجيا الى مساكن مريحة على غرار المدن .

وتصرف الكولخوزات مبالغ ضخمة لبناء دور الثقافة والنوادي

والمكتبات والمدارس والمعدات الرياضية. ويتغلغل الكتاب والراديو والتلفون والتلفزيون بقوة في الحياة الكولخوزية وتنتشر اكثر فاكثر الجامعات الريفية للثقافة الشعبية والمسارح الشعبية ومدارس الموسيقى ويتطور باتساع نشاط الفنانين الهواة .

ان المدينة والقرية تقتربان من بعضهما من ناحية التركيب المهني للسكان ايضا . ذلك ان عددا كبيرا من المهندسين والتكنيكيين والميكانيكيين واختصاصيي الزراعة وتربية الحيوان يصبحون من سكان القرية الدائمين. وان عددا متعاظما من المعلمين والاطباء وغيرهم من الاختصاصيين يخدمون القرية الكولخوزية .

وان ظروف معيشة المواطنين ستتبدل بشكل جدي كلما جرى الاقتراب من الشيوعية. فسيوضع حد لتحشد سكان المدن في مكان واحد وسيحصل شغيلة المدن على هواء ونور وخضرة اكثر . وارتباطا بهذا فان ظروف عملهم ومعيشتهم ستقترب من ظروف القرية .

هذه هي طرق تصفية الفوارق الجذرية بين المدينة والقرية. وبالتغلب على هذه الفوارق فان انقسام المجتمع الى طبقة عاملة وفلاحين سيزول الى الابد .

طرق تصفية الفوارق الجوهرية
بين العمل الفكري والعمل اليدوي

كان شغيلة العمل الفكري – المثقفون ، في اكثريتهم ، طيلة قرون ، يخدمون الطبقات المسيطرة ، ويساعدونها على اضطهاد الشغيلة – اناس العمل اليدوي . ومن هنا جاء التضاد الذي استمر قرونا بين العمل الفكري واليدوي . ان الاشتراكية ازالت هذا التضاد . ويعمل المثقفون السوفيات يدا بيد مع شغيلة العمل اليدوي من عمال وفلاحين من اجل خير الوطن الاشتراكي . غير انه تظل في الاشتراكية ايضا فوارق جوهرية بين شغيلة العمل الفكري واليدوي . فمستوى العمال والفلاحين الثقافي – التكنيكي عموما لا يزال متاخرا عن مستوى المثقفين . ومن اجل تصفية هذا الفارق فمن الضروري ان يرتفع مستوى العمال والفلاحين الثقافي – التكنيكي الى مستوى المثقفين . وهذه المهمة يجري حلها بالتاكيد خلال مرحلة البناء الشيوعي الواسع .

ان الوسيلة الرئيسية لحل هذه المهمة هي التقدم التكنيكي ومايرتبط به من تغير طابع العمل نفسه . ان التقدم التكنيكي وادخال مكائن معقدة

وعالية الانتاجية في عمليات الانتاج .واستخدام الطاقة الذرية في الانتاج وكذلك استخدام منجزات الكيمياء وسائر العلوم على نطاق واسع في الاقتصاد الوطني تتطلب من العمال ليس فقط مختلف العادات التكنيكية الخاصة بالانتاج ، وانما اعدادا تعليميا عاما عاليا ومعرفة لاسس العلوم .

ان النضال من اجل التقدم التكنيكي يرتبط بشكل وثيق برفع مستوى العمال والفلاحين الثقافي ــ التكنيكي عموما . ان الفرد المتطور تطورا شاملا ــ انسان الشيوعية ينشأ ، قبل كل شيء في العمل الذي هو الميدان الاساسي للنشاط الانساني .

ان حركة فرق الطليعيين والعمل الشيوعي تقدم مساهمة جدية في التغلب على الفارق الجوهري بين العمل الفكري والعمل اليدوي . ان المساهمين في هذه الحركة الذين هدفهم الاساسي زيادة انتاجية العمل على اساس تقدم التكنيك يربطون الوصول الى هذا الهدف بالتعليم المستمر الدؤوب ورفع قدرتهم الانتاجية وتحصيلهم التعليمي العام .

كما ان اعادة تنظيم نظام التعليم العام التي تتم الان تخدم مهمة تصفية الفوارق الجوهرية بين العمل الفكري والعمل اليدوي . ان الهدف من إعادة التنظيم هذا هو ربط التعليم بالعمل المنتج اوثق فأوثق الامر الذي سيحسن بشكل ملحوظ تربية الجيل الجديد ، وكذلك تحضير الاختصاصيين لجميع فروع الاقتصاد الوطني . وتتسع باستمرار شبكة المعاهد التعليمية الخاصة العليا والمتوسطة . المسائية وبالمراسلة ، ومدارس التعليم العام ومختلف مدارس المجددين ودورات الاختصاصيين الزراعيين واختصاصيي تربية الحيوانات ومدارس الميكانيكيين من اجل ان يتمكن عدد أكبر من العمال والفلاحين من الحصول على امكانية رفع مستواهم الانتاجي والثقافي .

ان الحزب الشيوعي والحكومة السوفياتية يهتمان في أن يتوفر للناس السوفياتيين وقت الفراغ الضروري لرفع معارفهم وثقافتهم . وتتخذ في الاتحاد السوفياتي على نطاق واسع اجراءات من شأنها تخفيض يوم العمل وبعد عدة سنوات ستحصل الاكثرية من عمالنا ومستخدمينا على يومي راحة في الاسبوع ويوم عمل من ٦ ــ ٧ ساعات وستكون البلاد السوفياتية بلاد إقصر يوم عمل واعلى اجر في العالم في الوقت نفسه .

ان عملية ازالة الفوارق الجوهرية بين العمل الفكري والعمل اليدوي ستنتهي عند بناء الشيوعية . فسيختفي في المجتمع الشيوعي العمل الفكري ذو الاختصاص الضيق والعمل اليدوي الصرف على حد سواء . وسيظهر نوع من العمل جديد تندمج فيه بانسجام الجهود اليدوية والفكرية للانسان المتطور تطورا شاملا .

الفصل الخامس عشر

الامم والحركة الوطنية التحررية

كنا قد راينا ان صراع الطبقات هو العامل الاهم في تطور المجتمع المجتمع المتناحر . والى جانب صراع الطبقات تمتلك الحركة الوطنية التحررية ، في عصرنا الراهن ، اهمية بالغة في تطور الانسانية . وسنبحث الان النظرية الماركسية اللينينية عن الامم والحركة الوطنية التحررية . وسنشرح منذ البداية ماذا تمثل الامم وكيف ظهرت .

١ . ماذا تمثل الامم ؟

توجد في المجتمع المعاصر الى جانب المجموعات الطبقية مجموعات قومية من الناس ، اي امم . ان الامم ظهرت متأخرة عن ظهور الطبقات بشكل ملحوظ . ففي الوقت الذي تكونت الطبقات في مرحلة نشوء مجتمع الرق، فا ن الامم هي نتيجة لتطور الراسمالية .

ان ظهور الطبقات كانت قد سبقته اشكال تاريخية لجماعات من الناس مثل العشيرة والقبيلة والقوم . فالعشيرة جماعة من الناس تربطهم رابطة الدم والاقتصاد ، وكان اساسها الملكية الجماعية والاستخدام الجماعي لوسائل الانتاج . ان عدة عشائر اتحدت في قبيلة . ان العشيرة والقبيلة وجدتا في نظام المشاعية البدائية .

وفي مجتمع الرق والمجتمع الاقطاعي وجد نوع اخر من الجماعات البشرية وهو القوم الذي يختلف عن العشيرة في انه مكوّن ليس على اساس روابط الدم وانما على اساس وحدة الاقليم واللغة والثقافة . ان القوم مجموعة من الناس غير ثابتة بما فيه الكفاية نظرا لعدم امكانية قيام جامعة إقتصادية على نطاق بلدان بكاملها في ظل العبودية والاقطاع ، الامر الذي لا يمكن بدونه ان توجد رابطة وثيقة ثابتة بين الناس. لقد وجد حقا في ظل مجتمع الرق

والاقطاعية تبادل بضائع واسواق ، ولكن هذا كان وقتئذ ذا اهمية محلية محدودة ولم يكن في وضع يستطيع التغلب فيه على التجزئة الاقتصادية والسياسية .

وبتطور الراسمالية صفيت التجزئة الاقتصادية تدريجيا ، وتكوّن السوق الموحد الامر الذي بنتيجته تحولت الاقوام الى امة . كتب لينين : « ان الامم هي نتاج حتمي وشكل حتمي للعصر البورجوازي للتطور الاجتماعي » (١) .

ان للامة ــ كالقوم ــ سمات : جامعة الاقليم واللغة والثقافة . ولكن الامة ــ خلافا للقوم ــ تتميز بكونها جماعة ثابتة من الناس . وهذا الثبات تحصل عليه الامة ــ كما اشار لينين ــ من « العوامل الاقتصادية العميقة » (٢) . فالقبائل السلافية في « كييفسكاروس » مثلا رغم انها كانت تكوّن قوما واحدا بلغة مشتركة واقليم مشترك ، لم تكن تشكل امة بعد . وان الروابط القومية ظهرت بينهم ــ كما قال لينين ــ ، بالكاد ، في المرحلة الجديدة من التاريخ الروسي (في القرن السابع عشر تقريبا) عندما جرى التغلب على التجزئة الاقتصادية في البلاد ، وعندما تطور التبادل البضاعي واندمجت الاسواق المحلية الصغيرة في سوق روسي كبيرمشترك. وبالتالي فان **جامعة الحياة الاقتصادية** هي اهم سمات الامة . والاقتصاد، الروابط الاقتصادية ، هو الذي يوحد الناس الذين يعيشون فياقليمواحد، ولهم لغة مشتركة، في كلواحد ــ هو الامة. وفيمجرى التطورالاقتصادي والسياسي ينبثق التكوين النفسي المشترك الذييظهر فيالتقاليد التاريخية للامة وفي خصائص ثقافتها واسلوب معيشتها .

هذا وينبغي التفريق بين الامة والعنصر . فالفوارق العنصرية هي فوارق خارجية بينالناس من ناحية بعض الصفات البيولوجية كلون البشرة فتحة العين وغيرها . وتبعا لهذه الصفات نميزثلاثة عناصر رئيسية : الابيض والاصفر والاسود .

ان ايديولوجيي البورجوازية الرجعية يحاولون ان يفسروا المستوى الاقتصادي والسياسي والثقافي لهذا الشعب او ذاك ووضع هذا الانسان او ذاك في المجتمع بصفاته العنصرية . ويتحدثون كثيرا عن افضلياتالجنس الابيض الذي خصصته الطبيعة نفسها للسيطرة على العناصر الملونة . غير ان تجربة التاريخ والمعطيات العلمية تبين بان الناس من جميع العناصر

---

(١) لينين ــ المؤلفات ج ٢١ ص ٥٦ .

(٢) لينين ــ المؤلفات ج ٢٠ ص ٣٦٩ .

يمتلكون قدرات متشابهة . اما فيما يتعلق بتأخر بعض الشعوب ، وتقدم العنصر الابيض ، فان هذا ليس ناشئا عن لون بشرتها او شعرها ، كمايزعم الايديولوجيون البورجوازيون ، وانما من آثار الاضطهاد الاستعماري الذي اناخ عليها قرونا طويلة وفقا لارادة المستغلين البيض . واليوم نرى شعوب المستعمرات القديمة والبلدان التابعة التي تحررت من نير الاستعمار تطور، بنجاح ، اقتصادها وثقافتها وتتقدم بسرعة ، وخصوصا ، شعوب البلدان التي انطلقت في طريق التطور الاشتراكي – شعوب الصين وشمال كوريا وشمال الفيتنام .

٢ . الماركسية اللينينية والمسالة الوطنية في المستعمرات .

ان الامم التي تشكلت في ظل الراسمالية هي **امم بورجوازية.** ورغم ان العمال والفلاحين وسائر فئات الشغيلة يشكلون الغالبية الساحقة في هذه الامم فان البورجوازية تلعب الدور المسيطر فيها . انها تملك جميع وسائل الانتاج . وسلطة الدولة ووسائل التأثير الايديولوجي (الفكري) . ولهذا فان الاقتصاد البورجوازي والسياسة والايديولوجيا البورجوازية تحدد في الخطوط العامة مظهر الامة . ان سيطرة الامم الاقوى اقتصاديا وعسكريا ، على الامم الاضعف هي قانون تطور الامم البورجوازية . وبسبب هذا فان تطور الامم في ظل الراسمالية يرتبط بشكل وثيق باشتداد نضال الشعوب المضطهَدة من اجل التحرر . ان **المسالة الوطنية** ، مسالة طرق ووسائل تحرير الامم المضطهدة وتصفية الاضطهاد القومي واقامة علاقات المساواة بين الشعوب تعرض في ظل الراسمالية بكل حدتها وهي احدى مسائل التطور الاجتماعي الهامة .

ان الماركسية اللينينية اذ تشير الى اهمية المسالة الوطنية تتطلب انطلاقا تاريخيا ملموسا تجاهها . وهذا يعني انه من اجل ان تحل حلا صحيحا يجب انتأخذ بالحسبان تطور المجتمع فيمختلف العهود وخصائص تطور كل بلد على انفراد وتوازن القوى الطبقية سواء على الصعيد العالمي او في الدولة المعينة ودرجة فعالية جماهير الشغيلة من مختلف الامم ، ومستوى وعيها وتنظيمها و . . . الخ.

ان المسالة الوطنية لم تبق على حالها دون تبدل في مختلف مراحل تطور الراسمالية فعند نشوء المجتمع الراسمالي لم تخرج المسالة الوطنية في البداية عن اطار بعض الدول المنفردة ، اي الدول ذات القومياتالمتعددة مثل روسيا والنمسا والمجر واخرى غيرها توجد فيها قوميات مضطهدة

واخرى مضطهَدة وكانت مسرحا للاضطهاد القومي والنضال الوطني التحرري . ان المسألة الوطنية هنا كانت تقتصر في الجوهر على مسألة الاقليات القومية ونضالها من اجل التحرر وحقها في تطوير اقتصادها وثقافتها .

ومع بدء مرحلة الاستعمار تبدلت العلاقات القومية . اذ قسم العالم بين حفنة من الامم المسيطرة ــ هي اكثر الاقطار الرأسمالية تطورا ــ واكثرية من المستعمرات والامم والبلدان التابعة . لقد نظر لينين الى انقسام الامم الى مضطهِدة ومضطهَدة باعتباره « اساسيا وجوهريا جدا وحتما في ظل الاستعمار » (١) وقيام نظام السيطرة الاستعمارية ــ (النظام الكولونيالي). ان الرأسمالية التي كانت في فجر تاريخها تساعد على تحرير الشعوب من النير الاقطاعي وسيطرة الكنيسة، اصبحت بعد ان دخلت في مرحلة الاستعمار اكبر مضطهِد للامم ، واقسى من خنق حرية الشعوب . وبالتالي فقد تغير محتوى المسألة الوطنية واتسع نطاقها بدرجة كبيرة . وتحولت من مسألة داخلية تخص الدولة الى مسألة **عالمية** تمس مصائر العديد من ملايين الناس على الارض .

ان المسألة الوطنية . في ظل الاستعمار ، لم تعد مسألة اقليات قومية في داخل حدود احدى الدول وانما المسألة الوطنية في المستعمرات. انها قبل كل شيء مسألة نضال الشعوب ضد النير الكولونيالي ومن اجل تحررها وتطورها اللاحق على طريق التقدم .

ان انجلز ولينين ؛ اذ لاحظا اهمية المسألة الوطنية فانهما لم يعتبرانها المسألة الاساسية في الحركة الثورية . إن كلاسيكيي الماركسية اللينينية اخضعوا هذه المسألة ، دائما ، للمسألة الرئيسية في الماركسية ــ تعاليم دكتاتورية البروليتاريا . ونظروا اليها ، باستمرار، من مواقع مصالح الحركة البروليتارية العالمية ومصالح النضال من اجل السلم والاشتراكية والتقدم الاجتماعي . وقد انطلقوا في هذا من واقع ان المسألة الوطنية ، في اطار المجتمع الراسمالي عموما ؛ غير قابلة للحل بصورة مبدئية ؛ اذ انها ممكنة الحل فقط في ظروف سيطرة البروليتاريا في المجتمع الاشتراكي .

لقد كشف لينين الميلين المتناقضين في تطور العلاقات القومية في ظل الرأسمالية . اولهما يظهر في انبعاث الحياة القومية والحركات الوطنية في النضال ضد كل اضطهاد قومي ، وفي قيام الدول الوطنية . والميل الثاني ينعكس في تطور العلاقات المتبادلة بين مختلف الامم وفي تحطيم الحواجز

---

(١) لينين ــ المؤلفات ج ٢٢ ص ١٣٦ .

الوطنية ، وفي نشوء الاقتصاد الموحد والسوق العالمي . ان الميل الاول هو الذي يسيطر في عصر الراسمالية الصاعدة ويسيطر الثاني في عصر الاستعمار حيث تحل الاشتراكية محل الراسمالية حتما .

ان هذين الميلين كليهما ، ناتجان عن حاجات تطور المجتمع وانهما تقدميان من حيث اهميتهما التاريخية . غير انهما في الراسمالية يتخذان اشكالا بشعة تتنافى مع محتواهما التقدمي الموضوعي . ان الاستعمار خلق بنوكا وتروستات عالمية جبارة واقتصادا عالميا شاملا حيث تتوحد اكثر فاكثر وتزداد عالمية حياة المجتمع الاقتصادية والسياسية والثقافية . الا ان هذه الوحدة ، « تقارب » الامم في ظل سيطرة الاحتكارات الراسمالية لا يمكن ان تتم بواسطة اخرى غير العنف ونهب المستعمرات واضطهاد شعب من قبل شعوب اخرى اقوى واكثر تطورا . ان شعوبا بكاملها كبيرة وصغيرة ، وقارات هائلة اصبحت في ظل الاستعمار ضحايا العدوان الكولونيالي من قبل حفنة من الضواري الاستعماريين الذين حطموا بقساوة بالغة جميع محاولات الشعوب المضطهَدة للتحرر . وهكذا يدخل الميل نحو الوحدة . نحو تقارب الامم . في الراسمالية ، في تناقض صارخ مع الميل نحو الاستقلال الوطني ، نحو تشكيل الدول الوطنية .

ان الميلين المذكورين في تطور العلاقات القومية ينعكسان في الايديولوجية والسياسة البورجوازيتين ، ويظهران على شكل تعصب قومي . ان الماركسية اللينينية التي لا تهادن اي مظهر من مظاهر التعصب القومي تتطلب التفريق بين قومية الامم المسيطرة (شوفينية الدولة الكبرى والعنصرية) وقومية الامم المضطهَدة . ان إيديولوجية شوفينية الدولة الكبرى والعنصرية التي تبرر سيطرة امة على إخرى ، انما هي رجعية بشكل مطلق . اما قومية الامم المضطهَدة فانها تحوي نزوعا للنضال من اجل الاستقلال وضد الاستعمار . وهو نضال تقدمي ولذا تدعمه البروليتاريا . كتب لينين يقول : « يوجد في كل قومية بورجوازية لاحدى القوميات المضطهَدة محتوى ديمقراطي عام ضد الاضطهاد ، وهذا المحتوى هو ماندعمه بالتأكيد دون تحفظ» (١) . ومن هذا القبيل قومية العديد من اقطار آسيا وافريقيا المعاصرة . ان النضال ضد الاستعمار والكولونيالية ، ضد الرجعية الاقطاعية والتأخر ، النضال الذي يستيقظ في مجراه وعي الشعب . وعي ملايين الجماهير الفلاحية يعطي لهذه القومية محتوى تقدميا .

وينبغي ان نلاحظ ان الميل التقدمي في قومية الامم المضطهَدة لا يمكن

---

(١) لينين ـ المؤلفات ج ٢٠ ص ٣٨٤ .

ان يكون مستمرا ، اذ انه مؤقت ، انتقالي يعود إلى الطابع الانتقالي لدور البورجوازية الوطنية التقدمي ، تاريخيا ، في الحركة الوطنية التحررية . ولذا فان حزب الطبقة العاملة اذ يدعم نضال الشعوب المضطهَدة من اجل تحررها يسعى جاهدا لتحرير الشغيلة من تأثير اي تعصب قومي. ذلك ان القومية البورجوازية لا تنسجم معالاممية البروليتارية. انالحزب الماركسي اذ يبين الدور الحاسم للنضال الطبقي في كل حركة اجتماعية ، دوناستثناء الوطنية منها ، واذ يدعو الى وحدة بروليتاريا جميع البلدان فانه يتغلب على الايديولوجية القومية البورجوازية ويرسخ الاممية إلبروليتارية في وعي الشغيلة .

٣ . نهوض الحركة الوطنية التحررية للشعوب وتفكك نظام الاستعمار الكولونيالي .

سقوط النظام الكولونيالي – الخاصية المميزة لعصرنا

ان استغلال البلدان المستعمَرة والتابعة القاسي واللاانساني من قبل الضواري الاستعماريين ولد النضال التحرري لشعوب هذه البلدان ضد النير الكولونيالي ومن اجل الحرية والاستقلال الوطني .

ان ثورة اوكتوبر الاشتراكية العظمى ، التي ايقظت شعوب الشرق وجرت الشعوب المستعمَرة الى تيار الحركة الثورية العالمية ، اعطت دفعا قويا للحركة التحررية الوطنية. وانالاتحاد السوفياتي – اول بلد اشتراكي في العالم – كان بالنسبة للمضطهَدين معينا لا ينضب للدعم السياسي والمعنوي .

ان تناسب القوى الجديد على الصعيد العالمي بعد الحرب العالمية الثانية وانتصار الثورة الاشتراكية في العديد من بلدان اوروبا وآسيا وقيام النظام الاشتراكي خلقت ظروفا ملائمة لنضال الشعوب الوطني التحرري الناجح . ففي الوقت الذي يدوس فيه الاستعمار الاستقلال الوطني وحرية إكثرية الشعوب ويقيدها بسلاسل العبودية الاستعمارية الثقيلة ، **فان ظهور الاشتراكية** – كما جاء في برنامج الحزب الشيوعي في الاتحاد السوفياتي– **سجل بداية عصر تحرر الشعوب المضطهَدة.** انالموجة الجبارة لثورات التحرر الوطني كنَست النظام الكولونيالي وقوضت اسس الاستعمار . وظهرت وتظهر – مكان المستعمرات واشباه المستعمرات السابقة – دول فتية ذات سيادة .

لقد تغير وجه آسيا كليا وحطمت العلاقات الكولونيالية في افريقيا ، وحصلت اربعون دولة على استقلالها الوطني في آسيا وافريقيا خلال الخمس عشرة سنة التي اعقبت الحرب العالمية الثانية . ونهضت للنضال ضد الاستعمار شعوب اميركا اللاتينية حيث كان يسيطر استعماريو الولايات المتحدة بصورة مطلقة ، عشرات السنين . ان كوبا البطلة ، التي انتصرت فيها الثورة الشعبية ، اصبحت بالنسبة لشعوب قارة اميركا الجنوبية ، علما لنضالها العادل من اجل الحرية الوطنية والتقدم الاجتماعي . وليس بعيدا الوقت الذي تصفى فيه الكولونيالية الى الابد – هذه الظاهرة المخزية في تاريخ الانسانية . « **ان افلاس نظام الحكم الاستعماري افلاسا تاما امر محتوم ، وانهيار نظام الاستعباد الاستعماري امام هجوم حركة التحرر الوطني ظاهرة تاتي راسا من حيث اهميتها التاريخية بعد تكوئن النظام العالمي الاشتراكي** » (١) .

ان اهمية إنهيار النظام الكولونيالي للاستعمار تكمن في انه يوقظ للابداع التاريخي مئات الملايين الجديدة من الناس . ان شعوب الدول الفتية ذات السيادة ، التي ظهرت على إنقاض الامبراطوريات الكولونيالية، نهضت باعتبارها مبدعة حياة جديدة ومساهمة فعالة في السياسة العالمية ، وقوة ثورية تحطم الاستعمار . ان انهيار النظام الكولونيالي يعني بدء مرحلة تاريخية جديدة في تطور الانسانية .

ان الشعوب التي خلعت نير الكولونيالية مدعوة لان تلعب دورا هاما في حل اهم مسائل عصرنا – مسألة الحيلولة دون حرب عالمية جديدة، من اجل الحفاظ على السلم وتوطيده . فهذه الشعوب ، بالاضافة الى شعوب البلدان الاشتراكية ، تؤلف ثلثي البشرية ، وهي قوة هائلة قادرة على كبح جماح المعتدين الاستعماريين .

الجوهر الاجتماعي لحركة التحرر الوطني ومهماتها

ان الطبقة العاملة واحزابها الماركسية هي اشد معارضي الكولونيالية صلابة، وهي نصير متحمس للمساواة الوطنية والاستقلال الوطني للشعوب. وتساند الانجاز التام لمهمات الثورة الوطنية الديمقراطية المعادية للاستعمار، وتعارض مساعي القوى الرجعية لاعاقة التقدم الاجتماعي . ومع ذلك فان

---

(١) بيان الاحزاب الشيوعية والعمالية في موسكو عام ١٩٦٠. – الطبعة العربية ص ٣٤ – ٣٥ .

الحركة الوطنية التحررية بطابعها ليست حركة بروليتارية ، اجتماعية : انها لا تضع امامها مهمة تحطيم الراسمالية، واقامة مجتمع جديد، اشتراكي. وهي قادرة ، في نفس الوقت، على ان تحل، وهي تحل فعلا مهاما اجتماعية هامة كتحطيم العلاقات الاقطاعية وبقاياها ، وازالة مخلفات الكولونيالية واستئصال جذور السيطرة الاستعمارية والتضييق على الاحتكارات الاجنبية وازاحتها وتكوين صناعة وطنية خاصة والقيام بتحولات جذرية في الزراعة وتوطيد الاستقلال السياسي وانتهاج سياسة خارجية مستقلة محبة للسلام واشاعة الديمقراطية في الحياة الاجتماعية على نطاق واسع.

ان حل هذه المهام الديمقراطية والوطنية العامة يصطدم بمقاومة ضارية من القوى الاستعمارية التي تسعى جاهدة للابقاء على المستعمرات القديمة واشباه المستعمرات في نظام الاقتصاد الراسمالي وجذبها الى فلك سياستها الرجعية العدوانية . ولذا **فان النضال الثابت ضد الاستعمار** ، وقبل كل شيء ضد الاستعمار الاميركي ــ القاعدة الرئيسية للكولونيالية ــ **هو الشرط الرئيسي لنجاح الثورة الوطنية التحررية .**

وعلى اساس حل المهام الوطنية الديمقراطية العامة في البلدان المستعمرة يمكن ان تتحد ، وهي تتحد فعلا ، جميع القوى التقدمية في الامة فالى جانب الطبقة العاملة التي تلعب الدور الاكثر فعالية في النضال ضد الكولونيالية ، تساهم فيه جماهير الفلاحين الفقيرة والفئات المتوسطة الاخرى وكذلك جزء من البورجوازية الوطنية ، الذي هو ، موضوعيا ، ذو مصلحة في تحقيق المهام الاساسية للثورة المعادية للاستعمار والاقطاعية ، وعلى الخصوص ، تكوين اقتصاد محلي وسوق وحمايتهما من نهب الاستعماريين.

ان مساهمة البورجوازية في حركة التحرر الوطني في عصرنا لا يبدل من طابع الحركة التقدمي . ولكن عندما تنشط الطبقة العاملة في الامة المضطهَدة بالاشتراك مع البورجوازية وسائر الفئات الاجتماعية فانها تأخذ بالحسبان عدم استمرارية البورجوازية وعدم ثباتها وميلها للاتفاق مع الاستعمار والاقطاعية .

ان اهم قوة في الحركة التحررية الوطنية هي تحالف الطبقة العاملة والفلاحين . ولا يمكن بدون هذا التحالف احراز الاستقلال الوطني والدفاع

عنه ، ولا انجاز تحولات ديمقراطية عميقة وتأمين التقدم الاجتماعي .

ان الطبقة العاملة واحزابها الماركسية اذ تناضل من اجل حرية واستقلال الشعوب المستعمرة لا تعتبر احراز الاستقلال الوطني هدفا نهائيا لنضالها . فتجربة التاريخ تثبت ان الجماهير الشعبية تواجه بعد احراز الاستقلال السياسي العديد من القضايا الجدية.

فالبورجوازية تسعى لان توجه تطور الامة في الطريق الراسمالي، بالمحافظة على الملكية الخاصة والاستغلال . انها تحاول ان تغطي ، بكل وسيلة ، التناقضات الطبقية فيالامة ، والشيء المميز هو انه بتفاقم هذه التناقضات تظهر البورجوازية ميلا اكبر للمساومة مع الرجعية الداخلية والقوى الاستعمارية الخارجية .

الا ان فئات الشغيلة الواسعة من الشعب تفكر بشكل اخر . اذ تقتنع من تجربتها الخاصة بان الطريق الراسمالي لا يعدها بشيء حسن ، وبان الراسمالية هي طريق الآلام للشعب . ان الجماهير الشعبية بدات تعي **بان الطريق الوحيد نحو حرية وسعادة الشعوب هو الاشتراكية .** فالاشتراكية وحدها هي القادرة على تصفية التأخر الذي استمر قرونا في البلدان المستعمرة والتابعة التي تحررت من نير الاستعمار ، وعلى تأمين نهوض سريع لاقتصادها وثقافتها وتلبية حاجات شعوبها المادية والثقافية وانقاذها ، الى الابد ، من الاستغلال والبؤس والجوع وخطر حرب عالمية جديدة .

وهي تستطيع ، استنادا الى توازن القوى على الصعيد العالمي في عصرنا ، حيث توجد امكانية حقيقية لشعوب البلدان المتحررة من الكولونيالية لان تحصل على دعم قوي من جانب النظام الاشتراكي العالمي، تستطيع ان تحل هذه القضية لصالحها .

٤ • الاشتراكيـة والامم •

حل المسالـة الوطنيـة في الاتحـاد السوفيـاتي

ان المجتمع الرأسمالي القائم على اساس الملكية الخاصة والاستغلال واثارة التناحر والعداء بين الامم ، ليس في مقدوره ان يحل المسالة الوطنية. ان الاشتراكية فقط ، بعد ان تزيل الاستغلال والتناحر بين الامم ، تضع حدا للعداء القومي وتؤمن ازدهارا حقيقيا للشعوب وثقة متبادلة وتقاربا فيما بينها . كتب ماركس وانجلز في البيان الشيوعي : « ازيلوا استثمار الانسان للانسان ، تزيلوا استثمار امة لاخرى. وعندما يزول تناحر الطبقات في قلب كل امة يزول في الوقت نفسه العداء والحقد بين الامم » (١) .

لقد اعد لينين برنامجا ملموسا لحل المسالة الوطنية ، برنامج ازدهار الامم وتقاربها . ومبادىء هذا البرنامج الاساسية هي : اشاعة الديمقراطية بشكل واسع في الحياة الاجتماعية على اساس الاشتراكية، واقامة مساواة حقيقية لجميع العناصر والامم وإعطاء الامم حقها في تقرير المصير بما فيه حق الانفصال وتكوين دول مستقلة والوحدة الاممية للطبقة العاملة من جميع القوميات في البلاد . ان برنامج لينين لحل المسألة الوطنية ، القائم على احترام الشعوب كبيرها وصغيرها والاهتمام العميق بحاجاتها الحيوية ومطامحها ادى الى تراص العمال والفلاحين من القوميات المتعددة في روسيا في تحالف متين بقيادة الطبقة العاملة ، هذا التحالف الذي كان احد اهم عوامل انتصار ثورة اوكتوبر الاشتراكية العظمى .

ان الثورة الاشتراكية في بلادنا حطمت سلاسل الاضطهاد القومي وازالت العداء السابق بين الشعوب، ومهدت التربة لتعاونها الشامل وتقاربها واعطت الشعوب الحق العظيم في ان تقرر مصيرها بنفسها وان تطور انظمة حكمها الوطنية واقتصادها وثقافتها .

لقد كانت المسالة الوطنية منذ الايام الاولى لوجود البلاد السوفياتية موضع اهتمام خاص من جانب الحزب الشيوعي والدولة الاشتراكية. ففي الخامس عشر من تشرين الثاني (نوفمبر) ١٩١٧ ، اقرت الحكومة السوفياتية « بيان حقوق شعوب روسيا » الذي اعلنت فيه بشكل رسمي مساواة وسيادة جميع الشعوب التي تعيش في البلاد السوفياتية وحقها غير

---

(١) ماركس وانجلز ـ البيان الشيوعي ـ دار الطبع والنشر باللغات الاجنبية ـ موسكو ص ١٠٠ ، الطبعة العربية .

المحدود في تقرير المصير بما فيه الانفصال وتشكيل دول مستقلة والغاء جميع الامتيازات والتضييقات القومية ، والتطور الحر للاقليات القومية والجماعات البشرية (الاثنوغرافية) .

ان اقرار « بيان حقوق شعوب روسيا » كان يعني تصفية الاضطهاد القومي في البلاد السوفياتية واقامة المساواة السياسية والحقوقية بين الامم والشعوب المتعددة . وقد وضع البيان ، في نفس الوقت ، اساسا متينا للوحدة الاختيارية من قبل جميع الامم والشعوب في دولة واحدة . وقد اخذت هذه الوحدة شكلها النهائي في اقامة اتحاد الجمهوريات السوفياتية الاشتراكية (في ٣٠ كانون الاول - ديسمبر - ١٩٢٢) الذي هو اول دولة متعددة القوميات في العالم مؤسسة على المساواة القومية والاختيار الحر . ان تشكيل اتحاد الجمهوريات الاشتراكية قد ضاعف قدرة الجمهوريات السوفياتية وعزز وضعها السياسي وخلق المقدمات الضرورية لتقارب الشعوب اللاحق ونضالها المشترك في سبيل الاشتراكية .

ومن الطبيعي ان تحرر الامم لا يمكن ان يقتصر فقط على تصفية الاضطهاد القومي واعلاق حقوق الامم السياسية والقانونية . لقد كان الامر الرئيسي هو التغلب على التأخر الاقتصادي والثقافي الذي استمر قرونا طويلة والذي ورثه المجتمع الجديد من روسيا الحكم المطلق . ان الدولة السوفياتية الاشتراكية قد حلت بنجاح هذه المهمة الصعبة . فلم تكتف باعطاء الامم المضطهدة سابقا حقها في التطور الحر ، بل ساعدتها ، ايضا ، على التغلب على تأخرها وبلوغ قمم شاهقة في تطور الاقتصاد والثقافة الوطنيين .

ان الحزب الشيوعي والحكومة السوفياتية بعد ان جددا الاقتصاد الذي خربته الحرب انتهجا فورا سياسة تصنيع الجمهوريات القومية . وبفضل العناية الدائمة من جانب الحزب والدولة والمساعدة النزيهة من جانب القوميات الاخرى وخصوصا الشعب الروسي، انبثقت في الجمهوريات المتأخرة سابقا فروع جديدة للصناعة وتأمنت وتائر عالية لتطور لم يسبق لها مثيل . والامر المميز هو ان هذه الوتائر هي اعلى شكل ملحوظ من مستوى تطور الصناعة في الاتحاد السوفياتي ككل . فقد زاد حجم المنتوج الصناعي العام في عام ١٩٤٠ بالنسبة لعام ١٩١٧ ١١،٧ مرة ، في حين زاد في قرغيزيا ١٥٣ مرة وفي طاجكستان ٢٧٧ مرة . وشيدت في الجمهوريات القومية فروع جديدة للصناعة التعدينية والسيارات والكهرباء وغيرها . ففي جورجيا مثلا بنيت خلال سنوات السلطة السوفياتية حوالي الف مؤسسة صناعية ، وبني حوالي ٥٠٠ مصنع ومعمل ومنجم ومحطة كهربائية

في ارمينيا و ... الخ.

وتبدل الاقتصاد الزراعي في الجمهوريات القومية الى درجة لم يسبق لها مثيل . فقد اصبح جماعيا ومجهزا بأرقى التكنيك . وعلى اساس تطور القوى المنتجة في الجمهوريات السوفييتية ، نمت ملاكات وطنية موصوفة . وفئة مثقفين وفيرة العدد وجرى التغلب على التأخر الثقافي . **ان شعوب الاتحاد السوفييتي انجزت ليس فقط انقلابا عميقا في الحياة الاقتصادية ، وانما قامت بثورة ثقافية هائلة ايضا .**

لقد صفيت الامية تماما في جميع جمهوريات الاتحاد السوفييتي وغطيت البلاد بشبكة كثيفة من المدارس ومؤسسات التعليم العالي ومعاهد البحث العلمي والثقافة . وازدهرت فيها ثقافة جديدة ذات محتوى اشتراكي وشكل وطني . ان الجمهوريات القومية قد تجاوزت بعيدا ، من ناحية مستوى تطور الثقافة ليس فقط البلدان الراسمالية في الشرق وانما البلدان الراسمالية المتطورة في الغرب ايضا .

وبالتالي فبنتيجة انتصار الاشتراكية في الاتحاد السوفييتي تحولت المناطق القومية السابقة في روسيا من مناطق متأخرة من الناحيتين الاقتصادية والثقافية وعن توابع زراعية تنتج المواد الخام لروسيا القيصرية الى دول اشتراكية متقدمة ، ذات سيادة ، وتمتلك صناعة متطورة تطورا عاليا واقتصادا زراعيا وفيرا وطبقة عاملة خاصة بها وفئة مثقفين واسعة .

ان الامم البورجوازية تحولت الى **امم اشتراكية** من نوع جديد . وعلى الاساس الاجتماعي – الاقتصادي الجديد ترسخت كأمم اشتراكية كثير من الشعوب ، وتخطى العديد منها الطريق الراسمالي بمساعدة الشعوب الاخرى الاكثر تطورا ووصلت في تطورها مستوى الامم المتقدمة .

ان تطور الامم في الاتحاد السوفييتي تم ليس عن طريق تقوية الحواجز الوطنية والضيق القومي والانانية ، كما هو الحال في الراسمالية ، وانما عن طريق التقارب بين الامم والصداقة والمساعدة الاخوية المتبادلة فيما بينها . وهكذا فان تطور كل امة تطويرا عاصفا شاملا من جهة ، وتقارب الامم الاشتراكية اوثق فأوثق على اساس مبادىء الاممية البروليتارية من جهة اخرى ، هما **الميلان التقدميان** المرتبطان بعضهما في المسألة الوطنية ، اللذان ينشطان في ظل الاشتراكية .

وهكذا فان البرنامج الماركسي الذي اعده لينين للمسألة الوطنية في الاتحاد السوفييتي قد نفذ تماما . وعلى اساس السيادة التامة لعلاقات الانتاج الاشتراكية في البلاد السوفييتية نشأت علاقات بين الشعوب لم يسبق لها مثيل في العالم – **علاقات تعاون اخرى ومساعدة متبادلة .** ان الصداقة التي قامت بين شعوب الاتحاد السوفييتي نتيجة إنتصار الاشتراكية قد تحولت الى قوة محركة جبارة لمجتمع الاشتراكي . واصبحت احد اهم مصادر قوته القهارة وجبروته . ان حل المسألة الوطنية في الاتحاد السوفييتي حلا كاملا وصحيحا التي هي احد اعقد القضايا واكثرها حدة في تطور البشرية ، انما هو مظهر واضح لانتصار الافكار الماركسية اللينينية وافكار الاممية البروليتارية .

ان تجربة البناء الوطني في الاتحاد السوفييتي تدل بشكل مقنع بأن الثورة الاشتراكية فقط هي التي تخلق ظروف التصفية التامة للاضطهاد القومي والوحدة الاختيارية بين الشعوب الحرة المتساوية في دولة واحدة والازدهار الكامل للامم وتقاربها . ان هذه التجربة تستخدم اليوم من قبل دول المنظومة الاشتراكية العالمية لحل المسألة الوطنية سواء داخل كل دولة على حدة او في اطار اسرة الامم الاشتراكية . ولهذه التجربة الفنية اهمية كبيرة لشعوب الدول القومية الفتية المتحررة من النير الكولونيالي ولتلك الشعوب التي تناضل من اجل تحررها من الكولونيالية ، لنجاحات شعوب الاتحاد السوفييتي بالنسبة لها مصدر الهام وقوة في نضالها الشاق ضد الاستعمار والكولونيالية وهي ترى في الامم الاشتراكية الحالية مستقبلها .

تقارب الامم في ظروف بناء الشيوعية

يقول برنامج الحزب الشيوعي في الاتحاد السوفييتي ان بناء الشيوعية على نطاق واسع يعني مرحلة جديدة في تطور العلاقات الوطنية في الاتحاد السوفييتي التي تتميز بتقارب الامم المطرد والوصول الى وحدتها الكاملة . ان بناء القاعدة المادية والتكنيكية للشيوعية يؤدي الى وحدة الشعوب السوفييتية اوثق فأوثق .

ان انشاء القاعدة المادية والتكنيكية للشيوعية يؤثر على التطور المطرد الشامل لاقتصاد الجمهوريات الاتحادية والى الاتقان المستمر لتقسيم العمل فيما بينها ولتطوير الروابط الاقتصادية الموجودة وقيام اخرى جديدة . ان الاقتصاد الشيوعي يتطلب اوثق الروابط المتبادلة بين الجمهوريات السوفييتية . ولذا فبالتقدم نحو الشيوعية يتعاظم نصيب كل جمهورية في القضية المشتركة ، قضية تطوير القوى المنتجة في البلاد ، وتقوم جامعة اقتصادية تزداد وثوقا بين الامم الاشتراكية . كما ويؤدي الى التقارب بين الشعوب السوفييتية ايضا بناء مراكز صناعية جديدة واكتشاف واستغلال الثروات الطبيعية وزراعة الاراضي البكر والمناطق البعيدة وتطوير جميع انواع النقل . كل هذا يؤدي الى توسيع الاختلاط بين الامم وتبادل الخبرة الانتاجية والمنجزات الثقافية

ان تقارب الامم في ظروف البناء الشيوعي ينعكس ايضا في ان الحدود بين الجمهوريات الاتحادية في اطار الاتحاد السوفييتي تفقد اهميتها السابقة . وهذا امر يسهل تفسيره : فجميع امم البلاد السوفييتية لها نفس الحقوق وحياتها مبنية على اساس إشتراكي موحد ويجري تأمين الحاجات المادية والثقافية لكل شعب بصورة واحدة . وتوحد جميع الشعوب اهداف حيوية مشتركة في عائلة واحدة وتسير كلها ، كتفا لكتف ، نحو الهدف المشترك .

ان كل جمهورية وطنية تصبح من حيث التركيب القومي لسكانها متعددة القوميات ، اكثر فأكثر . وهذا يدلل بدوره ، بشكل مقنع ، على التقارب المستمر بين شعوب الاتحاد السوفييتي . ففي كل جمهورية يعيش كأخوة اشقاء ويعمل مواطنون من شتى القوميات . وتتعدد قوميات عمال المؤسسات الاشتراكية ايضا .

وعلى اساس نجاحات البناء الشيوعي ومحو الحدود الطبقية وتطور العلاقات الاجتماعية الشيوعية يشتد التجانس الاجتماعي بين الامم وتتطور السمات الشيوعية المشتركة لثقافتها واخلاقها واسلوب معيشتها ، الامر الذي يؤمن التوطيد المطرد للثقة المتبادلة والصداقة فيما بينهما . وتزداد ايضا الوحدة الفكرية بين الامم ، وتزدهر الثقافة الاشتراكية لشعوب الاتحاد السوفييتي ازدهارا شاملا وتغني الثقافات الوطنية بعضها بعضا وتتقارب فيما بينها . وتتطور الثقافة الامية المشتركة بين جميع الامم ، هذه الثقافة التي تضم اسمى منجزات الثقافة الانسانية الخالدة . ان كنز ثقافة كل امة يغتني بابداعات ذات طابع اممي ، الامر الذي يعني بداية نشوء ثقافة المجتمع الشيوعي الانسانية العامة الموحدة المقبلة .

ان تقارب الامم في مجرى البناء الشيوعي هو عملية موضوعية . غير ان هذا لا يعني ان هذه العملية تتم بشكل عفوي ، دون عقبات وبسهولة . ان تطور اقتصاد وثقافة الامم الاشتراكية وتقاربها المستمر يفترض نضالا لا هوادة فيه ضد مظاهر وبقايا التعصب القومي والشوفينية ، وضد ميول الانغلاق القومية والاستثنائية ، ضد تقديس الماضي والتغطية على التناقضات الاجتماعية في تاريخ الشعوب ، وضد العادات والتقاليد التي ولى زمانها .

ولدى انتصار الشيوعية ستتقارب الشعوب اكثر وستعزز وحدتها الاقتصادية والفكرية . وستصل ثقافتها الى ذرى لم تر من قبل وستتطور الملامح الشيوعية في ثقافتها تطورا كاملا .

وستنتهي عملية تقارب الامم اخيرا باندماجها . غير ان اندماج الامم والتغلب على الفوارق بينها عملية هي اطول بكثير من زوال الفوارق بين الطبقات . فانتصار الشيوعية سيزيل الفوارق الطبقية ، ولكن الفوارق القومية ، وخصوصا في اللغة ، ستبقى الى زمن طويل .

لقد خرجت عملية التقارب بين الامم ، في عصرنا ، الذي نشأ فيه النظام الاشتراكي العالمي ويتطور ، من اطار الدولة الواحدة واكتسبت اهمية عالمية . فعلاقات الوحدة الاخوية والتعاون تتوطد اليوم بين دول المنظومة الاشتراكية ، وان تجربة تطورها تدل على ان هذه العلاقات تستجيب للمصالح الوطنية العليا لكل دولة . ان التعاون بين الدول الاشتراكية يمكن كل دولة منها ان ترد على ضغط الرجعية الاستعمارية وان تستخدم مواردها بالشكل الاكمل والاكثر عقلانية ، وان تطور اقتصادها وتغني ثقافتها الوطنية . وبنجاح بناء الاشتراكية والشيوعية يصبح تبادل الثروات المادية والثقافية بين اسرة الامم الاشتراكية فعالا اكثر فأكثر . حيث تنمو قوتها وتتوطد وحدتها الاقتصادية والسياسية والفكرية . **ان ظهور النظام الاشتراكي العالمي هو اهم خطوة ، بعد قيام الاتحاد السوفييتي، في طريق التقارب الشامل بين الشعوب .**

الفصل السادس عشر

الدولـة

اشار لينين الى ان مسألة الدولة قد شوشت كثيرا جدا من جانب ممثلي علم الاجتماع البورجوازي . والسبب هو انه لا توجد قضية اخرى تمس مصالح الطبقات المسيطرة اكثر من هذه القضية . ان الايديولوجيين البورجوازيين يصورون الدولة باعتبارها قوة فوق طبيعية ، اعطاها الله الى الانسان منذ العصور الغابرة . وانها ليست ذات طابع طبقي وانما كانت فقط « اداة نزيهة للنظام » و « حكما سلميا » مدعوا لحل الخلافات التي تقع بين الناس دون النظر الى اي طبقة ينتمون . قال لينين ان مثل هذه « النظرية » عن الدولة تبرر امتيازات البورجوازية ووجود الاستغلال والراسمالية .

ان الماركسية اللينينية فقط تفسر بشكل علمي منشأ الدولة وجوهرها ودورها في الحياة الاجتماعية .

١ . منشا الدولة

الدولـة نتاج التطور التاريخي للمجتمع

ان الماركسية تبرهن، على الضد من الايديولوجيين البورجوازيين ، بأن الدولة ليست قوة مفروضة على المجتمع من الخارج وانها نتاج التطور الداخلي للمجتمع. لقد وجدت الدولة في الواقع من جراء التغيرات في الانتاج المادي . وان استبدال اسلوب للانتـاج بآخر يسبب تبديل بناء الدولة .

ان الدولة لـم تكن موجودة دائما . ففي المجتمع البدائي حيث لـم توجـد ملكية خاصة ولا طبقات لـم توجد الدولة ايضا . لقـد وجدت حينذاك ــ طبعا ــ وظائف اجتماعية معينة غير انها كانت تنفذ من قبل

اناس انتخبوا من قبل المجتمع كله ، وكان المجتمع يملك حق تبديلهم في كل وقت وانتخاب غيرهم . لقد كانت علاقات الناس في ذلك الزمن البعيد مؤسسة على قوة الراي العام .

وكما نعرف فان التطور اللاحق للقوى المنتجة قد ادى الى تفكك المجتمع البدائي . فلقد ظهرت الملكية الخاصة وظهرت معها الطبقات — العبيد وملاك العبيد ، وظهرت ضرورة حماية الملكية الخاصة وسلطة وامن مالكيها . ولهذا الغرض ، بالضبط ، ظهرت الدولة . ان ظهور الدولة وتطورها المطرد رافقه صراع طبقي ضاري .

وهكذا فان الدولة هي نتاج المجتمع **الطبقي** . لقد ظهرت مع ظهور الطبقات وستختفي وتزول بزوال الطبقات . الا ان هذا لن يتم الا في ظل الشيوعية .

ماذا تمثل الدولة ؟

جوهر الدولة

ان الدولة في المجتمع الطبقي اداة سياسية ، « آلة الهدف منها ابقاء سيطرة طبقة على اخرى » (١) . فالطبقة التي تسيطر اقتصاديا ، اي تمالك وسائل الانتاج تجد في شخص الدولة اداة قوية لاخضاع المضطهدين والمستغلين . ان للدولة طابع طبقي واضح جدا . وهي كجزء هام جدا من البناء الفوقي القائم على القاعدة الاقتصادية لمجتمع ما ، تتخذ جميع التدابير من اجل توطيد القاعدة وحمايتها .

ما هي سمات الدولة ؟

ان السمة الرئيسية للدولة هي وجود سلطة **عامة** (اجتماعية) تمثل مصالح ليس جميع السكان ، وانما الطبقة المسيطرة اقتصاديا . هذه السلطة ترتكز الى القوة المسلحة — الجيش والشرطة والدرك .

في المجتمع البدائي كان الشعب كله مسلحا . اما في المجتمع المنقسم الى طبقات متعادية ، فالقوات المسلحة في ايدي الطبقة المسيطرة تخدمها لقمع الشعب واخضاعه لحفنة صغيرة من المستغلين . ولنفس الغرض يجري استخدام الاجهزة التمثيلية (البرلمانات) وجهاز الحكم البيروقراطي الهائل بكامل جيش الموظفين واجهزة التجسس والمحاكم والادعاء العام والسجون والمعتقلات . وهذا كله يشكل بمجموعه السلطة السياسية العامة للدولة الاستغلالية .

---

(١) لينين — ماركس انجلز — الماركسية — ص٦٤٧ . الطبعة العربية .

ومن الملاحظ ان الجهاز الحكومي يكبر مع تعمق التناقضات الطبقية واشتداد الصراع الطبقي . ويبدو هذا الامر اكثر حدة في المجتمع الراسمالي حيث وصل الجهاز الحكومي والقوات المسلحة الى مقاييس هائلة . ان اعالة هذا الجهاز المرعب وخصوصا القوات المسلحة في ظروف سباق التسلح الذي تقوم به الدوائر الاستعمارية الرجعية ينيخ كثقل هائل على الشغيلة .

وتتميز الدولة ، بالاضافة الى وجود سلطة عامة ، بتقسيم الناس . ليس على إساس عشائري ، كما كان الحال في المجتمع البدائي وانما على اساس **اقليمي** ، اي الى مناطق ونواحي ومقاطعات وولايات ومحافظات . ان التقسيم الاقليمي هو نتيجة لتطور الانتاج والتقسيم التقدمي للعمل وتطور التجارة وتبادل البضائع .

٢ . الدولة في المجتمع الاستغلالي

وظائف الدول الاستغلالية

ان الدول في مجتمع استغلالي (الرق ، الاقطاع ، الراسمالية) تهتم بحماية مصالح الطبقة المسيطرة ، سواء في البلاد نفسها - في علاقتها مع سائر الطبقات الاجتماعية ، او خارج البلاد - في علاقتها مع الدول الاخرى . ومن هنا ينشأ الاتجاهان الاساسيان في نشاط الدولة اي وظيفتيها الداخلية والخارجية . ان الوظيفة الرئيسية بين هاتين الوظيفتين هي الداخلية ، التي تقرر نشاط السياسة الخارجية للدولة .

فما هو محتوى هاتين الوظيفتين ؟

ان الوظيفة الداخلية للدولة الاستغلالية تكمن في قمع الشغيلة واخضاعهم لجماعة صغيرة من المضطهدين . انها تميز الطابع الطبقي للدولة . ويعبر عنها بالسياسة الداخلية وبالصراع ضد الطبقات المضطهدة . ان المستغلين من اجل ان يتغلبوا في هذا الصراع لا يكفيهم الاجبار الاقتصادي الذي يتمتعون به بحكم سيطرتهم الاحتكارية على وسائل الانتاج .

ان اول دولة استغلالية كانت دولة ملاك العبيد . وقد حلت محلها الدولة الاقطاعية ، وبعد هذا الدولة الراسمالية . ورغم ان بين هذه الدول فوارق معينة ، الا ان هناك سمة مشتركة تميزها جميعا وهي سعيها لان تبقي الشعب في خضوع وان تسحق كل محاولات الشغيلة للتحرر من الاستغلال .

ان دولة ملاك العبيد قمعت بقوة السلاح العبيد الذين أنتفضوا ضد مستعبديهم . وابقت الدولة الاقطاعية الفلاحين الاقنان ، بالعنف ، في ارض الاقطاعي وعاقبت بقسوة اولئك الذين رفضوا العمل للاقطاعيين . وقد اغرقت الكثير من الانتفاضات الفلاحية في بحر من الدماء . والدولة الراسمالية . ولو انها ترغب في ان تتزيا بزي ديمقراطي فهي ايضا اداة لقمع الشغيلة . وان هدفها الحقيقي حماية الملكية الخاصة المقدسة للراسماليين ومتابعة حماية اساس هذه الملكية نظام عبودية الاجر وسحق حركة البروليتاريا الثورية .

وتكمن الوظيفة **الخارجية** للدولة الاستغلالية في نهب الاراضي الاجنبية او في الدفاع عن الارض الخاصة بها من هجوم خارجي . انها تميز علاقات احدى الدول بالاخرى وتنعكس في سياستها الخارجية . ان السياسة الخارجية تنشأ عن السياسة الداخلية وهي استمرار لها . فسياسة الاستعمار المعاصر الخارجية الرجعية هي تكملة طبيعية لسياسته الداخلية لاضطهاد الطبقة العاملة وجميع القوى التقدمية .

انواع الدول واشكال الحكم

ان الدول تختلف فيما يلي : اية طبقة اجتماعية تخدم ، وعلى اي اساس اقتصادي ــ اي قاعدة اقتصادية ــ تقوم .

ويعرف التاريخ اربعة **انواع** من الدول : دولة ملاك العبيد ، والدولة الاقطاعية والراسمالية والإشتراكية . وخلافا للانواع الثلاثة الاولى التي تحمي مصالح المستغلين فان الدولة الاشتراكية هي دولة من **نوع جديد**

ولكل نوع من الدول **اشكال** خاصة مختلفة من **الحكم** اي اسلوب تنظيم سيطرة الطبقة الحاكمة . ان اشكال الحكم تتعلق بالظروف التاريخية الملموسة لتطور كل بلد على حدة ، وتناسب القوى الطبقية في البلاد والاوضاع الخارجية . ولكن مهما تنوعت اشكال الحكم ومهما تغيرت فان نوع الدول ، طابعها الطبقي في اطار نظام اقتصادي معين يبقى دون تغيير .

اشار لينين الى ان اشكالا مختلفة للحكم عرفت منذ ايام مجتمع ملاك العبيد : الملكية بوصفها سلطة فرد واحد ، الامبراطور او الملك ، والجمهورية بوصفها سلطة منتخبة ، والارستقراطية بوصفها سلطة لاقلية ضئيلة نسبيا ، والديمقراطية بوصفها سلطة الاكثرية . ولكن رغم هذه الفوارق فان دولة عصر العبودية كانت كما كتب لينين دولة ملاك العبيد . ومن الممكن مشاهدة لوحة مماثلة في المجتمع الاقطاعي . ان اكثر

اشكال الحكم انتشارا في الدولة الاقطاعية هو الملكية . ولكنها ، في بعض الاحيان ، كانت تتخذ اشكالا اخرى كالجمهورية مثلا . ومع هذا فان الملكية واي شكل آخر للدولة الاقطاعية كان داة لقمع الفلاحين الاقنان والحرفيين .

ان تنوع الاشكال يميز الدولة البورجوازية ايضا . وهي في الغالب تأخذ شكل الجمهورية (الولايات المتحدة الامريكية ، فرنسا ، ايطاليا وبلدان كثيرة غيرها) . وفي ظل الراسمالية نادرا جدا ما نصادف شكل الحكم الملكي ، واذا ما وجد هذا الشكل فان سلطة الملك محددة بالدستور الى هذا الحد او ذاك (انجلترا ، بلجيكا) . وتلجأ البورجوازية في عصر الاستعمار الى شكل الدكتاتورية الفاشية السافرة (المانيا الهتلرية ، إسبانيا الفرنكوية .. الخ) . وان كل شكل للدولة البورجوازية يحقق سلطة غير محدودة للبورجوازية .

لقد سبق ورأينا ان انواع واشكال الدول قد تبدلت بتطور المجتمع . غير ان هذه التبدلات لم تمس جووهرها الاستغلالي . فلقد تبدلت اشكال الاستغلال فقط ، اما الاستغلال نفسه فباقي .

الطابع الرجعي للدولة البورجوازية

ان الايديولوجيين والساسة البورجوازيين يتحدثون كثيرا عن الدور التقدمي للدولة البورجوازية ، ويزعمون انها وحدها اعطت الناس الحرية التامة ، وانها ديمقراطية من نوع راقي ، ديمقراطية حقيقية . والى هذا يسعى التحريفيون المعاصرون الذين يحاولون تصوير الدولة البورجوازية كقوة فوق الطبقات وانها تضيق بدرجة واحدة على الطبقة العاملة وعلى الراسمال الخاص . ان التحريفيين يزعمون ان الدولة البورجوازية لم تعد جهازا لطبقة واحدة فقط ـ الطبقة الراسمالية ، وقد تحولت الى خدمة جميع الطبقات الاجتماعية . غير ان مزاعم التحريفيين بأن الدولة البورجوازية المعاصرة تقدمية وديمقراطية لا اساس لها مطلقا .

ان الدولة البورجوازية في فجر الراسمالية كانت حقا ذات ملامح تقدمية معينة : فقد ساعدت على نشوء وتطوير علاقات الانتاج الراسمالية التي هي اكثر تقدمية من الاقطاعية . ولكن الدولة البورجوازية حتى في ايامها لم تكن ديمقراطية للجميع وانما ديمقراطية للنخبة ، للبورجوازية ، ديمقراطية لاقلية ضئيلة ، للاغنياء ـ تلك هي ديمقراطية المجتمع الراسمالي ـ كما قال لينين ـ .

ان الدولة البورجوازية بجميع اشكالها هي دكتاتورية البورجوازية ،

واداة لقمع الطبقة العاملة وجميع الشغيلة . فالى هذه الدرجة او تلك وبهذا الشكل او ذاك تلجأ ، باستمرار ، الى استعمال العنف في علاقتها تجاه عدوها الطبقي . ومع حلول الاستعمار انعطفت الدولة البورجوازية بشكل مباشر نحو الرجعية واخذت على عاتقها القيام بدور شائن ـ هو الدفاع عن الاساس الاقتصادي للاستعمار الذي اصبح منذ امد عقبة امام التطور التاريخي .

لقد اشار لينين الى ان الاستعمار هو رجعية في جميع المجالات وبالتالي في المجال السياسي ، مجال الدولة . « ان الاستعمار سواء في السياسة الخارجية او السياسة الداخلية ، يسعى الى انتهاك الديمقراطية والى الرجعية . وبهذا المعنى فان الاستعمار بلا جدال هو « نفي » للديمقراطية عموماً ، لكل ديمقراطية » (١) .

وفي ظل الاستعمار تتطور على نطاق واسع راسمالية الدولة الاحتكارية التي تجمع قوة الاحتكارات وقوة الدولة في جهاز واحد ، لخنق الحركة البروليتارية وحركة التحرر الوطني ولانقاذ النظام الراسمالي المحتضر ولاشعال حروب عدوانية . ان الدولة اصبحت لجنة لادارة اعمال الطغمة الاحتكارية . فلصالح هذه الطغمة تتدخل الدولة مباشرة في عملية الانتاج الراسمالي ، وتطبق مختلف التدابير التنظيمية وتضع يدها على بعض فروع الاقتصاد لتؤمن للاحتكارات اعلى الارباح الممكنة .

ولا يمكن ستر الطابع الرجعي للسياسة الداخلية والخارجية التي تنتهجها الدولة البورجوازية المعاصرة بالثرثرة عن الحرية والديمقراطية او بالاستشهادات بالدساتير البورجوازية او بالمزاعم عن رسالة الراسمالية التمدينية التي يحب ساسة ونظريو الاستعمار ان يشغلوا انفسهم بها . واذا ما تفحصنا دساتير العديد من الدول الاستعمارية فسنجد فيها بسهولة مواد عن مختلف الحريات والحقوق لجميع المواطنين . فيوجد فيها حق الانتخاب العام ، حرية انتخابات وحرية كلام وصحافة .. الخ . اما في الواقع فان هذه الحريات شكلية وتظل حريات على الورق بالنسبة للغالبية العظمى من المواطنين الشغيلة . انها في متناول البورجوازية فقط ، لانها تركز في ايديها جميع وسائل السيطرة الاقتصادية والسياسية .

ان حق الانتخاب العام المتساوي المباشر مثلا الذي تعلنه دساتير الكثير من البلدان الراسمالية ، هو حق شكلي . اذ بواسطة العديد من التضييقات والشروط لا يسمح لجزء هام من الشعب ان يساهم في

(١) لينين ـ المؤلفات ـ ج٢٣ ص٣١ .

الانتخابات . ومن ثم فان الانتخابات نفسها لا يجمعها جامع بالديمقراطية . فجميع وسائل الضغط ـ من التهويل (الشانتاج) والرشوة حتى التهديد والارهاب والاحابيل المختلفة والتزويرات ـ تستخدم من قبل البورجوازية لتضمن الاكثرية في البرلمان . ونتيجة كل هذا ينتخب ذلك البرلمان الذي يريح اقطاب المال . ان جميع اعضاء الكونغرس الامريكي مثلا (الجهاز الحكومي الاعلى) هم اما راسماليون او خدامهم المخلصون ، ولا يوجد في الكونغرس اي عامل . مع العلم ان الطبقة العاملة تشكل نصف مجموع الناخبين . ويوجد في الكونغرس بضعة نساء فقط والنساء يمثلن الجزء الاكبر من المواطنين الامريكان .

ان الانتخابات القائمة ، اسميا ، على المساواة بعيدة ، في الواقع ، عن كل مساواة . فقد صوت للحزب الشيوعي الفرنسي ، في الانتخابات البرلمانية في فرنسا عام ١٩٥٨ ، اربعة ملايين ناخب ، وحصل على عشرة مقاعد نيابية . في حين ان حزب الرجعي سوستيل حصل بأصوات أقل على ١٨٨ مقعدا .

وليس الوضع بأحسن من هذا بالنسبة لحرية الكلام والصحافة والضمير وكثير غيرها من الحريات في العالم الراسمالي « الحر » .

يوجد في العالم الراسمالي « الحر » ملايين العاطلين . وينجم عن هذا ان الدولة البورجوازية لا تستطيع ان تؤمن حق العمل للشعب كله ، دع عنك حق الراحة والضمانات الاجتماعية .

ان « الحرية » في العالم الرأسمالي تعني حرية الراسماليين في ان يستغلوا الطبقة العاملة والشعب الشغيل ليس في بلادهم الخاصة فحسب ، بل في جميع البلدان الاخرى التي تقع تحت العقب الحديدية للاحتكارات .

ان الطغمة المالية غالبا ما تلجأ في ظروف الاستعمار الى الاساليب الاكثر رجعية في الحكم ، الى الديكتاتورية الارهابية المكشوفة ، الى الفاشية ، وتضع آمالها على الجيش والدرك والبوليس باعتبارها الملجأ الاخير المنقذ من غضب الشعب ، باعتبارها الامكانية الاخيرة لابعاد هلاكها المحتم .

ان البشرية لم تشف بعد من الفظاعات التي سببتها النظم الفاشية لهتلر وموسوليني وحلفائهما ، عندما سيطرت على اوروبا ولا من فظاعات

الحرب العالمية الثانية التي اشعلتها الفاشية ، ومع هذا ظهرت من جديد اليوم علائم الفاشية في بعض البلدان الراسمالية . ان اخضاع الجهاز الحكومي اخضاعا تاما للاحتكارات واشاعة العسكرية في الاقتصاد وتضخيم الجهاز الحكومي ، والهجوم الضاري ضد الحركة العمالية والشيوعية وملاحقة انصار السلم واعضاء التنظيمات الديمقراطية الاخرى ، والتمييز العنصري وتصفية بقايا الحريات الديمقراطية – ذلك هو محتوى السياسة الداخلية للدول الاستعمارية المعاصرة . ففي المانيا الغربية ، التي تسير في طريق رجعي في تطورها ، يمنع الحزب الشيوعي وتلاحق القوى الديمقراطية ويجري ، بكل الطرق ، تشجيع المنظمات الفاشية والانتقامية . ويشغل العديد من الهتلريين المشهورين مراكز حكومية . واكثرية جنرالات جيش المانيا الغربية هم جنرالات هتلريون سابقون .

وسياسة الدول الاستعمارية المعاصرة الخارجية هي بدورها رجعية ايضا . فالمستعمرون برئاسة احتكارات الولايات المتحدة الامريكية اذ يتظاهرون بكونهم مناضلين لـ « تحرير » الشعوب المستعمرة ، يشنون في الواقع نضالا ضاريا ضد حركة التحرر الوطني ويقيمون ، باشكال جديدة ، نفس النظام الكولونيالي المكروه من الشعوب . ومن اجل ان يفرضوا الرقابة على الافكار التي حصلت على استقلال شكلي يدخل الاستعماريون هذه الافكار في الاحلاف العدوانية ويستخدمون ما يسمى بـ « المساعدة » الاقتصادية للبلدان الضعيفة التطور ووسائل اخرى . انهم يدعمون النظم الرجعية (مثل نظام تشان كاي تشيك في تايوان) وسباق التسلح والتحضير لحرب عالمية جديدة ويطوقون الاتحاد السوفييتي وسائر البلدان الاشتراكية بسلسلة من القواعد العسكرية .

ومن الملاحظ ان الدول الاستعمارية تنتهج سياستها الرجعية الداخلية والخارجية تحت الراية المهلهلة ، راية مكافحة « الخطر الشيوعي » الذي يأتي من الاتحاد السوفييتي وسائر البلدان الاشتراكية .

ان الطبقة العاملة لا يمكن ان تكون عديمة المبالاة تجاه شكل الدولة البورجوازية في بلادها . وان الديمقراطية البورجوازية رغم محدوديتها تخلق ظروفا افضل للنضال الناجح للطبقة العاملة ضد البورجوازية ومن اجل دكتاتورية البروليتاريا والاشتراكية ، مما تتيحه الديكتاتورية السافرة .

ولذا تناضل الطبقة العاملة في البلدان الراسمالية في مقدمة جميع القوى التقدمية ضد ضغط الرجعية .

٣ . دكتاتورية البروليتاريا

ان رسالة البروليتاريا التاريخية العظمى هي تحطيم الراسمالية وبناء المجتمع الشيوعي اللاطبقي. غير انهذا المجتمع لا ينبثق من الراسمالية مرة واحدة وبصورة مباشرة . وقد اشار ماركس الى ان بين الراسمالية والاشتراكية وهي الطور الادنى من الشيوعية « تقع مرحلة التحويل الثوري من الاولى الى الثانية(١) . وتلائم هذه المرحلة ايضا مرحلة انتقال سياسية . ولا يمكن لدولة هذه المرحلة ان تكون غير دكتاتورية البروليتاريا الثورية » (٢) .

دكتاتورية البروليتاريا دولة من نوع جديد

ان دكتاتورية البروليتاريا تظهر نتيجة انقلاب اجتماعي ناجح ، على اساس تحطيم ماكينة الدولة البورجوازية تحطيما تاما . انها دولة من نوع جديد يختلف ، جذريا ، عن جميع انواع الدول السابقة ، من حيث جوهرها الطبقي ، ومن حيث اشكال التنظيم الحكومي ومن حيث الدور الذي يتوجب عليها القيام به .

ان جميع انواع الدول السابقة كانت اداة بين الطبقات المستغلة ، اداة لقمع الشغيلة ، إستهدفت توطيد النظام الاستغلالي وادامة انقسام المجتمع الى مضطهدين ومضطهدين . ان دكتاتورية البروليتاريا هي سلطة الطبقة العاملة ، التي تحطم ، بالتعاون مع الشغيلة جميعا ، الراسمالية وتبني المجتمع الجديد الخالي من الطبقات المتعادية ، الخالي من الاستغلال .

كتب لينين يقول : « ان دكتاتورية البروليتاريا ، اذا فسرنا هذا التعبير اللاتيني ، العلمي ، التاريخي ، الفلسفي ، بلغة اسهل انما تعني : ان طبقة معينة – اي عمال المدن ، وبوجه عام ، عمال المعامل ، العمال الصناعيين – هي وحدها القادرة على قيادة كل جهود الشغيلة والمستثمرين في النضال من اجل خلع نير الراسمال ، وخلال عملية الخلع هذه ، وفي النضال من اجل الحفاظ على النصر وتوطيده ، وفي خلق نظام إجتماعي

---

(١) اي من الراسمالية الى الاشتراكية .

(٢) ماركس . انجلز – المؤلفات المختارة – ج٢ ص٢٣ .

جديد، اشتراكي ، في كل النضال من اجل محو الطبقات محوا تاما » (١) .
ان تعاليم دكتاتورية البروليتاريا هي الامر الرئيسي في الماركسية . ان دكتاتورية البروليتاريا وحدها ، سطلة البروليتاريا الكاملة ، تعطيها امكانية تصفية الراسمالية وبناء الاشتراكية . ولهذا فان من الطبيعي تماما ان مسألة دكتاتورية البروليتاريا كانت وستبقى دائما مركز الصراع الايديولوجي الذي تشنه الماركسية اللينينية ضد الاصلاحية والتحريفية . لقد سمى لينين دكتاتورية البروليتاريا حجر المحك ، الذي بواسطته يمتحن الادراك الحقيقي للماركسية والاعتراف بها . فمن اجل ان تكون ماركسيا لا يكفي – كما اشار لينين – ان تعترف بالصراع الطبقي فقط . ان الماركسي هو فقط ذلك الذي يوسع اعترافه بالصراع الطبقي ليشمل الاعتراف بدكتاتورية البروليتاريا .

لقد كافح لينين ، بلا رحمة ، قادة الاممية الثانية الاصلاحيين والتحريفيين الذين انكروا ضرورة دكتاتورية البروليتاريا . وكرر باستمرار ان دكتاتورية البروليتاريا هي الوسيلة الوحيدة لبناء الشيوعية . وبرهن التاريخ بعمق كم كان لينين على حق . وبفضل دكتاتورية البروليتاريا انتصرت الاشتراكية انتصارا تاما ونهائيا في البلاد السوفييتية ويسير العديد من البلدان الاخرى الآن ، بنجاح ، في الطريق الاشتراكي .

ان التحريفيين المعاصرين يستمرون في انكار ضرورة دكتاتورية البروليتاريا ، رغم انهم يقومون بهذا بشكل اكثر حذقا من اسلافهم التاريخيين . فهم ، اذ لا يستطيعون تجاهل حقيقة ان دكتاتورية البروليتاريا موجودة في بلدان المنظومة الاشتراكية ينظرون اليها ليس كشكل قانوني عام للانتقال من الراسمالية الى الاشتراكية ، وانما بوصفها احد الاشكال الوطنية يفرض نفسه فقط في البلدان المتأخرة اقتصاديا ، كروسيا ما قبل الثورة مثلا . ان التحريفي الايطالي جوليتي كتب مثلا ، ان دكتاتورية البروليتاريا يمكن ان تتحقق « فقط في البلدان المتأخرة اقتصاديا حيث تطور القوى المنتجة واطئا وليس فيها ، تقريبا ، اشكال متطورة للديمقراطية السياسية » . اما فيما يتعلق بالبلدان المتطورة تطورا عاليا فهناك – كما يزعم التحريفيون – سيتم الانتقال الى الاشتراكية بواسطة « الديمقراطية الصرفة » والمقصود بها الديمقراطية البورجوازية .

ان مفاهيم الاصلاحيين والتحريفيين لا اساس لها وتتناقض مع التجربة التاريخية ، التي تدلل بشكل مقنع بأن بناء الاشتراكية غير ممكن

(١) لينين – المؤلفات – ج٢٩ ص٢١٤ .

بدون دكتاتورية البروليتاريا . وببناء الاشتراكية تحل دكتاتورية البروليتاريا عددا من المهام البالغة الاهمية التي تقرر الجوانب الرئيسية لنشاط دكتاتورية البروليتاريا . وهي ما يجب انتقف عنده الآن ونبحثه.

الجوانب الرئيسية لدكتاتورية البروليتاريا

لقد عرفنا من الفصل السابق ان الصراع الطبقي لا يتوقف في المرحلة الانتقالية ويشتد ، في حالات معينة ، الى درجة كبيرة جدا .. ان البورجوازية المحرومة من السلطة السياسية ، في قطر ما ، لا يمكن ان تسلم بهزيمتها وبفقدانها سلطتها وامتيازاتها ، ولذا فانها تقاوم البروليتاريا المنتصرة بضراوة .

ولهذا السبب ايضا تكون دكتاتورية البروليتاريا ضرورية لسحق مقاومة البورجوازية والتغلب عليها في المعارك الطبقية الضارية . كتب لينين : « ان دكتاتورية البروليتاريا هي اكثر الحروب بطولة وابعدها عن الهوادة ، التي تخوضها الطبقة الجديدة ضد عدو اشد بأسا ، ضد البورجوازية التي **تضاعفت** مقاومتها عشرة اضعاف بعد اسقاطها » (١) .

هذا هو الجانب الاول ، الجانب **العنفي** في دكتاتورية البروليتاريا .
غير ان سحق البورجوازية ليس هدفا لذاته بالنسبة لدكتاتورية البروليتاريا . ان مهمة دكتاتورية البروليتاريا الرئيسية هي بناء الاشتراكية ، خلق اقتصاد جديد ، اشتراكي . ان تنفيذ هذه المهمة صعب بسبب من ان الثورة الاشتراكية تبدأ دون ان توجد اشكال جاهزة للنظام الاشتراكي . وان من مهمات دكتاتورية البروليتاريا والدولة البروليتارية ان تنظم حياة المجتمع الاقتصادية وان تخلق اقتصادا جديدا ، ارقى مما هو في الراسمالية ــ اقتصاد الاشتراكية . كتب لينين : « ان دكتاتورية البروليتاريا .. لا تعني فقط استعمال العنف ازاء المستثمرين ، بل انها لا تعني اساسا العنف .. ان البروليتاريا تعرض وتحقق بالقياس الى الراسمالية ، النموذج الاعلى لتنظيم العمل في المجتمع . ذاك هو جوهر المسالة . ومن هنا تنبع القوة ، من هنا ضمان انتصار الشيوعية التام المحتوم » (١) .

هذا هو الجانب الثاني ، الجانب **البناء** في دكتاتورية البروليتاريا .

---

(١) لينين ــ مرض « اليسارية » الطفولي في الشيوعية . دار الطبع والنشر باللغات الاجنبية ــ موسكو ــ الطبعة العربية ــ ص٧ .

(١) لينين ــ ماركس ــ انجلز ــ الماركسية . الطبعة العربية ص.٦١ .

ان البروليتاريا لا تقيم النظام الجديد الاشتراكي بمفردها ؛ وانما في تحالف وثيق مع جماهير الشغيلة غير البروليتاريا ، وخصوصا الفلاحين . والى جانب هذا فان البروليتاريا تعيد تربية هذه الجماهير وتثقفها في مجرى النضال ضد البورجوازية وفي بناء الاشتراكية . وهذه مهمة صعبة جدا ، واكثر صعوبة من النضال المكشوف ضد البورجوازية . ويتوجب هنا عمل تربوي مستمر ، واقناع الفلاحين بافضليات الاقتصاد الجماعي . وهذه هي احدى مهام الدولة البروليتارية الرئيسية جدا . ان البروليتاريا من اجل ان تستطيع قيادة الفلاحين وجميع فئات البورجوازية الصغيرة عموما « تنبغي ـ كما قال لينين ـ دكتاتورية البروليتاريا ، تنبغي سلطة طبقة واحدة ، تنبغي قوة تنظيمها وروحها النظامي ، تنبغي قوتها المركزة المستندة الى جميع مكتسبات الثقافة والعلم والتكنيك في عهد الراسمالية ، تنبغي وشائجها البروليتارية مع ذهنية كل شغيل من الشغيلة ، ونفوذها المعنوي بنظر شغيلة الريف او شغيلة الانتاج الصغير .. » (٢) .

وهذا هو الجانب الثالث ، الجانب **التربوي** في دكتاتورية البروليتاريا .

واننا اذ نتحدث عن الجوانب الاساسية في دكتاتورية البروليتاريا ينبغي ان نشير الى ان هذه الجوانب جميعها مترابطة عضويا ببعضها البعض في وحدة لا تتجزأ . غير ان الامر الرئيسي في دكتاتورية البروليتاريا **هو خلق ، بناء المجتمع الجديد واعادة تربية** ملايين المالكين الصغار ، الفلاحين وتحويلهم الى بناة نشيطين للاشتراكية . كما يجب ان لا نقلل في الوقت نفسه من اهمية جانب العنف في دكتاتورية البروليتاريا ، فكثيرا ما دفعت الطبقة العاملة من دمها جراء استصغار اهمية هذا الجانب ، ولاظهارها اللين الزائد والتنازل تجاه البورجوازية . فقد اغرقت كومونة باريس بالدماء عام ١٨٧١ وكذلك ثورات المانيا والمجر وفنلندا خلال عامي ١٩١٨ ـ ١٩١٩ . وقتل الالوف من خيرة ابناء الطبقة العاملة المجرية من قبل البورجوازية المعادية للثورة خلال تشرين الاول عام ١٩٥٦ . ان كل هذا يدلل بشكل مقنع بأن ليس امام الشغيلة من طريق الى الاشتراكية غير دكتاتورية البروليتاريا .

دكتاتورية البروليتاريا ديمقراطية من طراز عالي

ان الايديولوجيين البورجوازيين واصحابهم الاصلاحيين يمتدحون بلا حدود « الديمقراطية الشاملة » ؛ « الديمقراطية للجميع » التي

---

(٢) لينين ـ ماركس ـ انجلز ـ الماركسية . ص٦٠٤ ـ ٦٠٥ . الطبعة العربية .

توجد في العالم الراسمالي . ويعارضون بهذه الديمقـراطية البورجوازية « الصرفة » دكتاتورية البروليتاريـا بوصفها سلطة بيروقراطية لا ديمقراطية ـ كما يزعمون .

ولدى التدقيق يظهر كل شيء على العكس من هذا الذي يقولون . فقد سبق ان راينا ان الديمقراطية البورجوازية التي يسبغون عليها المديح ليست سوى ستارا يختفي وراءه عنف المستثمرين الشامل ، وواقع حرمان الشغيلة مـن الحقوق . ان مهمة الديمقـراطية البورجوازيـة هي ادامة النظـام الراسمالي واستغلال ملايـين الشغيلة مـن قبل اقلية تافهة من المالكـين .

ان الدولـة البروليتاريـة هي وحدها الديمقـراطية الحقيقية . ان دكتاتورية البروليتاريا هي من حيث النوع **طراز عالي من الديمقراطية ،** جديد . وكما اشار لينين . انها ديمقراطية للغالبية الساحقة من الشعب وتستثني من الديمقراطية المستغلين والمضطهدين .

ان طراز الديمقراطية الجديد نوعيا في ديكتاتورية البروليتاريا ينشأ من جوهرها ذاته ، ومن اهدافهـا ومهماتهـا التي تضعها لنفسهـا . ان البروليتاريـا تستطيع ان تحطـم مواقع الطبقات المستثمرة وان تحتفظ بالسلطة ، وتبني الاشتراكية وتؤمن الحيـاة السعيـدة للشعب عن هـذا الطريق وذلك فقط بتحالفها المتين مع جميع الشغيلة والقوى الديمقراطية وبدعم مر الجماهير الشعبية الواسعة . ولهذا فان تحالف الطبقة العاملة وفئات انصاف البروليـتاريا فـي المدينة والقريـة ، وخصوصا **جماهير الفلاحين** يمثل الاساس ، **المبدأ الاساسي** لدكتاتورية البروليتاريا . انـه يعبـر بأكمل شكـل وبصورة شـاملة عن الديمقـراطية الحقيقية للدولـة البروليتارية .

ان تحالف الطبقة العاملة وجماهير الشغيلة في المدينة والقرية يقوم على اسـاس اشتراك مصالحهما الحيويـة : السيـاسية والاقتصـادية ، ومطامحهما المشتركة لمحو الاستغلال وبناء الاشتراكية . ان الاشتراكية فقط هي القادرة على تخليص العمال من عبودية الاجر الراسمالية ، وعلى تخليص الفلاحين وسـائر فئـات الشغيلة غير البروليتارية من الخـراب والبؤس . وفي النضال العام ضد المستغلين ، من اجل نظـام جديـد اشتراكي ، ينشأ ويتطور تحالف الطبقة العاملة مع جميع الشغيلة والقوى الديمقراطية ، الذي هو اساس قوة دكتاتورية البروليتاريا التي لا تغلب .

كتب لينين ، غير ان البروليتاريا ليست بحاجة الى تحالف من اي نوع كان مع الفئات نصف البروليتاريا ، وانما الى تحالف يكون الدور القيادي فيه للطبقة العاملة . ان الفلاحين والبورجوازية الصغيرة في المدن ليسوا ثابتين ، وكثيرا ما يتذبذبون بين البروليتاريا والبورجوازية بسبب طبيعتهم المتناقضة . فهم شغيلة ، وفي الوقت نفسه ، مالكون صغار . ان الطبقة العاملة فقط ، الطبقة الاكثر ثورية وتنظيما بقيادة حزبها الماركسي ، قادرة على شل تذبذب انصاف البروليتاريين وعلى فصلهم عن البورجوازية وقيادتهم في طريق البناء الاشتراكي .

ومن الخصائص الهامة جدا للديمقراطية البروليتارية انها ليس فقط تعلن حقوق الشغيلة وانما تؤمن وضعها موضع التطبيق . فالشغيلة في ظروف دكتاتورية البروليتاريا يملكون ليس فقط صفوفا شكلية ، كما هو الحال في الدولة البورجوازية وانما يحكمون البلاد حقا ويقودون بشكل مباشر اما بانفسهم او عن طريق ممثليهم حياة البلاد الاقتصادية والسياسية والثقافية بكاملها .

ان الدولة البروليتارية تضمن استخدام الحقوق الديمقراطية بتأمين القاعدة المادية اللازمة لذلك . فالشغيلة يملكون جميع وسائل الانتاج ، التي تعطيهم امكانية ادارة حياة البلاد الاقتصادية وتحقيق حقهم في العمل . اذ تقع تحت تصرفهم المدارس ومؤسسات التعليم ، والمعاهد العلمية والثقافية والمصحات وبيوت الراحة التي تعطيهم امكانية تحقيق حقهم في التعليم والراحة . ولتحقيق حرية الكلام والصحافة وحرية التنظيم توضع تحت تصرف الشغيلة المطابع والورق ومحطات الراديو واحسن المباني و .. الخ .

ان الشغيلة يساهمون بنشاط في حياة البلاد السياسية والبناء الحكومي وذلك عن طريق المساهمة الواسعة في السوفييتات او في الاجهزة الحكومية الاخرى وعن طريق اللجان والهيئات المؤلفة في هذه الاجهزة وعن طريق منظماتهم الاجتماعية . وبكلمة : فان الديمقراطية البروليتارية ــ كما قال لينين ــ هي اكثر ديمقراطية بمليون مرة عن اية ديمقراطية بورجوازية .

الاشكال المختلفة لدكتاتورية البروليتاريا

ان الانتقال من الراسمالية الى الاشتراكية يمكن ان يتم فقط عن طريق دكتاتورية البروليتاريا. ولكن اذا كان من الضروري ان تكون دكتاتورية البروليتاريا محتوى المرحلة الانتقالية فانها يمكن ان تأخذ اشكالا مختلفة .

قال لينين : « ان كل الامم ستصل الى الاشتراكية حتما . غير انها سوف لن تصل بصورة واحدة تماما ، فكل منها سيجلب ما هو خاص به ، بهذا الشكل او ذاك من الديمقراطية ، بهذا النوع او ذاك من دكتاتورية البروليتاريا ، بهذه الوتيرة ، او تلك من التحولات لجوانب الحياة الاجتماعية المختلفة » (١) .

ان اشكال دكتاتورية البروليتاريا تتعلق بالظروف التاريخية ـ الملموسة في هذا البلد او ذاك ، اي بمستوى تطوره الاقتصادي ، بوضع القوى الطبقية وحدة الصراع الطبقي وبتقاليد الشعب الوطنية والتاريخية والظروف السياسية الخارجية .

ان التطبيق الثوري للطبقة العاملة الروسية الثوريةاوجدهذا الشكلمن دكتاتورية البروليتاريا : **سوفييتات مندوبي العمال والفلاحين والجنود** التي قامت في بلادنا عام ١٩١٧ . ووجد في بلدان الديمقراطية الشعبية في اوروبا وآسيا شكل آخر لدكتاتورية البروليتاريا هو **الديمقراطية الشعبية** .

بماذا يختلف شكل الديمقراطية الشعبية لدكتاتورية البروليتاريا عن السوفييتات ؟

اولا ، ان ما يميز الديمقراطية الشعبية هو نظام تعدد الاحزاب . فالديمقراطية الشعبية تسمح بوجود العديد من الاحزاب التي تساند البناء الاشتراكي وتعترف بالدور القيادي للحزب الشيوعي . ففي الصين مثلا توجد الى جانب الحزب الشيوعي الصيني لجنة الكومنتانغ الثورية (حزب البورجوازية الصغيرة في المدن وجزء من البورجوازية الوطنية) ، والعصبة الديمقراطية (حزب الفئات المثقفة من البورجوازية الصغيرة) وحزب العمال والفلاحين الديمقراطي وغيرها . كما يوجد نظام تعدد الاحزاب في بلغاريا وجمهورية المانيا الديمقراطية وبولونيا وتشيكووسلوفاكيا . وقد اقيم نظام الحزب الواحد في السلطة السوفييتية نظرا لان احزاب البورجوازية الصغيرة في روسيا ، من امثال الاشتراكيين الثوريين اليساريين ، رفضت التعاون مع البلاشفة وانتقلت الى معسكر اعداء الثورة المكشوفين .

ثانيا ، توجد في الديمقراطية الشعبية جبهة شعبية (وطنية) ـ وهي تنظيم جماهيري يوحد مختلف فئات الشعب بهدف بناء الاشتراكية . ان الجبهة الشعبية هي شكل تنظيمي خاص لتحالف الطبقة العاملة والفلاحين والمثقفين وكذلك البورجوازية الصغيرة وجزء من البورجوازية المتوسطة ، حيث الدور القيادي للطبقة العاملة وحزبها . ولا يوجد مثل هذا التنظيم

(١) لينين ـ المؤلفات ـ ج٢٣ ص٥٨ .

السياسي في الاتحاد السوفييتي ولم يوجد .

ثالثا ، لقد استفادت الديمقراطية الشعبية في البلدان الاوروبية من الاشكال والتقاليد البرلمانية الموجودة هناك في الكفاح ضد الراسمالية ومن اجل الاشتراكية . اما في روسيا ذات الحكم المطلق فلم تكن البرلمانية قد تطورت بعد ولم تنشأ تقاليد برلمانية عريقة .

ان الديمقراطية الشعبية ، كشكل من اشكال دكتاتورية البروليتاريا تعكس خصائص تطور الثورة الاشتراكية في ظروف ضعف الاستعمار وتبدل ميزان القوى على الصعيد العالمي لصالح الاشتراكية . كما تظهر فيها ايضا الخصائص التاريخية والوطنية للبلدان التي سارت في طريق التطور الاشتراكي .

لقداعطى التاريخ حتى الان شكلين لدكتاتورية البروليتاريا ـ السوفييتات والديمقراطية الشعبية . غير انه ليس من المستبعد امكان ولادة اشكال اخرى لدكتاتورية البروليتاريا . غير انه في هذه الحالة ايضا يظل دور الطبقة العاملة وحزبها الماركسي القيادي امرا لازما لزوما مطلقا . يقول لينين : « ان الانتقال من الراسمالية الى الاشتراكية لا يمكن ، طبعا ، الا ان يعطي وفرة هائلة من مختلف الاشكال السياسية ، غير ان الجوهر سيظل مع هذا وبشكل حتمي واحدا وهو دكتاتورية البروليتاريا » (١) .

الدور القيادي للحزب الماركسي في نظام دكتاتورية البروليتاريا

ان الحزب الماركسي بوصفه فصيلة طليعية واعية ، منظمة من الطبقة العاملة كان القوة القيادية التي ادت الى قلب سلطة البورجوازية السياسية واقامة دكتاتورية البروليتاريا . ان انتزاع السلطة عمل صعب . ولكن الاصعب منه هو الاحتفاظ بها والانتصار انتصارا تاما على البورجوازية المزاحة عن السلطة . ومن الصعب تماما (اصعب بآلاف المرات كما قال لينين) ان يجري التغلب على عادات الملكية الخاصة لدى ملايين الفلاحين وسائر ذوي الملكية الصغيرة ، وفصلهم عن البورجوازية وتحويلهم الى بناة واعين للاشتراكية . ان الطبقة العاملة ، فقط عن طريق التحلي بروح تنظيمية ذات صرامة وانضباط شديدين ، وفقط عندما تكون واثقة من صحة الطريق الذي اختارته تستطيع ان تحل هذه المهام الصعبة صعوبة بالغة وان تبني الاشتراكية والشيوعية . **وان الحزب الماركسي** فقط يستطيع ان ينظم الطبقة العاملة ويشيع فيها انضباطا

(١) لينين ـ المؤلفات ـ ج٢٥ ص٣٨٥ .

حديديا وان يثقفها ويحميها من نفوذ فوضى البورجوازية الصغيرة وان يوجه نشاطها السياسي ويؤثر عن طريقها على جميع الشغيلة . وكما قال لينين ان بناء الاشتراكية بنجاح لا يمكن التفكير به « دون حزب حديدي وتمرس في النضال ، حزب يتمتع بثقة جميع الشرفاء من طبقته ، حزب باستطاعته ان يرقب مزاج الجماهير وان يؤثر فيه » (٢) .

ان الحزب الماركسي اللينيني يصبح بعد انتصار الثورة الاشتراكية حزب الطبقة الحاكمة . وهذا ما يضع على عاتقه مسؤولية خاصة ويتعاظم دوره بوصفه قائد الطبقة العاملة ، مرات عديدة . ان الحزب اذ يستفيد من معرفة القوانين الموضوعية للتطور الاجتماعي ويعمم تجربة الجماهير الشعبية الثورية ، ويستند الى هذه التجربة ويقود كامل عمل الدولة البروليتارية الاقتصادي والسياسي والفكري ، انه يعد خطا سياسيا عاما في جميع ميادين الحياة في البلاد ويقوم بعمل تنظيمي لتحويل هذا الخط الى واقع حي .

وتتعاظم في ديكتاتورية البروليتاريا الى حد لم يسبق له مثيل اهمية وحدة صفوف الحزب . ان الحزب يكون قادرا على تحقيق دوره القيادي في المجتمع وصيانة وترسيخ سلطة الطبقة العاملة وتنظيم بناء الاشتراكية والشيوعية ، فقط عندما يظهر اعضاؤه وحدة في الارادة والعمل . ان الصرامة تجاه المتكتلين والانشقاقيين الذين يسعون الى تقويض وحدة الحزب هي ما يميز نشاط الحزب الشيوعي في الاتحاد السوفياتي ، وكذلك الاحزاب الشيوعية والعمالية في البلدان الاخرى التي تسير في طريق التطور الاشتراكي .

ان التحريفيين ينكرون دور الحزب القيادي في نظام دكتاتورية البروليتاريا اذ يزعمون بأن قيادته تؤدي الى « اندماج الجهازين الحزبي والحكومي » والى خرق المبادىء الديمقراطية . انهم يريدون ابعاد الحزب عن قيادة حياة المجتمع الاقتصادية والسياسية . ويقولون أن الحزب ينبغي ان يكون منظمة ثقافية تعليمية و « عامل لتطوير الوعي الاشتراكي » وليس « عاملا للسلطة » . ويعارضون الحزب الماركسي بالنقابات وغيرها من المنظمات الاجتماعية .

ان الحزب يحقق دوره القيادي عن طريق الاجهزة الحكومية والمنظمات الاجتماعية المتعددة ـ النقابات ، التعاونيات ومختلف منظمات الشباب والرياضة والابداع الاخرى . ويوحد الحزب جهود هذه المنظمات ويوجهها

---

(٢) لينين ـ مرض « اليسارية » الطفولي في الشيوعية ـ ص٣٦ ـ الطبعة العربية .

نحو هدف واحد مشترك . دون ان يتخطى بهذا الاجهزة الحكومية وغيرها وانما يطور مبادرتها بجميع الوسائل ويسعى الى تحقيق ديمقراطية أكبر في عملها . ويرتبط الحزب ، بواسطة منظومة المنظمات الحكومية والاجتماعية ، بملايين الشغيلة يعلمها ويثقفها ويتعلم منها . ويحل الحزب، في مرحلة دكتاتورية البروليتاريا سوية مع الشعب ومع الدولة البروليتارية التي يتمثل فيها الشعب على نطاق واسع ، جميع مسائل البناء الاشتراكي الهامة .

ان الحزب الماركسي يهتم ، باستمرار ، بتوطيد الدولة البروليتارية وبتطوير الديمقراطية ويجذب الى حكم البلاد عناصر جديدة وجديدة من الشغيلة . وان الصلات الواسعة التي سبق للحزب ان كونها مع الشعب في مرحلة النضال ضد الراسمالية . تتحول في مرحلةدكتاتوريةالبروليتاريا الى **وحدة متراصة بين الحزب والشعب** . وفي هذا تكمن قوة الحزب الماركسي وضمانة قضيته العظمى .

٤ . الدولة السوفياتية الاشتراكية - اداة بناء الاشتراكية والشيوعية .

شرحنا في القسم السابق الخصائص العامة لديكتاتورية البروليتاريا بوصفها دولة من طراز جديد ، إشتراكي . واشرنا الى ان مهمتها البالغة الاهمية هي تنظيم بناء الاشتراكية . ومن الضروري ان نقف الان عند مسألة كيف تحل الدولة الاشتراكية في الواقع هذه المهمة العظيمة . وسنعرض هذا محللين دور الدولة السوفياتية الاشتراكية في بناء الاشتراكية والشيوعية .

وظائف الدولة الاشتراكية في المرحلة الانتقالية من الرأسمالية الى الاشتراكية

لقد مرت الدول السوفياتية في تطورها بمرحلتين اساسيتين . وان المهمات المتنوعة والمعقدة التي حلتها في ميدان السياسة الداخلية والخارجية تتميز ، خلال هاتين المرحلتين ، **بوظائف** تطابق الاتجاهات الرئيسية ، الاساسية لنشاط الدولة . وهذه الوظائف تتبدل تبعا لتبدل القاعدة الاقتصادية ، وتوازن القوى الطبقية في البلاد ووضعها الدولي .

تضم المرحلة الاولى من تطور الدولة السوفياتية الفترة الممتدة من احراز السلطة من قبل البروليتاريا (تشرين الاول - اكتوبر - ١٩١٧) حتى تصفية الطبقات المستغلة وانتصار الاشتراكية ، اي المرحلة الانتقالية من

الراسمالية الى الاشتراكية .

وتتميز هذه المرحلة بوجود عدة قطاعات في الاقتصاد ، وبنضال البروليتاريا الطبقي الحاد ضد البورجوازية . فقد واجهت الطبقة العاملة حينذاك مهمة خطيرة هي مهمة سحق مقاومة البورجوازية وبناء الاشتراكية بالتعاون مع الشغيلة كلها . وقد تحددت وظائف الدولة الاشتراكية طبقا لهذه المهمة .

ومن المهام الخطيرة التي تقرر نشاط الدولة البروليتارية في **داخل البلاد** ، خلال المرحلة الانتقالية ، هي **وظيفة قمع الطبقات المستغلة** . وكما عرفنا فان قمع الطبقات المستغلة أمر الزامي لكل شكل من اشكال الدولة البروليتارية . ولكن هذا القمع يمكن إن يتم بأشكال مختلفة تبعا للظروف. ففي الاتحاد السوفياتي استخدم السلاح كوسيلة لقمع الطبقات المستغلة ، بالاضافة الى الوسائل السياسية (الحرمان من الحقوق الانتخابية) والاقتصادية (مصادرة الاموال وزيادة الضرائب وغيرها) نظرا لان الطبقات المستغلة رفعت السلاح ضد السلطة الشعبية .

والوظيفة الثانية من وظائف الدولة السوفياتية ، البالغة الاهمية في المرحلة الانتقالية هي **الوظيفة الاقتصادية - التنظيميه** ، اي نشاط الدولة لاقامة الاقتصاد الاشتراكي وقيادة حياة البلاد اقتصادية بكاملها . ان مهمة الدول البروليتارية في تنفيذ هذه الوظيفة هي ان تؤمن الانتصار الاقتصادي للاشتراكية على الراسمالية ، وان تحقق تنظيما اجتماعيا للعمل اعلى مما هو في الراسمالية . ان الدولة البروليتارية ، بعد ان أممت وسائل الانتاج الاساسية اخذت في ايديها ، منذ الاشهر الاولى ، مفاتيح الاقتصاد ونظمت قيادة مبرمجة علمية راسخة للاقتصاد . وتحت قيادة الحزبانجزت الدولة التصنيع الاشتراكي في البلاد واشاعة التعاونية في الزراعة ، وزادت رفاه الشعب المادي عن طريق تطوير الانتاج واتقانه باستمرار . ومع نجاحات الاشتراكية اكتسبت الوظيفة الاقتصادية التنظيمية مدى اكبر فأكبر ، وبانتصار الاشتراكية شملت ، حرفيا ، جميع فروع الاقتصاد الوطني .

غير ان بناء الاشتراكية لا يقتصر على انشاء الاقتصاد الاشتراكي فقط . ولا يمكن التفكير به دون رفع وعي وثقافة الشعب بشكل منظم ، وبدون التغلب على بقايا الراسمالية في وعيه . ولذا فمن الطبيعي تماما ان تكون تربية الشغيلة تربية شيوعية ورفع مستواها التعليمي العاموالمهني والثقافي، احدى اهم مهام الدولة الاشتراكية . ان حل هذه المهمة ضروري الى درجة كبيرة ، وذلك لان المستغلين ابقوا الشغيلة قرونا عديدة في العبودية الفكرية وقمعوا بكل الطرق طموحها الى الثقافةوالمعرفة . انالدولة

السوفياتية انجزت في البلاد ثورة ثقافية كانت حلقة هامة في الثورة الاشتراكية . **ان نشاط الدولة في تنظيم البناء الثقافي وتربية الشغيلة** هو تعبير عن **وظيفتها الثقافية التربوية .**

ويتميز نشاط الدولة الاشتراكية في ميدان **السياسة الخارجية بوظيفة النضال من اجل السلم** بين الشعوب ، **وبوظيفة الدفاع عن البلاد** ضد العدوان الاستعماري الخارجي . ان مرسوم السلام كان اول مرسوم أصدرته السلطةالسوفياتية . غير انالجواب على طموحالدولة البروليتارية المخلص للسلم كان التدخل المسلح من قبل مجموعة الضواري الاستعماريين الذين حاولوا ان يرجعوا سيطرة المستغلين في بلادنا بقوة إلسلاح . غير ان الشعب الشغيل الذي اخذ السلاح بيديه حطم اعداء الثورة والمتدخلين وشرع بالبناء الاشتراكي السلمي .

ان الدولة الاشتراكية اذ تناضل بدات من أجل السلم تهتم بتقوية دفاع البلاد وتعزز قواتها المسلحة .

وظائف الدولة اشتراكية في مرحلة الانتقال من الاشتراكية الى الشيوعية

ان المرحلة الثانية في تطور الدولة الاشتراكية تضم فترة الانتقال التدريجي من الاشتراكية الى الشيوعية . لقد حدثت تغيرات جذرية في حياة البلاد الاقتصادية من جراء بناء الاشتراكية . فقدتمت تصفية وجود عدة قطاعات في الاقتصاد ، ، وتوطدت القاعدة الاشتراكية ، واساسها الملكية الاجتماعية . في جميع فروع الاقتصاد الوطني .

إن التغيرات في القاعدة الاقتصادية سببت تغيرات في البناء الفوقي الاشتراكي .

ان الدولة تتخذ اجراءات قسرية تجاه من يخرق الشرعية الاشتراكية . وتهتم باستمرار ، في الوقت نفسه ، بحماية حقوق وحريات الشعبوالقوانين الاشتراكية . وتظهر الدولةاهتماما خاصا بحماية الاساس الاقتصادي للاشتراكية — الملكية الاشتراكية ، التي يشكل توطيدها وتطويرها ، بشكل شامل، شرطا ملزما للنجاح في بناء الشيوعية. **ان حماية الملكية الاشتراكية ، وكذلك حماية حقوق وحريات المواطنين السوفيات والقوانين الاشتراكية** هي وظائف هامة للدولة الاشتراكية. ان هذه الوظائف التي ولدت منذ المرحلة الاولى من وجود الدولة الاشتراكية، تطورت ، ببناء الاشتراكية ، تطورا عاما .

وبانتصار الاشتراكية في الاتحاد السوفياتي تطورت وظائف الدولة الاشتراكية الرئيسية مع جميع النواحي : الاقتصادية ـ التنظيمية والثقافية ـ التربوية .

لقد اصبحت الوظيفة الاقتصادية ـ التنظيمية اكثر تعقيدا وتنوعا نظرا لتطور الاقتصاد تطورا عاصفا . فبينما كان نشاط الدولة في مرحلة الانتقال من الرأسمالية الى الاشتراكية موجها نحو احراز الانتصار الاقتصادي للقوى الاشتراكية على قوى الرأسمالية في البلاد نفسها ، صار هدف الدولة بعد بناء الاشتراكية هو خلق القاعدة المادية ـ التكنيكية للشيوعية وتغيير العلاقات الاشتراكية الى شيوعية وزيادة رفاه الشعب المادي بصورة مطردة وتعزيز دور الدولة في تحقيق الرقابة على مقاييس العمل والاستهلاك.

وطرات ببناء الاشتراكية ، تغيرات كبيرة على **الوظيفة الثقافية ـ التربوية** للدولة السوفياتية ، لان الانتقال الى الشيوعية سيتم بشكل اسرع كلما كان وعي الشعب ومستواه الثقافي اعلى . ان تربية الانسان الجديد ، المتخلص من شوائب الماضي ، وخلق الشغيل الواعي المثقف ثقافة واسعة ، الذي يعتبر العمل لخير الوطن ليس واجبا وانما حاجة حيوية اولى وقضية الحياة نفسها ـ هذه هي احدى المهام الخطيرة في مرحلة بناء الشيوعية .

وفي مرحلة الانتقال التدريبي من الاشتراكية الى الشيوعية تتطور الى مدى ابعد **وظائف السياسة الخارجية** للدولة السوفياتية المرتبطة بالتغيرات الجدية للغاية التي حدثت في الوضع العالمي . لقد قام النظام الاشتراكي العالمي بعد الحرب العالمية الثانية ونشأت بين بلدان هذا النظام علاقات دولية لا سابق لها في التاريخ ، علاقات صداقة ومساعدة اخوية متبادلة . **ان تعزيز وتطوير علاقات التعاون الاخوي مع البلدان الاشتراكية** ـ تلك هي الوظيفة الجديدة للدولة السوفياتية التي انبثقت بعد قيام النظام الاشتراكي العالمي .

والى جانب هذه الوظيفة بقيت وتطورت **وظائف النضال من اجل السلم بين الشعوب ، والعلاقات الاعتيادية مع جميع البلدان** .

والى جانب هذا فانها تعزز ـ بكل الوسائل ـ دفاع البلاد . وما دام هناك استعمار يخفي خطر حروب عدوانية فان بلاد الاشتراكية لا يمكن ان تأمن خطر عدوان خارجي. ان اهم وظائف الدولة الاشتراكية هي الدفاع عن الوطن الاشتراكي **وتامين دفاع وامن البلاد وتوطيد قدرة القوات السوفياتية المسلحة** . والى جانب

هذا فان الاتحاد السوفياتي يرى من واجبه الاممي ان يؤمن ، سوية مع البلدان الاشتراكية الاخرى ـ دفاع وامن النظام الاشتراكي بأكمله .

وبتطور وظائف الدولة الاشتراكية ، الداخليةوالخارجية ، ارتفعنشاط الشعب الخلاق اكثر فاكثر وانجذب ملايين الشغيلة الى القيادة المباشرة للبناء الاقتصادي والثقافي والنضال النشيط من اجل السلموأمنالشعوب.

تعاظم دور الحزب
في مرحلة البناء
الواسع للشيوعية

ان الحزب الشيوعي الذي اسسه لينين العظيم اجتاز خلال سنواته الستين طريق نضال بطولي وانتصارات مجيدة . فلقد قاد الطبقة العاملة والفلاحين الكادحين في بلادنا الى انتصار ثورة اوكتوبر العظمى واقامة دكتاتورية البروليتاريا وضمن انتصار الاشتراكيةانتصارا تاماونهائيا .

ان المجتمع الشيوعي ، خلافا للتشكيلات الاجتماعية - الاقتصادية السابقة لا يتكون بصورة عفوية ، وانما نتيجة النشاط الواعي الهادف للجماهير الشعبية التي يقودها الحزب الماركسي . وان الحزب يقود ويعطي النضال من اجل الشيوعية طابعا منظما ، منهاجيا ، علميا . ويوصل الحزب ، عن طريقمجموعةالمنظمات الحكومية والاجتماعية ، فكرة النضال من اجل الشيوعية الى وعيالجماهير على شكل مهمات محددة ملموسة ويوجه جهود كل الجماعات والناس السوفيات بأجمعهم نحو تحقيقها بنجاح . ان الحزب يمعن ، بنظر ثاقب ، في المستقبل ويدل الشعب على طريق التقدم الى امام ويستثيرلدىالجماهير الشعبية طاقات خلاقة هائلة . ويسترشد الحزبالشيوعي في كاملنشاطه بتعاليم الماركسية اللينينية القهارة وبالبرنامج المعد على اساسها . وقد حدد برنامج الحزب المهمات الاساسية لمرحلة بناء المجتمع الشيوعي .
ومما جاء في البرنامج قوله : « تتصف مرحلة بناء الشيوعية على نطاق واسع باطراد **تعاظم دور الحزب الشيوعي واهميته** بوصفه القوة القائدة والموجهة للمجتمع السوفياتي .. وينشأ تعاظم دور الحزب في حياةالمجتمع السوفياتي في المرحلة الجديدة من تطوره عن :
- اتساع نطاق وخطورة مهام البناء الشيوعي التي تتطلب قيادة سياسية وتنظيمية في مستوى ارقى .

ـ نهوض نشاط الجماهير الخلاق واشتراك ملايين جديدة من الشغيلة في ادارة شؤون الدولة والانتاج .

ـ تعاظم اهمية نظرية الشيوعية العلمية وتطويرها الخلاق ونشرها ، وضرورة تقوية تربية الشغيلة تربية شيوعية ، والنضال من اجل التغلب على بقايا الماضي في ادراك الناس » (١) .

ان المرحلة الجديدة في تطور المجتمع السوفياتي تتطلب مرحلة جديدة اعلى في تطور الحزب وعمله السياسي والايديولوجي والتنظيمي . فالحزب سيحسن باطراد اشكال وطرائق عمله لكي يكون مستوى قيادته للجماهير الشعبية ولانشاء القاعدة المادية والتكنيكية للشيوعية ولتطوير حياة المجتمع السوفياتي الروحية متجاوبا مع تنامي متطلبات مرحلة بناء الشيوعية .

ان سلاح الحزب التنظيمي الموثوق في النضال من اجل ظفر الشيوعية هو نظامه الداخلي

لقد اشترط النظام الداخلي متطلبات اعلى بالنسبة لعضو الحزب فطالب ان يكون مثالا في الموقف الشيوعي تجاه العمل ، مثالا للمبدئية العالية والصرامة تجاه النواقص ، تجاه الطمع والطفيلية وان يكون مثالا للشهامة واللطف في معاملة الناس والاخلاص لحزب والشعب .

ورفع اكثر فأكثر دور الحزب الشيوعي في الاتحاد السوفياتي كملهم ومنظم بناء الشيوعية .

ان الشرط الضروري للنضال الناجم من اجل الشيوعية هو التوسع المطرد لصلات الحزب بجماهير الشغيلة الواسعة وتعميقها . ان الحزب يعتبر واجبه المقدس ان يستشير الشعب على الدوام بشأن اهم قضايا السياسة الداخلية والخارجية ، وان يجذب جماهير الشغيلة اللاحزبية ـ على نطاق واسع للمشاركة في عمله .

ان تطور الدولة الاشتراكية ، واتساع وظائف المنظمات الاجتماعية وتطور الديمقراطية الاشتراكية ، يتطلب عملا اكثر عمقا وشمولا ، من جانب الحزب ، بين الشغيلة وتقوية نفوذه باستمرار بين الجماهير .

ان نشاط الحزب الشيوعي في الاتحاد السوفياتي ، القيادي ، الموجه وعمله التنظيمي والتربوي عامل هام جدا لانتصار الشيوعية .

---

(١) برنامج الحزب الشيوعي في الاتحاد السوفياتي ص ١٦٧ ـ ١٦٨ . المطبعة العربية.

٥ • اضمحلال الدولة •

عرفنا فيما سبق الدور الهائل الذي تلعبه الدولة الاشتراكية في بناء الاشتراكية والشيوعية .

ولكن التحريفيين المعاصرين يحاولون ان يعارضوا النظرية الماركسية اللينينية عن الدولةوينكرون دورها القيادي في البناء الاشتراكي والشيوعي. فالتحريفيون يقولون مثلا ان للدولة دورا معينا في بداية المرحلة الانتقالية من الراسمالية إلى الاشتراكية فقط ، حيث لم تحل بعد مسألة « لمن الغلبة ؟ » ولكن ما دامت سلطة البروليتاريا قد تعززت وحلت مسألة « لمن الغلبة ؟ » لصالح الاشتراكية فان الدولة تبدأ بالاضمحلال .

وينظر التحريفيون الى مسألة اضمحلال الدولة بوصفها مسألة رئيسية . حاسمة في تطور المجتمع الاشتراكي ، فقد سجل برنامج رابطة الشيوعيين اليوغوسلافيين ، مثلا ، بانه بعد توطد سلطة الطبقة العاملة والشغيلة فان مسألة اضمحلال الدولة التدريجي تصبح المسألة الرئيسية الحاسمة .

يقول التحريفيون ان القيادة الحكومية الحياة الاقتصادية والثقافية في المجتمع الاشتراكي غير مسموح بها لانها تؤدي الى انتهاك الديمقراطية والى البيروقراطية والى رفع الجهاز الحكومي فوق المجتمع. ان التحريفيين يجعلون من دكتاتورية البروليتاريا والعنف شيئا واحدا ويقولون ان دكتاتورية البروليتاريا لا تنسجم مع الديمقراطية ؛ ولهذا فلتسقط الديكتاتورية !

ان التحريفيين يشوهون، من الاساس ، جوهر دكتاتورية البروليتاريا ويقصرونها على جانب واحد هو العنف . وهم لا يريدون ان يروا ان المهمة الرئيسية لدكتاتورية البروليتاريا هي تنظيم المجتمع الاشتراكي وتربية الجماهير الشعبية وجذبها الى بناء الاشتراكية . ان مثل هذه المهام الضخمة لا يمكن ان تحلها سوى دولة ديمقراطية حقيقية . اي دولة مثل دكتاتورية البروليتاريا .

ان الدولة الاشتراكية – كما رأينا – تجابه في مرحلة بناء الشيوعية مهمات اعقد . ان الشيوعية هي حصيلة الابداع الواعي للشعب ولعمله البطولي وتفانيه في النضال . ولكن من الضروري ان توحد جهود الشعب الخلاقة وان تنظم وتوجه نحو تحقيق الهدف المشترك . ان الدولة الاشتراكية التي يقودها الحزب الشيوعي هي القوة التي تنظم بناء المجتمع الجديد . ومن هنا تنشأ ضرورة وجود الدولة الاشتراكية خلال مرحلة بناء الشيوعية بكاملها وضرورة تطويرها المستمر وترقيتها .

غير ان تعزيز وتطوير الدولة الاشتراكية لا يعني مطلقا بانهـا ستظل موجودة الى الابد. وكما جاء في برنامج الحزب الشيوعي في الاتحاد السوفيتي: « **ان تطور الدول الاشتراكية سيفضي شيئا فشيئا الى تحولها الى ادارة ذاتية شيوعية** تضم السوفيانات والنقابات والتعاونيات وسائر **منظمات** الشغيلة الجماهيرية » (١) .

من المعروف ان وظائف الادارة الاجتماعية المماثلة للوظائف التي تقوم بها الدولة لان في ادارة الاقتصاد والثقافة ستبقى قائمة كذلك في الشيوعية. واكثر من هذا فانها ستتطور وتتحسن وفقا لتطور المجتمع . غير ان طابع وطرائق تنفيذها ستكون غير ما هي عليه في الاشتراكية . وكلما اقتربنا من الشيوعية فان اجهزة الادارة الحكومية ستفقد ، تدريجيا ، طابعها السياسي الطبقي ، وباندماجها بالمجتمع ، اخيرا ، تصبح اجهزة ادارة ذاتية اجتماعية، يقود **جميع اعضاء المجتمع** . عن طريقها ، الحياة الاقتصادية والثقافية . وسوف لن يكون هناك وجود للدولة .

ان اضمحلال الدولة عملية تدريجية طويلـة وتشمل عصرا تاريخيا بكامله . ففي مجرى مرحلة معينة ستظل ملامح **القيـادة الحكومية والادارة** الذاتية موجودة وتتشابك فيما بينها ، وعندما **ينضج المجتمع تماما** للادارة الذاتية ، اي في الشيوعية المتطورة ، فان الحاجة الى الدولة تزول. قال لينين : « لا يمكن للدولة ان تضمحل تماما الا عندما يطبق المجتمع قاعدة « من كل حسب طاقته ولكل حسب حاجته » اي عندما يعتاد الناس تماما على مراعاة القواعد الاساسية للحياة في المجتمع ، وعنـدما يصبح عملهم منتجا لدرجة تجعلهم يعملون طوعا **حسب طاقتهم** » (١) .

ان بناء المجتمع الشيوعي هو **الشرط الداخلي** لاضمحلال الدولـة . غير انه لاضمحلال الدولة تماما لا بد من **شرط خارجي** ايضـا هو انتصـار وتوطد الاشتراكية على الصعيد العالمي. وعندما نتحدث عن اضمحلال الدولة ينبغي بالضرورة ان نحسب الحساب للوضع العـالمي . فاذا مـا انتصرت الشيوعية في هذا البلد او ذاك او في هذه المجموعة من البلدان او تلك ولكن يوجد في العالم ضواري استعماريون مسلحون ، ففي هذه الحالة لا بد من

---

(١) برنامج الحزب الشيوعي في الاتحاد السوفياتي ص ١٣٥ ـ الطبعة العربية .

(١) لينين : الدولة والثورة ص ١١٠ . الطبعة العربية .

الابقاء على وظيفة الدولة للدفاع عن البلاد في المجتمع الشيوعي . ان هذه الوظيفة لا يمكن ان تزول الا عندما يزول نهائيا خطر الهجوم من جانب القوى الاستعمارية الرجعية .

وهكذا تتحول الادارة الحكومية ، تدريجيا ، في ظل بناء الشيوعية الى ادارة ذاتية اجتماعية حيث ترتبط هذه القضية بصورة وثيقة بتحسين عمل الجهاز الحكومي وبتوسيع الديمقراطية الاشتراكية باستمرار وترقيتها.

الفصل السابع عشر

الثـورة الاجتمـاعية

عرفنا في الفصل السابق ما هي الدولة ، وكيف ظهرت ، وما هي انواع الدول المعروفة في تاريخ الانسانية. والان تواجهنا مسائل : ما هي الاسباب التي تؤدي الى تراجع نوع ما من الدولة امام اخرى ؟ وكيف ؟ ولماذا تتبدل النظم الاجتماعية ؟ ولما تخلف احدى الطبقات المسيطرة الاخرى ؟ ان الجواب على هذه الاسئلة تعطينا اياه النظرية الماركسية اللينينية عن الثورة الاجتماعية.

١ . الثورة الاجتماعية ـ قانون تطور المجتمع الطبقي المتناحر .

جوهر الثورة الاجتماعية ـ اسبابها واهميتها

ان **الثورة الاجتماعية** هي الانقلاب الاكبر في حياة المجتمع السياسية والاقتصادية والايديولوجية . وتتبدل ، نتيجة الثورة الاجتماعية ، الطبقات المسيطرة وانواع الدول وتصفى علاقات انتاجية قديمة وتترسخ علاقات انتاجية جديدة، وتتبدل، من الاساس ، الافكار والمؤسسات الاجتماعية .

ان الثورة الاجتماعية ليست ظاهرة عفوية، وانما هي ظاهرة **طبيعية** ، **قانونية** ، ناشئة عن تطور ظروف حياة المجتمع المادية في مراحل معينة من تطوره ، وعن التناقضات الداخلية الملازمة لـه . كتب ماركس في مقدمة كتابه « نقد الاقتصاد السياسي » مشيرا الى سبب الثورة الاجتماعية، بان القوى المنتجة في درجة معينة من التطور الاجتماعي تدخل في تناقض مع علاقات الانتاج التي تطورت في اطارها حتى تلك اللحظة . ان علاقات الانتاج الشائخة تتحول من اشكال لتطور القوى المنتجة الى قيود لها . وعندئذ ، بالضبط ، يحل عصر ثورة اجتماعية .

وهكذا **فان التصادم بين القوى المنتجة الجديدة وعلاقات**

الانتــاج القديمة هو الاســاس الاقتصــادي الموضوعي للثورة الاجتماعية.

وكما سبق وبينا فان علاقات الانتاج لا يمكن ان تتخلف كثيرا عن تطورالقوى المنتجة ، وذلك انها يجب ان تتطابق معها عاجلا ام آجلا ، وان هذا التطابق يتم الوصول اليه بالتأكيد عن طريق الثورة الاجتماعية .

ان التصادم في الانتاج يجد تعبيره دائما في التصــادم بين المصــالح الطبقية . فمصالح الطبقة الرجعية التي تحمل علاقات الانتــاج القديمــة تعارضها الطبقة التقدمية حاملة علاقات الانتاج الجديدة . وهكــذا ينشــأ صراع لا يقبل المهادنة بين الطبقة الرجعية والطبقة التقدمية الذي تكون الثورة الاجتماعية مظهره الاعلى ونهايته .

ان الطبقــة القديمة الرجعية لاتتخلى ابدا عن سيطرتها طوعــا . انهــا تستخدم جميع قوى السلطة الحكومية للمحافظة علــى عــلاقات الانتــاج القديمة ، ولذا فلأجل ازالة علاقات الانتاج القديمة وتثبيت الجديدة لا بد من طبقة تقدمية تستولي على السلطة السياسية . وينشأ عن هذا ان انتصار او عدم انتصار علاقات الانتاج الجديدة يتوقف في النهاية على سلطة الدولة. **وهكذا فان مسالة سلطة الدولة هي المسالة الاساسية في كل ثورة .**

وللثورات الاجتماعية اهمية كبيرة في حياة المجتمع . ولا يمكن تصفية النظام الاجتماعي الرجعي واقامة نظام جديد تقدمي الا عن طريق تحــولات جذرية ثورية . وعن طريق الثورات الاجتماعية تحل التناقضات الاقتصادية والطبقية التي نضجت خلال مراحل طويلة من التطور السابق في المجتمع. وبواسطة الثورات فقط تزال العقبات عــن طــريق التقــدم الاقتصــادي والسياسي والثقافي : علاقات الانتاج التي فات زمانها والطبقات القــديمة الرجعية التي تحمل هذه العلاقات . وخلال الثورات الاجتمــاعية تتفجــر الطاقات الخلاقة للجماهير الشعبية الواسعة وتدخل ميدان الحياة الاجتماعية الفعالة ملايين جديدة من الشغيلة ، الامر الذي يسرع الى حد كبير عمليــة التطور الاجتماعي . وليس عبثا ان سمى ماركس الثورات قاطرات التاريخ.

الوضع الثوري ودور العامل الذاتي في الثوورة

ان الثورات لا تصنع « بناء على طلب » ، ولا وفقا لاهواء ورغبات احد ما . فمن اجل ان تحدث ثورة لا بد من شروط تاريخيــة محددة ومقدمات موضوعية وذاتية .

ان الشروط الذاتية والموضوعية الضرورية للثورة تسمى **الوضع الثوري.**

ان سمات الوضع الثوري ، كما حددها لينين هي التالية :

١ ــ عدم قدرة الطبقات الحاكمة علــى ان تعيش وتحكــم بالطريقــة

القديمة ـ اي ما يسمى بالازمة في « الاعلى » ـ من جهة ، وتذمر الطبقات المضطهدة التي لا تريد العيش بالطريقة القديمة ـ اي الازمة في «الاسفل» ـ من جهة اخرى . كتب لينين يقول : « ان الثورة غير ممكنة دون ازمة وطنية عامة (تمس المستغِلين والمستغَلين) » (١) .

٢ ـ تفاقم الحرمان والبؤس بين الطبقات المضطهَدة الى اقصى حد.

٣ ـ اشتداد فعالية الجماهير الشعبية بدرجة كبيرة. فاذا ما تمسكت الجماهير في الاوقات العادية بهدوء نسبي ؛ فان ظروف الازمة تدفعها نحو فعاليات ثورية مستقلة .

غير انه ليس كل وضع ثوري يؤدي الى ثورة . فقد كان يوجد في سنوات ١٨٥٩ ـ ١٨٦١ في روسيا وضع ثوري ولكنه لم يؤد الى ثورة . ان الوضع الثوري ، اي نضوج العامل الموضوعي يخلق فقط امكانية معينة لثورة ناجحة . ولكن من اجل ان تتحول الى واقع ، لا بد من نضوج **العامل الذاتي** ايضا ؛ اي استعداد وقدرة الطبقة الثورية على الاعمال الثورية الجماهيرية . القوية الى درجة تستطيع معها ان تحطم (او ان تضعف) الحكومة القديمة التي لا « تسقط » مطلقا ما لم « يجر قلبها » كما اشار لينين . ان الثورة الاشتراكية الظافرة ممكنة فقط عندما تتوفر طبقة عاملة منظمة وواعية وعندما يقف الى جانبها حلفاء امناء ، وعندما يقود الثورة حزب ماركسي مجرب ، ومتمرس في الكفاح .

طابع الثورة وقواها المحركة

تختلف الثورات الاجتماعية من حيث الطابع والقوى المحركة ويتعلق **طابع** الثورة بما يلي : ما هي الطبقة التي جاءت للسلطة ؟ وما هي علاقات الانتاج التي ترسخت نتيجة لذلك ؟ فالثورة التي استبدلت فيها سيطرة الاقطاعيين بسيطرة البورجوازية ورسخت ـ تبعا لذلك ـ علاقات الانتاج الرأسمالية محل علاقات الانتاج الاقطاعية ؛ هي في طابعها ثورة بورجوازية .

والقوى المحركة للثورة هي الطبقات الاجتماعية التي تقوم بالثورة وشن النضال ضد الطبقات الرجعية من اجل انتصار علاقات الانتاج الجديدة . وان احدى الطبقات التي تقوم بالثورة هي زعيمها ، قائدها وتقود وراءها جميع الطبقات والفئات الاجتماعية الاخرى المشاركة في الثورة .

من هي القوى المحركة للثورة ؟ ومن هي الطبقة التي تتزعمها ؟ ان هذا يعود الى طابع الثورة والظروف التاريخية التي تتم فيها الثورة على حد

---

(١) لينين ـ المؤلفات ج ٢١ ص ٧٢ .

سواء . ففي الثورات البورجوازية في الغرب خلال مرحلة صعود الراسمالية (من القرن السابع عشر حتى النصف الاول من القرن التاسع عشر) كانت القوى المحركة للثورة هي الفلاحين والحرفيين، اما زعيمها فكان البورجوازية التي قادت وراءها جميع المناضلين الاخرين ضد الاقطاعية .

إن الثورات البورجوازية في عصر الاستعمار غالبا ما تكتسب طابعا ديمقراطيا واضحا (مثلا ثورة ١٩٠٥ — ١٩٠٧ وثورة شباط ١٩١٧ في روسيا) فقد ساهمت فيها اوسع فئات الشعب ، التي رفعت مطاليبها وانتهجت خطا مستقلا واظهرت تأثيرا هائلا على مجرى الثورة . اما فيما يتعلق بالبورجوازية الاستعمارية فانها شاركت في هاتين الثورتين كطبقة رجعية . انها تخاف من انتصار الثورة الكامل ، تخاف من الديمقراطية الواسعة . نظرا لانه كلما كانت الحرية اتم كلما كانت ظروف نضال الطبقة العاملة ضد سيطرتها اكثر ملاءمة . ان البورجوازية الاحتكارية ، كما اشار لينين ، تسعى لانهاء الثورة في منتصف الطريق دون السير بها حتى النهاية، ان تنتهي بصفقة مع الملاكين الكبار ، مع السلطة القديمة . وبسبب من هذا فانها كفت، عن ان تكون زعيما للثورة ، بل وحتى عن كونها قوة محركة للثورة. ان القوة المحركة للثورات البورجوازية في عصر الاستعمار هي البروليتاريا والفلاحين وبزعامة البروليتاريا .

٢ . الثـورة الاشتراكيـة .

ان البروليتاريا من اجل ان تتخلص من الاستغلال والاضطهاد القومي، من البطالة والبؤس فانها يجب ان تحطم النظام الراسمالي وان تقيم المجتمع الاشتراكي. **والوسيلة الوحيدة للوصول الى هذا الهدف هي الثورة الاشتراكية .**

جوهر الثورة الاشتراكية تختلف الثورة الاشتراكية جذريا عن جميع الثورات الاجتماعية السابقة . فما هي هذه الاختلافات ؟

اولا : ان جميع الثورات السابقة لم تستهدف، مطلقا، محو الاستغلال. انها غيرت اشكاله فقط . اما الثورة الاشتراكية فانها **تمحو الى الابد كل استغلال** ، وتفتح عصر اقامة المجتمع اللاطبقي .

ثانيا : ان الثورات السابقة لم تحل مهمة خلق اقتصاد جديد ، فقد قامت فقط بتسيير السلطة السياسية وفقا للعلاقات الاقتصادية الجديدة التي كانت قد ظهرت في رحم المجتمع القديم. في حين ان من مهمات الثورة

الاشتراكية الرئيسية **خلق اقتصاد جديد** ـ اقتصادية الاشتراكية الذي لا يظهر في رحم الراسمالية .

ثالثا : لم يحدث في اي ثورة ان تميزت بمثل **فعالية الجماهير الشعبية** الكبيرة التي تتميز بها الثورة الاشتراكية .

ان البروليتاريا في الثورة الاشتراكية توحد حولها ، بقوة ، الفئات الواسعة من الشغيلة والقوى الديمقراطية للنضال ضد الراسمالية ومن اجل الاشتراكية .

ان القوة الحاسمة في الثورة الاشتراكية هي الطبقة العاملة . وإنها بزعامة الحزب الماركسي ، وبوصفها الطبقة الاكثر تقدمية والاكثر ثورية تقود جميع الشغيلة الذين يناضلون ضد المجتمع الراسمالي القديم . انها تنظم الهجوم على الراسمالية في ظروف سيطرة الراسمالية السياسية وتقسيم سلطتها الخاصة . وبعد احراز السلطة السياسية تستمر الطبقة العاملة في قيادة جميع الشغيلة وراءها في طريق الاشتراكية .

ان المسألة الاساسية في الثورة الاشتراكية هي **هي مسالة احراز البروليتاريا السلطة السياسية** واطراد تطورها وتعزيزها . وكما سبق وقلنا ، فان الطبقة العاملة تستطيع ان تنفذ مهمتها ـ في تحطيم الراسمالية وبناء مجتمع جديد ـ فقط بعد أن تقيم دولتها البروليتارية الخاصة. ذلك لان تصفية ماكنة الدولة البورجوازية وبناء دولة جديدة بروليتارية هي اهم مهمة بالنسبة للثورة الاشتراكية .

حتمية الثورة الاشتراكية في عصر الاستعمار

لقد كان الاصلاحيون دوما من معارضي الثورة الاشتراكية . وفي عصرنا حيث اصبح انتقال البشرية من الراسمالية الى الاشتراكية المحتوى الرئيسي لسير التاريخ فانهم يحاولون بداب خاص ان يدحضوا النظرية الماركسية ـ اللينينية عن الثورة الإشتراكية. ويحاول الاصلاحيون في سعيهم للحيلولة دون هذه العملية الطبيعية بكل ثمن ان يحافظوا على العلاقات الراسمالية ويحرفوا الطبقة العاملة عن النضال الثوري . فهم يحاولون البرهنة على انه في الظروف المعاصرة انتفت ضرورة الثورة الاشتراكية وظهرت امكانية تحول ارتقائي ، اصلاحي من الراسمالية الى الاشتراكية . وإن الراسمالية المعاصرة بالنسبة لهم لم تعد تلك الراسمالية التي كتب عنها ماركس في « الراسمال » ، وانها اصبحت « راسمالية شعبية » ومجتمعاً بدون مستغِلين ومستغَلين . وتغيرت ايضا الدولة البورجوازية حيث فقدت طابعها الطبقي واصبحت دولة «الازدهار الشامل»

القادرة على تحقيق الاشتراكية وذلك بقيامها باصلاح بعد اخر في اطار النظام السياسي القائم .

ويؤيد التحريفيون المعاصرون آراء الاصلاحيين التي تنكر ضرورة الثورة الاشتراكية . وكدليل رئيسي يشهد على تحول الراسمالية المعاصرة الى اشتراكية يشير التحريفيون الى نمو الراسمال الاحتكاري للدولة في العديد من البلدان الرأسمالية . ان برنامج رابطة الشيوعيين اليوغوسلاف يزعم بان الموجة المتصاعدة من ميول راسمالية الدولة في العالم الراسمالي كانت تأكيدا واضحا جدا بان البشرية قد دخلت عصر الاشتراكية .

وعلى هذا فان التحريفيين لا تخطر ببالهم فكرة تصفية الملكية الخاصة ـ اساس اسس الراسمالية . ولا يريدون ان يروا بان راسمالية الدولة الاحتكارية ليس فقط لم تنغ الملكية وانما ركزتها في ايدي الدولة الراسمالية. وينكرون الدور القيادي للبروليتاريا في الثورة وضرورة الدولة البروليتارية.

وكما سبق وقلنا فانه لا توجد ، في ظل الاستعمار ، ولا يمكن ان توجد اية «راسمالية شعبية» ، راسمالية بدون مستغلين، ولا اية دولة «للازدهار الشامل» . ان الاستعمار يتصف برجعية متطرفة : اشتداد استغلال الطبقة العاملة وهجوم فظ ضد مستوى معيشة الشغيلة وحقوقهم الديمقراطية وسباق تسلح وتحضير لحرب عالمية جديدة . وان كل هذا يعمق حتما التناحر بين الطبقة العاملة والبورجوازية . وان تعمق هذا التناحر ينعكس في تفاقم الصراع الطبقي واشتداد حركة جماهير الشغيلة الواسعة ضد الاستعمار ومن اجل رفع مستوى حياتها ، من اجل السلم والديمقراطية. وان هذا النضال يؤدي ، بحتمية قانونية ، الى الثورة الاشتراكية الظافرة وابادة الراسمالية وانتصار الاشتراكية .

ان الثورة الاشتراكية حتمية في عصر الاستعمار. والثورة البروليتارية وحدها قادرة على تجنب العوائق التي تعترض طريق تطور القوى المنتجة في العصر الراهن وطريق التطور الانساني وهي علاقات الانتاج الراسمالية، وهي بهذا بالضبط تقوم بتنفيذ واجب ملح يفرضه التطور التاريخي. ورغم ان الاستعمار لا يزال قويا ورغم انه لا يزال قادرا على رشوة المراتب العليا من الطبقة العاملة من الارباح التي يحصل عليها ، ورغم ان الايديولوجيين البورجوازيين واعوانهم التحريفيين يستطيعون حتى الان ان يضللوا قسما معينا من الشغيلة ، فان ايام الراسمالية اصبحت معدودة .

نظرية لينين عن الثورة الاشتراكية

ان مؤسسي الماركسية ماركس وانجلز برهنا على حتمية فناء الراسمالية وانتصار الاشتراكية وبعد

ان كشفا التناحر بين البورجوازية والبروليتاريا توصلا الى استنتاج مفاده ان تعمق هـذا التنـاحر سيؤدي الـى الثـورة الاشتراكيـة .

غير ان ماركس وانجلز عاشا في عصر الرأسماليـة الصاعدة عندمـا كانت الراسمالية تتطور بشكل متساوي الى هذا الحد او ذاك . وانطلاقـا من هذا قالا ان الثورة البروليتارية يمكن ان تنتصر في آن واحد في جميع البلدان المتقدمة او اكثريتها . ذلك ان محاولات اقامة الاشتراكية في بلـد واحد على انفراد في تلك الظروف سيجري سحقها بجهود موحدة من قبل الراسماليين في البلدان الاخرى .

وفي نهاية القرن التاسع عشر وبداية القرن العشرين عندمـا تحولت الراسمالية في مرحلتها العليا الى استعمار ، تبدلت في الوقت نفسه شروط الثورة الاشتراكية . وقد صاغ لينين نظرية جديدة عن الثورة تنسجم مع عصر الاستعمار .

فمنذ كتب لينين كتابه « خطتان للاشتراكية الديمقر طية في الثـورة الديمقراطية » صاغ المسالة الهامة **عن تحول الثورة البورجوازية الديمقراطية الى ثورة اشتراكية** . واذ حلل خصائص حركة الطبقة العاملة الثـورية في الظروف التاريخية الجديدة ، وقبل كل شيء خصائص ثورة ١٩٠٥ـ١٩٠٧ في روسيـا ، توصل الى استنتـاج يقـول ان زعيم الثـورة البورجوازية الديمقراطية في مرحلة الاستعمار يمكن ويجب ان يكون البروليتاريا ، التي هي ذات مصلحة مباشرة في السير بها حتى النهاية . وفي مجرى الثـورة تنجز البروليتاريا التحولات الديمقراطية . ومن ثم ــ كما اشار لينـين ــ تنتقل البروليتاريا فورا من الثورة الديمقراطية الى الثورة الاشتراكية .

ان اهم حلقة في نظرية لينين عن الثورة هي اكتشـافه العبقري بان **من الممكن انتصار الثورة الاشتراكية ، اول الامر ، في بلد واحد على انفراد .** ولدعم هذا الاكتشاف انطلق لينين من حقيقة ان تطور البلدان الراسماليـة في مرحلة الاستعمار يتم بشكل متفاوت وبقفزات . فالاقطار التي كـانت سابقا متأخرة تصل البلدان المتقدمة من الناحية الاقتصادية وتتجاوزها . لقد خرق توازن القوى وظهرت الصدامات والحروب من اجل اعادة تقسيم العالم . وضعفت نتيجة لهذا مواقع الرأسمالية العالمية وظهرت امكانية قطع سلسلة الاستعمار في اضعف حلقاتها . كتب لينين يقول : « ان الراسمالية تتطور في مختلف البلدان بصورة غير متساوية الى اقصى حد . ولا يمكن ان يكون الامر غير ذلك في ظل نظام الانتاج البضاعي . ولذا كان هذا الاستنتاج يفرض نفسه فرضا . وهو ان الاشتراكية لا يمكـن ان تنتصر في **جميع**

البلدان في آن واحد . فهي ستنتصر اولا في بلد واحد او في عدة بلدان بينما تظل البلدان الاخرى لفترة من الزمن بلدانا بورجوازية او ما قبل بورجوازية » (١) .

ان نظرية لينين عن الثورة الاشتراكية لها اهمية عملية هائلة . إنها تطلق المبادرة الثورية للشغيلة وتسلح الطبقة العاملة في كل بلد بالثقة بانتصار قضيتها العظمى وبحتمية فناء الراسمالية وظفر الاشتراكية والشيوعية .

تشكيل النظام الاشتراكي العالمي

استرشادا بنظرية لينين عن الثورة الاشتراكية حطمت الطبقة العاملة الروسية ، بالتحالف مع الفلاحين الكادحين وبقيادة الحزب البولشفي ، حطمت سيطرة الملاكين الكبار والراسماليين واخذت السلطة السياسية بيدها . ودخل يوم ٢٥ تشرين الاول (اوكتوبر) ١٩١٧ في التاريخ بوصفه بداية عصر جديد في تطور الانسانية ـ عصر فناء الراسمالية وانتصار المجتمع الاشتراكي الجديد . وفي هذا اليوم التاريخي قال لينين : « بدات اليوم مرحلة تاريخية جديدة في روسيا . وان الثورة الروسية الثالثة الحالية يجب ان تؤدي ـ في النهاية ـ الى انتصار الاشتراكية » (٢) .

ان الكلمات النبوئية التي قالها لينين في اليوم الاول من ايام السلطة السوفياتية قد تحققت . فلقد انتصرت الاشتراكية في بلادنا انتصارا تاما ونهائيا .

ولقد اعطت ثورة اوكتوبر الاشتراكية العظمى دفعا قويا جدا للحركة الثوريةالعالمية وادت الى اطراد تفككالنظام الراسمالي وتعمق ازمةالراسمالية العامة . لقد وضعت بداية الانتقال من **الراسمالية الى الاشتراكية** .

وبعد الحرب العالمية الثانية انفصل عن النظام الراسمالي العديد من بلدان وسط اوروبا وجنوبها الشرقي وفي آسيا . ان الراسمالية اليوم لم تعد النظام الاقتصادي ـ الاجتماعي العالمي الوحيد . اذ يوجد اليوم في العالم نظامان : نظام الراسمالية الهرم الذي فات زمانه ونظام الاشتراكية الفتي النامي .

جاء في برنامج الحزب الشيوعي في اتحاد السوفياتي ان النظام الاشتراكي العالمي يمثل « اسرة اجتماعية واقتصادية وسياسية بين شعوب

---

(١) لينين : ماركس ـ انجلز ـ الماركسية . الطبعة العربية ص ٤٨٧ ـ ٤٨٨ .

(٢) لينين : المؤلفات ج ٢٦ ص ٢٨ .

حرة سيدة تسير في طريق الاشتراكية والشيوعية وتوحدها وحدة المصالح والاهداف وعرى التضامن الاشتراكي العالمي الوثيقة » (١) .

وان دول هذا النظام تحتل مساحة هائلة من اراضي اوروبا وآسيا ، وتمثل ما يزيد على ربع مساحة الكرة الارضية . ويعيش على هذه الارض إكثر من مليار انسان (اكثر من ثلث سكان الارض) . وان القدرة الاقتصادية للبلدان الاشتراكية كبيرة حيث تنتج اكثر من ثلث المنتوج الصناعي العالمي وحوالي ٥٠ ٪ من محاصيل الحبووب في العالم .

ان نظام الاشتراكية العالمي هو نوع جديد من العلاقات الاقتصادية والسياسية بين البلدان . ان هذه العلاقات مؤسسة على الوحدة الراسخة لمصالحها الاقتصادية والسياسية وعلى ايديولوجيتها الماركسية اللينينية الواحدة .

ان الاساس الاقتصادي للنظام الاشتراكي هو الملكية الاجتماعية لوسائل الانتاج . واساسه السياسي سلطة الطبقة العاملة . وتخدم الماركسية اللينينية كأساس ايديولوجي له . وان هدف جميع البلدان الاشتراكية واحد وهو بناء الاشتراكية والشيوعية .

ان المساواة التامة في الحقوق بين الدول الكبير والصغيرة وعدم التدخل من قبل احداها في الشؤون الداخلية للاخرى ، واحترام السيادة الوطنية ووحدة الاقليم والمساعدة الاقتصادية الاخوية المتبادلة ، والتعاون الوثيق في ميادين الاقتصاد والسياسة والثقافة — هذه هي المبادىء الاساسية للعلاقات بين البلدان الاشتراكية . ان تاريخ الانسانية لا يعرف حتى الان علاقات مماثلة ؛ هذه العلاقات التي انعكست في الاممية البروليتارية بأسمى صورة . ان هذه العلاقات بالذات هي الضمانة لقوة النظام الاشتراكي العالمي التي لا تقهر وجبروته .

ا ناشكال التعاضد والمساعدة المتبادلة بين البلدان الاشتراكية كثيرة التنوع . ففي ميدان الاقتصاد تنعكس في

توسيع التجارة الشاملة ذات النفع المتبادل وفي تقديم القروض وتبادل المعلومات العلمية والتكنيكية . وفي الميدان السياسي تتجسد في النضال المشترك ضد الرجعية الاستعمارية ، من اجل السلم والاشتراكية والتقدم الاجتماعي .

ويتسع التعاون في المجال الثقافي باستمرار بين البلدان الاشتراكية ويشمل ميادين شتى وينتج عنه اغناء متبادل للثقافات الوطنية يزداد على

---

(١) برنامج الحزب الشيوعي في الاتحاد السوفياتي ص ٢٥ — الطبعة العربية .

الـدوام .

لقد دخل النظام الاشتراكي العالمي الان مرحلة جديدة من تطـوره . فالاتحاد السوفياتي يبني الشيوعية على نطاق واسع . والبلدانالاشتراكية الاخرى تضع اسس الاشتراكية وبعضها دخلمرحلة بناء المجتمع الاشتراكي المتطـور .

ان الانتصارات الحاسمة للاشتراكية على نطـاق النظـام الاشتراكي كله ، وتراص دول هذا النظام في معسكر كفاحي موحد ، وتوطد وحـدته باستمرار وتنامي قوته المتواصل تجعل من غير الممكن اعـادة الراسمـالية ليس فقط في الاتحاد السوفياتي وانما في البلدان الاشتراكية ايضا. وهذا ما يؤمن الانتصار التام للاشتراكية والشيوعية في اطار مجموع النظـام الاشتراكي .

انالبلدان الاشتراكية اذ تستخدم قوانينوافضليات النظام الاشتراكي وتستند الى منجزاتها الاقتصادية والثقافية ، تطور بثبات وبشكل منهاجي اقتصادها وثقافتها .

وتختصر مدد بناء الاشتراكية .

ان الشرط اللازم لاطراد نجاحات البلدان الاشتراكية هو توطيد وحدة النظام الاشتراكي العالمي على اساس مبادىء الاممية البروليتارية . ان هذه الوحدة لا تنسجم مع مظاهر التعصب القومي والانعزال القومي التي تضر المصالح المشتركة للاسرة الاشتراكية وتضر قبل كل شيء تلك البلاد التـي تظهر فيها . ان الانفصال عن المعسكر الاشتراكي يعيق تطور هذه البـلاد ويحرمها من امكانية الاستفادة من افضليات النظام الاشتراكي العالمي.

ان التوطيد المطرد لوحدة المعسكر الاشتراكي وتعاظم قوته وقـدرته الدفاعية تبقى احدى اهم المهام التي تواجه شعوب جميع بلـدان النظـام الاشتراكي العالمي .

٤ . الانتقال من الرأسمالية الى الاشتراكية ـ المحتوى الاساسي لعصرنا .

تحول النظام الاشتراكي العالمي الى عامل حاسم في التطور العالمي

ان التاريخ شهد اكثر من مرة صداما بين النظم الاجتماعية وكان هذا النضال ينتهي في اخر الامر بانتصار النظام الاكثر تقدمية . ولا يمكن ان يكون هناك شك في ان النضال الدائر في ايامنا بين النظامين المتعارضين ـ الاشتراكية والراسمالية سينتهي بالنصر الكامل للنظام الاشتراكي . ان هذا الاقتناع يرتكز الى التحليل العلمي لقوانين التطور الاجتماعي والى وقائع الحياة نفسها . افلا تظهر قوة الاشتراكية وحيويتها وقائع ذات اهمية تاريخية عالمية كانتصار ثورة اوكتوبر واقامة

الاشتراكية في الاتحاد السوفياتي وظهور وتطور النظام الاشتراكي العالمي، وفي الوقت نفسه فان دخول الراسمالية في مرحلة جديدة من ازمتها العامة، وانهيار نظام السيطرة الاستعمارية تدل بصورة مقنعة على ان ايام الراسمالية اصبحت معدودة وان فناءها محتم .

ان عالم الاشتراكية يتسع في حين ان عالم الراسمالية يتقلص. **ان الاشتراكية ستحل محل الراسمالية في كل مكان** . ان انتقال البشرية من الراسمالية الى الاشتراكية هو المحتوى الاساسي لعصرنا . جاء في برنامج الحزب الشيوعي في الاتحاد السوفياتي « ان العهد الراهن ومضمونه الاساسي الانتقال من الراسمالية الى الاشتراكية هو عصر نضال بين النظامين الاجتماعيين المتضادين ، عهد الثورات الاشتراكية والثورات الوطنية التحررية ، عهد انهيار الاستعمار وتصفية نظام المستعمرات ، عهد انتقال شعوب جديدة وجديدة الى طريق الاشتراكية ، عهد انتصار الاشتراكية والشيوعية على نطاق العالم كنه . وفي مركز العهد الراهن تقف الطبقة العاملة العالمية ووليدها الرئيسي نظام الاشتراكية العالمي » (١) .

لقد ولى ، الى غير رجعة ، زمن سيطرة الراسمالية سيطرة مطلقة . واليوم فان المحتوى الرئيسي والاتجاه الرئيسي والخصائص الرئيسية لتطور الانسانية يحددها النظام الاشتراكي العالمي والقوى المناضلة ضد الاستعمار التي تشن النضال ضد الاستعمار ، ومن اجل الاشتراكية والتقدم الاجتماعي . وكل جهد يبذله الاستعماريون لايقاف حركة التاريخ الى امام عبث لا طائل وراءه . وتوجد الآن اسس متينة لانتصارات حاسمة مقبلة للاشتراكية .

ان جبروت قوى الاشتراكية

(١) برنامج الحزب الشيوعي في الاتحاد السوفياتي ص ٧ ــ ٨ . الطبعة العربية .

والسلم في عصرنا يمكن ليس فقط من فضح دسائس الاستعماريين الرجعية فحسب وانما من احباطها ايضا .

ان اهمية النظام الاشتراكي العالمي الكبيرة في التاريخ المعاصر تظهر ايضا في انه يؤثر تأثيرا متعاظما وشاملا على نضال الشعوب في الاقطار غير الاشتراكية . فالنظام الاشتراكي ، بقوة مثاله يبث الروح الثورية في شغيلة البلدان الراسمالية ويلهمهم للنضال ضد الراسمالية ، من اجل السلم والتقدم الوطني وانتصار الديمقراطية وظفر الاشتراكية . ان الشعوب التي تنهض للثورة الآن تملك امكانية الاستناد الى دعم النظام الاشتراكي في نضالها ضد تصدير الثورة المعادية من جانب الرجعية العالمية . وان بامكانها ان تحصل ، وهي تحصل فعلا ، على مساعدة ودعم شاملين من البلدان الاشتراكية في بناء المجتمع الجديد ايضا .

ان البلدان الاشتراكية هي اشد معارضي الكولونيالية حزما واشد انصار المساواة والاستقلال الوطني . لقد قدم الاتحاد السوفييتي في ايلول من عام ١٩٦٠ بيانا للبحث في هيئة الامم المتحدة ، اعلن فيه الرغبة التاريخية في ان توضع – الى الابد – نهاية النظام الكولونيالي – الظاهرة المخجلة – في تاريخ البشرية .

ان النظام الاشتراكي العالمي اذ يعارض السيطرة الكولونيالية ويدعم بجميع الوسائل نضال الشعوب من اجل الاستقلال فانه يشكل عاملا جبارا لانهاض حركة التحرر الوطني ولانهيار نظام السيطرة الاستعمارية الذي اقامه الاستعمار .

وبالتالي فان وجود وتطور النظام الاشتراكي يخلق **الظروف العالمية** الاكثر ملاءمة لاتساع الحركة الثورية العالمية .

وان **الظروف الداخلية** اليوم اكثر ملاءمة لانتقال اقطار جديدة وجديدة الى الاشتراكية الامر الذي يرتبط بتعمق الازمة العامة للراسمالية وتفاقم جميع التناقضات الملازمة لها .

تعمق ازمة الراسمالية العامة

في الوقت الذي ينعم فيه عالم الاشتراكية الجديد بالقوة والنشاط والرسوخ ، ويتطور ويتوطد ، تلف النظام الراسمالي عملية انحطاط وتفسخ عميقة . لقد دخل في مرحلة جديدة ثالثة من ازمته العامة ، التي تشمل جميع نواحي المجتمع البورجوازي على الاطلاق : الاقتصاد ، السياسة الداخلية والخارجية ، والايديولوجيا .

خلال **المرحلة الاولى** من الازمة العامة ، التي وضعت بدايتها ثورة

آكتوبر الاشتراكية العظمى ظهر اول بلد اشتراكي ، الاتحاد السوفييتي . وبهذا وضعت حدا لسيطرة الراسمالية المطلقة على الارض .

وخلال **المرحلة الثانية** ونتيجة انتصار الثورات الاشتراكية في العديد من بلدان اوروبا وآسيا خرجت الاشتراكية من اطار بلد واحد منفرد وتحولت الى نظام عالمي . وفي هذا الشأن يحتل اهمية خاصة انتصار الثورة في الصين الكثيرة الملايين .

ان اهم خاصية **للمرحلة الثالثة** الجديدة للازمة العامة للراسمالية هو التغير الجذري الذي حصل في تناسب القوى على الصعيد الدولي لصالح النظام الاشتراكي العالمي . وتنفصل عن الراسمالية دول جديدة وجديدة . اما القوى التي تناضل من اجل الاشتراكية والتقدم الاجتماعي فانها تتعاظم اكثر فأكثر .
مع الاشتراكية تزداد ضعفا . وقد ادى النهوض الذي لا سابق له في حركة التحرر الوطني الى انهيار نظام الاستعمار الكولونيالي .

ان السمة المميزة للمرحلة الجديدة من الازمة العامة للراسمالية هي اشتداد عدم الاستقرار الداخلي وتفسخ الاقتصاد الرأسمالي . وان تطور الانتاج ببطء والاستمرار في عدم الاستفادة الكاملة من القدرات الانتاجية ، والازمات الاقتصادية التي تهز العالم الرأسمالي بصورة دورية هي ادلة واضحة على عجز الراسمالية المتعاظم عن ان تستفيد من القوى المنتجة الموجودة استفادة كاملة .

وبتطور راسمالية الدولة الاحتكارية وتقوية العسكرية تفاقمت جميع تناقضات الاستعمار . فقد اشتد الصراع بين العمل والراسمال ودخلت مصالح الامة في تناقض عميق مع المطامع الانانية لحفنة من الاحتكاريين الذين سيطروا على جهاز الدولة . وارتباطا بالتطور الاقتصادي والسياسي المتفاوت في البلدان الرأسمالية فان توازن القوى في النظام الرأسمالي يتبدل بسرعة وتتفاقم التناقضات بين الدول الراسماليه ذاتها ، وبين كتلها ، ويشتد صراع المزاحمة في السوق الراسمالية .

ان احدى سمات المرحلة الثالثة من الازمة العامة للراسمالية هي تعمق الازمة السياسية الداخلية للاستعمار الذي ينعكس في اشتداد الرجعية السياسية في جميع المجالات ، في التخلي عن الحريات البورجوازية واقامة نظم دكتاتورية فاشية في العديد من الاقطار ، وفي

فقدان الاستعمار لدوره الحاسم في القضايا الدولية .

وتعيش الايديولوجيا البورجوازية اليوم ازمة عميقة ايضا . ان التشاؤم والخوف من المستقبل والشكوكية وعدم الثقة بالعلم وبقوى الانسان الخلاقة وامكانياته ، وانكار التقدم والافتراء على الشيوعية . والدفاع عن نظام عبودية الاجر والاضطهاد الممقوت من قبل الشعوب - هذه هي الخصائص المميزة للايديولوجيا البورجوازية. ان الايديولوجيا البورجوازية لم تعد منذ زمن بعيد تستطيع ان ترفع مثلا قادرا على جذب الجماهير الواسعة . انها ايديولوجية طبقة تنزل عن مسرح التاريخ ولهذا فان افلاسها التام امر حتمي .

ان الصدام بين القوى المنتجة وعلاقات الانتاج في المجتمع الراسمالي قد تفاقم ، اليوم ، الى اقصى حد . لقد دخلت البشرية في عهد اعظم ثورة علمية تكنيكية ، بفضل السيطرة على الطاقة الذرية والفضاء الكوني ، وبفضل اتمتة الانتاج وسائر منجزات العلم والتكنيك الرائعة . غير ان علاقات الانتاج الراسمالية ضيقة جدا بالنسبة لهذه الثورة . ان الراسمالية ليس فقط تعيق تطور القوى المنتجة واستخدام منجزات العقل البشري لصالح التقدم الاجتماعي وانما توجهها ضد البشرية نفسها ايضا ، بتحويلها الى وسائل فظيعة لحرب مهلكة . ان هذاالتناقض العميق في اسلوب الانتاج الراسمالي يضع البشرية امام مهمة كسر السلاسل الضيقة للعلاقات الراسمالية ، لاطلاق القوىالمنتجة الجبارة التي خلقها الانسان ولاستخدامها لصالح المجتمع كله . وان الطريق الوحيد الى هذا هو الثورة الاشتراكية التي تستهدف استبدال علاقات الانتاج الراسمالية بأخرى جديدة ، اشتراكية .

وبالتالي فان الاشتراكية والثورة الاشتراكية هي ضرورة ملحة تنشأ عن جوهر الراسمالية المعاصرة ذاته . جاء في برنامج الحزب الشيوعي في الاتحاد السوفييتي : « ان النظام الراسمالي العالمي قد نضج ككل من اجل ثورة البروليتاريا الاجتماعية » (١) .

النضال في سبيل الديمقراطية - جزء لا يتجزأ من النضال في سبيل الاشتراكية

ان اتساع وتطور العالم الراسمالي سيكون في المستقبل ايضا عن طريق انفصال بلدان جديدة وجديدة عن العالم الراسمالي .

---

(١) برنامج الحزب الشيوعي في الاتحاد السوفييتي ص١٢ . الطبعة العربية .

والى جانب هذا فان التحولات الاشتراكية في مجرى الثورة تتشابك مع التحولات الديمقراطية المعادية للاستعمار . ان لينين عندما طور وبلور نظريته عن انتقال الثورة البورجوازية الديمقراطية الى ثورة اشتراكية اشار الى عدم وجود ثورات « نقية » في مرحلة الاستعمار ، ثورات لا ارتباط لها بالحركات الديمقراطية المعادية للاستعمار لمختلف الفئات الاجتماعية . وفي هذه الظروف فان البروليتاريا بوصفها المعبر الاكثر ثباتا عن مطامح الجماهير الشعبية المعادية للاستعمار ملزمة بأن تتراس الحركات الجماهيرية وان توحد الطبقات المساهمة فيها وان توجهها نحو اسقاط البورجوازية وظفر الاشتراكية .

وليس من المستبعد ان تمر الثورة في العديد من البلدان بمرحلتين مستقلتين نسبيا : ديمقراطية عامة واشتراكية . بهذه الصورة تطورت الثورات في الاتحاد السوفييتي والصين وسائر بلدان الديمقراطية الشعبية . ففي الاتحاد السوفييتي سبقت ثورة شباط البورجوازية الديمقراطية ثورة اكتوبر الاشتراكية العظمى . وفي العديد من بلدان الديمقراطية الشعبية مرت الثورة قبل ان تدخل في مرحلتها الاشتراكية بمرحلة ديمقراطية ، معادية للاستعمار ، ومن الممكن ان يمر تطور الثورة بطريق مشابه في بعض البلدان الاخرى حيث لا تزال تسيطر الرأسمالية .

الفصل الثامن عشر

الوعي الاجتماعي ودوره في تطور المجتمع

ان العلاقــات الاقتصادية ، المادية بين الناس هي اســاس التطور الاجتماعي . غير انه لا يكفي ابدا لفهم هذا التطور ان نتعرف على العوامل الاقتصادية . ذلك انه الى جانب نشاط الناس الانتاجي توجد في المجتمع حياة فكرية ايضا . وان الناس يسترشدون بأفكار سياسية واخلاقية معينة ولهــم نظريات علمية خاصة وآراء عن الفن و .. الخ . ان جميع هذه الافكار والآراء هي ، في منشئها واهميتها ، ذات طابع اجتماعي وتعود الى ميدان **الوعي الاجتماعي** .

وللوعي الاجتماعي اهمية كبيرة في التطور التاريخي . ولذا فمن اجل ان نكون صورة اكثر تكاملا يجب ان نبين ما هو الوعي الاجتماعي ، وما هو منشؤه وما هو دوره في حياة المجتمع .

١ . الوعي الاجتماعي ـ انعكاس الوجود الاجتماعي

جوهر الوعي الاجتماعي ومنشؤه — **ان الوعي الاجتماعي هو مجموع افكار ونظريات وآراء الناس التي تعكس وجودهم الاجتماعي .**

ونظرا لان الوجود الاجتماعي متعدد الاشكال فان الوعي اجتماعي بدوره متعدد الاشكال ومعقد ايضا . ان الافكار السياسية والحقوقية ، الاخلاق والفن ، مثلا ، تسعى للبرهنة على خلود مبادىء الملكية الخــاصة الرأسمالية والاستغلال . والبروليتاريا مدعوة للقضاء على الرأسمالية وبناء الاشتراكية والشيوعية ـ المجتمع الخالي من الاستغلال والطبقات . ولهــذا الغرض لا بد لها من ايديولوجيا اشتراكية من نوع جديد .

وهكذا ففي المجتمع المنقسم الى طبقات متعادية لا يمكن ان توجــد

ايديولوجيا موحدة . اذ توجد فيه حتما ايديولوجيا الطبقة المستغلة وكذلك ايديولوجيا الطبقة المستغلة . وتكون السيطرة عادة لايديولوجيا الطبقة المسيطرة اقتصاديا وسياسيا . ان الصراع الايديولوجي الحاد ، وهو شكل من اشكال الصراع الطبقي ، كما نعرف ، انما هو ملازم حتمي للمجتمع الطبقي المتناحر .

ونظرا لان الايديولوجيا هي ذات طابع طبقي دائما ، ينبثق سؤال ـ هل يمكن ان تكون حقيقية ؟ الا تشوه الواقع لفائدة المصالح الطبقية ؟ ان التحريفيين يقولون ان الايديولوجيا والحقيقة لا تنسجمان ، وان الحقيقة ضحية الايديولوجيا بسبب مصالح هذه الطبقة او تلك . اما الماركسية فانها على العكس من هذا تتطلب ان يكون الانطلاق ، تجاه الايديولوجيا ، على نحو تاريخي ـ ملموس ، وان يؤخذ بعين الاعتبار : مصالح أي طبقة تعكس هذه الايديولوجيا ـ تقدمية ام رجعية ؟ فما دامت طبقة ما تلعب دورا تقدميا في التطور الاجتماعي التاريخي ، وما دامت مصالح هذه الطبقة تتطابق مع تطور الواقع الموضوعي ، فان ايديولوجيتها تحتوي على الحقيقة . ولكن عندما تستنفذ الطبقة دورها التقدمي وتدخل مصالحها في تناقض مع السير الواقعي للتطور فان ايديولووجيتها تكف عن ان تكون حقيقية وتبدأ بتشويه الواقع لفائدة المصالح الطبقية .

لنأخذ مثلا الايديولوجيا البورجوازية . فعندما كانت البورجوازية تناضل ضد الاقطاعية عكست ايديولوجيتها للعالم بصورة صحيحة نسبيا . ولكن ما ان جاءت البرجوازية للسلطة واستنفذت امكانياتها التقدمية حتى تحولت الى عائق للتطور الاجتماعي . وفقدت الايديولوجيا البورجوازية قدرتها على ان تعكس الواقع بصورة صحيحة . كتب ماركس يقول : « لقد حلت مماحكات الكويتيين المأجورين محل الابحاث النزيهة وحل التبرير الخانع غير الشريف محل الابحاث العلمية غير المتميزة » (١) .

ان الايديولوجيا العلمية حتى النهاية والحقيقية هي الايديولوجيا الماركسية اللينينية ، ايديولوجيا الطبقة العاملة وجميع الشغيلة . ان المصالح الطبقية للطبقة العاملة تتطابق باستمرار مع السير الموضوعي للتاريخ . ولهذا السبب فان انسجام الايديولوجيا الماركسية اللينينية مع الحقيقة يظل مصونا في جميع مراحل تطورها .

الاستقلال النسبي في تطور الوعي كنا قد بينا بأن وجود الناس الاجتماعي ، إي نشاطهم المادي الانتاجي هو الذي يقرر وعيهم

(١) كارل ماركس : رأس المال ج١ ـ ١٩٥٥ ـ ص٤٦ .

الاجتماعي . غير ان للوعي استقلالا نسبيا في تطوره ايضا فبماذا يظهر هذا الاستقلال وكيف ؟

ان الاستقلال النسبي في تطور الوعي الاجتماعي يكمن في انه يمكن ان يتأخر عن تطور الوجود الاجتماعي او ان يسبق هذا التطور . وفي ان تطور الوعي له استمرارية عبر الاجيال ويظهر الاستقلال النسبي للوعي ايضا في انه ليس سلبيا في علاقته بالوجود وانما يؤثر عليه .

ان تأخر الوعي الاجتماعي عن الوجود الاجتماعي يفسر في ان وجود الناس هو الذي يتغير اولا وبعد هذا يتغير وعيهم . وان هذا التأخر ينشأ ايضا عن ان الافكار والآراء القديمة شديدة الرسوخ . وهذا ليس صدفة : فالطبقات المسيطرة تستخدم جميع الوسائل التي في حوزتها من اجل ان تطبع ايديولوجيتها في اذهان جميع اعضاء المجتمع . فالبورجوازية الاستعمارية المعاصرة مثلا تستخدم كل اجهزة التأثير الايديولوجي (الصحافة ، السينما ، الراديو ، التلفزيون و .. الخ) من اجل ان تسمم وعي الشغيلة وتجردها من سلاحها الايديولوجي . ونتيجة لهذا تظل بقايا الايديولوجية القديمة موجودة في وعي بعض الناس حتى بعد انتصار النظام الجديد .

ولكن وعي الناس يمكن ليس فقط ان يتأخر عن تطور الوجود الاجتماعي ، وانما ان يسبق هذا التطور في ظروف معينة . ان الشخصيات الفذة والعلماء اذ يحللون قوانين المجتمع ويكتشفون الاتجاهات العامة للتطور التاريخي ، يستطيعون ان يتنبأوا بالمستقبل ، اي ان يضعوا نظريات تسبق زمانهم بصورة ملحوظة ، ويدلون البشرية على طرق التطور لعشرات السنين في المستقبل . وهكذا ، مثلا توصل ماركس ، استنادا الى تحليل الواقع الراسمالي وبحث تناقضات تطوره الى استنتاج حول حقيقة الفناء المحتم للراسمالية واستبدالها بمجتمع جديد شيوعي . ان نظرية الشيوعية العلمية الماركسية هي نموذج رائع للتنبؤ بالاحداث التاريخية .

ان احد اهم مظاهر استقلال الوعي الاجتماعي النسبي هو الاستمرار في تطور الايديولوجيا . فالطبقة الجديدة اذ تصوغ ايديولوجيتها لا ترفض منجزات الفكر البشري في السابق وانما تتقبلها وتستخدمها لاغراضها ومهماتها .

ان الاستمرارية في تطور الافكار لها اهمية كبيرة في الحياة الاجتماعية . فالناس اذا ما حرموا من امكانية الاستفادة من منجزات الثقافة الروحية في الماضي فسيتوجب عليهم ان يبداوا كل شيء من جديد تماما : ان يكتشفوا القوانين التي اكتشفت منذ زمن بعيد ، وان يبحثوا عن

وسائل صنع المكائن والاجهزة الضرورية لهم، رغم ان هذه الوسائل معروفة منذ امد و .. الخ وبفضل الاستمرارية لا يحدث هنا . ذلك ان الناس وقد تحرروا من العمل الهائل الذي قامت به الاجيال السابقة ، يمكنهم ان يواصلوا عمل اسلافهم وان يطوروا ويتقنوا منجزاتهم وان يرفعوها الى مستوى جديد أعلى .

ان الطبقات المختلفة تقف مواقف مختلفة تجاه تراث الماضي الفكري . فالطبقات الرجعية تأخذ من الماضي الافكار الرجعية وتكيفها وفقا للظروف التاريخية الجديدة ، وفقا لصالحها الخاصة . ان ايديولوجيي الاستعمار ـ مثلا ـ يستخدمون سكولاستيك القرون الوسطى وصوفيتها ومختلف انواع الانظمة المثالية والرجعية من اجل استعباد الشغيلة فكريا .

اما الطبقات الطليعية الثورية فانها تأخذ من تراث الماضي الفكري ذلك القسم الذي لم يفقد اهميته الإيجابية ويمكن ان يخدم التطور التقدمي للبشرية . وان البروليتاريا ـ كما نعرف ـ هي الحامي الاكثر ثباتا وعناية ، للتراث الفكري . وان أيديولوجيتها تتقبل وتعيد ، بصورة انتقادية ، صياغة اثمن ما توصل اليه الفكر البشري خلال تطوره على مر العصور .

٣ . دور الوعي الفعال في التطور الاجتماعي

ان المادية التاريخية اذ تشير الى اولوية الوجود الاجتماعي ، بالنسبة للوعي الاجتماعي ـ افكار الناس وآراؤهم ـ فانها تعترف في الوقت ذاته **بالدور الفعال** للافكار في تطور المجتمع . ففي جميع ميادين الحياة الاجتماعية ينشط الناس بصورة واعية ؛ ولذا فان افكارهم وآراؤهم ونظرياتهم اذ تتغلغل في جميع جوانب الحياة الاجتماعية تؤثر عليها تأثيرا كبيرا . ان فعالية الافكار الاجتماعية تظهر في انها تخدم الناس كمرشد للنشاط وتوحدهم وتوجههم نحو حل هذه المهام او تلك .

ان الافكار تلعب دورا مزدوجا . فهي يمكن ان **تساعد** على تطور المجتمع او ان **تعيق** هذا التطور . ان دور الافكار يتوقف على الطبقة التي تنتمي اليها ، تقدمية ام رجعية ؛ والى اي مدى تعكس ، بصدق ، حاجات حياة المجتمع المادية والى اية درجة تستجيب لمصالح الجماهير الشعبية .

ان الافكار التي تستطيع ان تمتلك اهمية تقدمية تخدم تطور المجتمع هي فقط تلك التي تعبر عن مصالح الطبقات الاجتماعية الطليعية، والجماهير الشعبية ، والتي تتجاوب مع حاجات تطور الانتاج المادي وتساعد على القضاء على النظام الاجتماعي القديم وتعمل على تثبيت الجديد .

غير ان الافكار مهما كانت تقدمية فانها لا تستطيع لوحدها ان تقضي على النظام الاجتماعي القديم وان تخلق النظام الاجتماعي الجديد . ومن اجل ان تتحول هذه الافكار الى قوة مادية فمن الضروري ان تستوعبها الجماهير . ان الجماهير التي تستوعب الافكار الطليعية هي وحدها القوة الاجتماعية التي تستطيع حل المهمات الاجتماعية الناضجة .

ان فكرة الشيوعية العلمية ، فكرة النظام الاجتماعي الجديد الخالي من الاستغلال والعبودية ، النظام الاكثر عدالة على الارض ، هذه الفكرة التي اثبتتها الماركسية هي اكثر الافكار المعروفة في العالم تقدمية وجبروتا. وان القوة الحيوية العظمى لهذه الفكرة تكمن في انها مبنية على تحليل سنن التطور الاجتماعي وتتجاوب مع الحاجات الجوهرية لحياة المجتمع المادية ومصالح ملايين وملايين الشغيلة . ولذا فان فكرة الشيوعية العلمية قوة مادية جبارة تغير العالم . فقد خدمت الشعب السوفييتي في نضاله البطولي من اجل الاشتراكية وهي اليوم تنير طريقه نحو الغد الشيوعي . ان هذه الفكرة الهمت الطبقة العاملة الروسية ، التي انجزت بتحالفها مع الفلاحين الكادحين وتحت قيادة الحزب الشيوعي ثورة اكتوبر الاشتراكية العظمى . وتجذب الفكرة الناس البسطاء في الارض كلها اكثر فأكثر . انها تساعد الشغيلة في البلدان الراسمالية على النضال ضد القوى الرجعية الاستعمارية . اما حيث تم القضاء على الراسمالية فانها تساعدهم على ان يبنوا الاشتراكية بنجاح .

اما فيما يتعلق بالافكار الرجعية التي تشوه الواقع وتخدم مصالح الطبقات الرجعية ، فانها تعيق تطور المجتمع . ومن هذه ، مثلا ، افكار البورجوازية المعاصرة الرجعية ، التي تحاول انقاذ النظام الراسمالي الذي ولى زمانه من فنائه المحتم . ومن هذه ايضا الافكار الغيبية التي تحرف الناس عن النشاط الفعلي لتغيير العالم واعادة تكوينه وتحكم عليهم بالسلبية والانتظار اللاارادي .

وينشأ عن كل ما قلناه ان الافكار الاجتماعية لها اهمية كبيرة في حياة الانسانية . ولهذا فمن المهم ، في النشاط العملي ، ليس فقط ان ننطلق من الدور المقرر للوجود الاجتماعي وانما ان نأخذ بعين الاعتبار الدور الفعال للافكار في تطور المجتمع .

٣ . دور الايديولوجيا الماركسية في بناء الشيوعية

خصائص واهمية الايديولوجيا الماركسية ـ اللينينية **ان الايديولوجيا الماركسية اللينينية** تختلف جذريا عن جميع الايديولوجيات

التي سبقتها ، سواء من حيث محتواها الطبقي أو من حيث الاهداف والمهمات التي تضعها لنفسها . ان هذه الفروق تكمن اولا : في انها لاول مرة في التاريخ لا تخدم الطبقات المستغلة وانما الطبقة العاملة وجميع الشغيلة ، ملايين الجماهير الشعبية ، تعلمها النضال والعمل والعيش من اجل السعادة المشتركة ، ثانيا : انها تثبت نظريا ضرورة القضاء على كل استغلال وبناء المجتمع اللاطبقي ــ الشيوعية ، ثالثا : انها علمية بصورة عميقة ، تعكس بصدق الواقع الموضوعي وتعبر عن الحاجات الجوهرية لحياة المجتمع المادية . وهي لا تنسجم مع وجهة النظر الدينية والمثالية التي تشوه الوضع الحقيقي للاشياء . ان اساسها النظري هو المادية الدياليكتيكية والمادية التاريخية . ان علمية الماركسية اللينينية تقترن بصورة عضوية بالحزبية . بالتفاني في خدمة الطبقة العاملة والشغيلة جميعا .

ان الايديولوجيا الماركسية اللينينية هي الايديولوجية الاكثر انسانية . ومثلها النبيلة هي اقامة علاقات انسانية حقيقية متبادلة بين الناس وبين الشعوب ، وانقاذ البشرية من خطر الحروب المدمرة ، وتأمين سلام دائم على الارض وحياة حرة سعيدة للجميع .

وتثبت الايديولوجيا الماركسية اللينينية بصورة علمية ضرورة القضاء على الرأسمالية وضرورة استبدال علاقات الانتاج القديمة ، علاقات السيطرة والخضوع ، بعلاقات اجتماعية جديدة للتعاضد والمساعدة المتبادلة . لقد انبثقت في مجرى نضال البروليتاريا الطبقي العملي ضد البورجوازية واصبحت الدليل لنشاط البروليتاريا في هذا النضال ، ترشدها الى طرق ووسائل بناء الاشتراكية والشيوعية . انها قوة منظمة ومحولة عظيمة .

ان بامكان الايديولوجيا الماركسية اللينينية ان تقوم بهذا الدور المحول العظيم لانها تعبر عن الرغبات والافكار الصميمية جدا للشعب ، وتنتشر بين الفئات الواسعة من الطبقة العاملة والشغيلة . واذ تسيطر على وعي ملايين الناس تتحول الى قوة مادية جبارة . غير ان انتشارها بين الجماهير لا يتم عفويا . انما هو نتيجة نشاط ايديولوجي هائل من جانب الحزب الشيوعي الذي يربط افكار الاشتراكية والشيوعية بحركة الجماهير الثورية . ان الحزب يصون نقاوة النظرية الماركسية اللينينية في نضال لا هوادة فيه ضد الايديولوجيا البورجوازية وضد التحريفية والجمود . انه يطور هذه النظرية ، باستمرار على اساس منجزات العلم والتطبيق الاجتماعي ــ التاريخي . ونتيجة نشاط الحزب الشيوعي اصبحت الايديولوجيا الماركسية اللينينية في الاتحاد السوفييتي هي الايديولوجيا

المسيطرة بصورة مطلقة . وانها اذ تسيطر على وعي الناس السوفييتيين تقدم لهم مساعدة لا تثمن في البناء الاقتصادي .

ان الدور المحول الفعال للايديولوجيا الماركسية اللينينية يتعاظم اكثر فأكثر بنجاحات بناء الشيوعية . وان كل خطوة على الطريق نحو الشيوعية تعني في الوقت ذاته طورا جديدا في ارتفاع وعي الجماهير وتطور مبادرتها الخلاقة .

مهمات العمل الايديولوجي في مرحلة البناء الواسع للشيوعية

لقد احتل العمل الايديولوجي دائما مكانا هاما في نشاط الحزب الشيوعي في الاتحاد السوفييتي . ولهذا العمل اليوم اهمية بالغة الخطورة ، في مرحلة بناء الشيوعية على نطاق واسع . ان التحقيق الناجح لبرنامج البناء الشيوعي ، خلق القاعدة المادية والتكنيكية للشيوعية والتوطيد المطرد لقدرة الاتحاد السوفييتي الاقتصادية وتأمين الوفرة من الخيرات المادية والثقافية . انما يتعلق بصورة مباشرة برفع وعي الشغيلة . ولذا فان ادراك اسس الماركسية اللينينية والاستيعاب العميق لوجهة النظر الشيوعية من العالم ولسياسة الحزب اصبح ضرورة حيوية لكل انسان سوفييتي .

ان الدولة السوفييتية الاشتراكية كانت قوية دائما بوعي الجماهير . واليوم حيث اصبحت الشيوعية قضية عملنا اليومي ، وحيث تكتسب طرق الاقناع والتربية اهمية اكبر فأكبر في حياة المجتمع السوفييتي ، فان رفع وعي الجماهير ضروري بصورة خاصة . فكلما كانت الجماهير اكثر وعيا ، وكلما كانت تفهم بصورة اوضح المهام التي تواجهها ، وكلما ساهمت بفعالية اكبر في حياة المجتمع الاشتراكية ـ كلما كانت حركة هذا المجتمع نحو الشيوعية انجح .

ان ارتفاع الوعي يؤدي الى اطراد التلاحم الفكري والسياسي للعمال والكولخوزيين والمثقفين ، والى اندماجهم التدريجي في اسرة شغيلة المجتمع الشيوعي الموحدة .

ان تحقيق برنامج البناء الشيوعي الجبار يتطلب الحزم في تحسين مجموع العمل التربوي بين الناس السوفييتيين ورفع وعيهم الشيوعي وحيويتهم . « ان تربية الشغيلة على السمو الفكري والاخلاص للشيوعية . وعلى الوقوف من العمل والاقتصاد الاجتماعي موقفا شيوعيا ، وتصفية بقايا النظرات والعادات البورجوازية تصفية تامة ، وتطوير الفرد تطويرا منسجما

شاملا وتكوين ثروة حقيقية من الثقافية الروحية » (١) ، هي المهمات الرئيسية للعمل الايديولوجي في المرحلة الراهنة كما صاغها البرنامج الجديد للحزب الشيوعي في الاتحاد السوفييتي .

وكخطة أولى في العمل الايديولوجي توضع اليوم **مهمة الشرح العميق لبرنامج الحزب الشيوعي في الاتحاد السوفييتي** وتسليح شغيلة المجتمع السوفييتي بالبرنامج الهائل للنضال من اجل انتصار الشيوعية ، ولتعبئة جميع الشغيلة لتنفيذ البرنامج الجديد للحزب .

ان العمل الايديولوجي يفترض ايضا تبيان الافضليات الكبيرة للاشتراكية والشيوعية على النظام الراسمالي الذي ولى زمانه . وفضح الجوهر الرجعي للراسمالية وايديولوجيتها وسياستها .

ان العمل الايديولوجي عامل فعال في النضال من اجل الشيوعية ، واهم وسيلة لتربية الشغيلة بروح الشيوعية . الا انه يمكن ان يكتسب اهميته البالغة هذه فقط اذا كان **مرتبطا بصورة وثيقة بالحياة ، وبعملية البناء الشيوعي** .

ولا يكفي لتربية بناة واعين للمجتمع الشيوعي ان تكون افكار الشيوعية معروفة من قبل الجماهير . ان الامر الرئيسي هو ان يكونوا قادرين على **تحقيق هذه الافكار في الحياة** ، وفي ادراكها بوصفها مهمات ملموسة للبناء الشيوعي . والمهم ان نعلم العامل والكولخوزي والمثقف وكل مواطن سوفييتي على ان يعمل بطريقة شيوعية ، ان يزيد انتاجية العمل ويحافظ على اموال الشعب ويساند وينشر التجربة الطليعية ويطبق التكنيك الحديث . وفقط في العمل من اجل خير المجتمع يستطيع الانسان ان يصبح شيوعيا حقيقيا ، وان يربي نفسه على مبادىء الخلق الشيوعي السامية . ولهذا فان التربية **بموقف شيوعي تجاه العمل** والطموح لدى كل انسان سوفييتي في ان يتقدم بعمله مساهمة شخصية في قضية الشيوعية العظمى هي اهم مهمات العمل الايديولوجي .

ويهتم الحزب والدولة في المرحلة الراهنة اهتماما خاصا بالتربية الشيوعية وتعليم الجيل الفتي . وهذا امر مفهوم : فالشبيبة تبني الشيوعية الآن ومن ثم ستعيش وتعمل في المجتمع الشيوعي .

---

(١) برنامج الحزب الشيوعي في الاتحاد السوفييتي ـ الطبعة العربية ـ ص١٤٤ .

ان المدارس السوفييتية العليا والثانوية تلعب دورا عظيما في تربية الشبيبة . وان إعادة تنظيم عمل المدرسة الذي تم مؤخرا وربط التعليم بالعمل الاجتماعي ــ بوجه خاص ــ خلق ظروفا ملائمة لتكوين نظـرة عامة ماركسية لينينية ولتربية وعي شيوعي عالي لدى الشبيبة المتعلمة . ان اعادة تنظيم المدرسة سوف تضمن اعداد اختصاصيين وشغيلة ذوي وعي عالي لمجتمعنا وبناة نشيطين للشيوعية .

ان توسيع ميدان نشاط العمل الايديولوجية وضمان تاثيره على كل عامل وكولخوزي ومثقف وكل انسان سوفييتي له في ايامنا اهمية كبرى استثنائية ومن المعروف ان شغيلة بلادنـا يظهرون اهتماما كبيرا بالنظرية الماركسية اللينينيةوطموحا ملتهبا لاستيعابها. وان مهمة العمل الايديولوجي هي ان يشبع هذا الطموح اشباعا كاملا .

وبهذا نكون قد شرحنا جوهر الوعي الاجتماعي عموما ، واهميته فـي تطور المجتمع. وسنبحث الان اشكاله المستقلة مبتدئين بالافكارر السياسية والحقوقية ذات الدور الهام جدا في الحياة الاجتماعية .

٤ . الافكار السياسية والحقوقية

السياسة والاقتصاد

ان السياسة ، العلاقات السياسية هي اولا علاقات بين طبقات ، صراع طبقـات مـن اجل السلطة ، من اجل السيطرة في المجتمع . والى جانب هذا يشمل هـذا الميدان العلاقات بين الدول والامم . لقد ظهرت السياسة بظهور الطبقات والصراع الطبقي والدولة . وان السياسة التي تنعكس في نشاط الدولة تمثل الاتجاه الرئيسي لهذا النشاط .

ان السياسة بوصفها علاقات بين الطبقات نشات عن تركيب المجتمع الاقتصادي ، عن قاعدته . وقد عرف لينـين السياسة بعـد ان كشف منشأها وصلتها الوثيقة بالتركيب الاقتصادي للمجتمع ، عرفهـا بوصفها تعبير مركز عن الاقتصاد ، تعميمه ونتيجته . وفي السياسة بالذات تجـد المصالح الطبقية الاقتصادية تعبيرها الاكمل والاشمل .

ولكن السياسة اذ تنشأ عن الاقتصاد فانها من جانبها تؤثـر عليه وعلى سير التطور الاجتماعي بكامله ، تأثيرا عظيما . ان تطور الاقتصـاد يهيء تغير النظام الاجتماعي ، غير ان هذا التغير نفسه هو نتيجة للنشاط الواعي للشعب هذا النشاط الذي توجهه السياسة بالذات . ان لينين اذ اخذ بعين الاعتبار الدور الهائل الذي تلعبه السياسة فـي حياة وتطور

المجتمع اشار الى ان السياسة لا يمكن ان لا تكون لها الاولوية على الاقتصاد . وهذا يعني انه عند حل المهمات الاقتصادية والانتاجية ينبغي ان نعالجها من وجهة نظر طبقية . وقال لينين : « بدون موقف سياسي صحيح تجاه القضية فان طبقة ما لا تستطيع ان تحتفظ بسيطرتها وبالتالي فانها لن تستطيع حل **مهمتها الانتاجية** » (١) .

ان الموقف السياسي الطبقي بالذات تجاه القضية هو العلامة المميزة لنشاط الحزب الشيوعي في الاتحاد السوفييتي وجميع الاحزاب الشيوعية والعمالية الشقيقة . ولدى حل جميع المسائل الاقتصادية والتنظيمية ينطلق الحزب الشيوعي دائما من مصالح الطبقة العاملة والشغيلة . ان المصالح الحيوية للطبقة العاملة هي التي املت ، مثلا ، الاجراءات الهامة جدا من قبيل اعادة بناء الاقتصاد الوطني في الاتحاد السوفييتي على اساس اشتراكي كتصنيع البلاد واشاعة التعاونية في الزراعة .

الافكار السياسية واهميتها

ان الافكار والآراء السياسية للناس ترتبط بالسياسة بشكل وثيق . وما دامت السياسة تميز العلاقات بين الطبقات والامم والدول فان الافكار السياسية **تعكس** هذه العلاقات **وتدعمها** . وتشمل الافكار السياسية آراء هذه الطبقة او تلك عن الصراع الطبقي والثورة ، وعن المجتمع وبناء الدولة ، وعن العلاقات بين الامم والدول وقضايا الحرب والسلام . ان هذه الآراء تتحقق في الحياة في الصراع المباشر بين الطبقات ، في نشاط الدولة والاحزاب وسائر المؤسسات والمنظمات السياسية .

وتجد الافكار السياسية تعبيرا عنها في دساتير الدول وبرامج وبيانات الاحزاب وسائر المنظمات السياسية وفي المؤلفات النظرية الخاصة وغيرها من الوثائق .

ان طابع الافكار السياسية في المجتمعات الطبقية المتناحرة يتعلق بمصالح الطبقة التي تعبر عنها هذه الافكار . فالطبقة المستغلة تسعى الى تثبيت وضعها المسيطر والى توطيد قاعدتها الاقتصادية . وهذا بالذات ما يحدد طابع افكارها . اما فيما يتعلق بالطبقة المستغلة فانها تثبت في افكارها السياسية ضرورة القضاء على النظام الاستغلالي وخلق مجتمع جديد ـ مجتمع خالي من الاستغلال . ان الايديولوجية السياسية

---

(١) لينين ـ المؤلفات ـ ج٣٢ ص ٦٢ ـ ٦٣ .

للمستغلين هي ايديولوجيا النضال الثوري ، ايديولوجيا تحطيم القديم وبناء وخلق الجديد .

والافكار السياسية تؤثر بصورة فعالة على تطور جميع اشكال الوعي الاجتماعي الاخرى - القانون والاخلاق والفن والدين والفلسفة والعلم - .

تتصارع اليوم في العالم ايديولوجيتان سياسيتان متضادتان - ايديولوجيا الطبقة العاملة وايديولوجيا البورجوازية . ان ايديولوجيا الطبقة العاملة السياسية هي ايديولوجيا الاممية البروليتارية والصداقة بين شغيلة جميع الاقطار ووحدة وتعاون جميع القوى التقدمية في النضال المشترك من اجل السلم والديمقراطية والاشتراكية . وهي تجد تعبيرها الاكثر كمالا وشمولا في النظرية الماركسية اللينينية ، وفي برامج الاحزاب الشيوعية ودساتير البلدان الاشتراكية . ان هذه الايديولوجيا تدعم نضال الطبقة العاملة الطبقي وجميع الشغيلة ضد البورجوازية وتبرهن على ضرورة انتصار الاشتراكية والشيوعية . وهي تخدم الطبقة العاملة وحزبها بوصفها مرشدا في النضال السياسي ، الشكل الاعلى لنضال البروليتاريا الطبقي .

ان سياسة الطبقة العاملة وافكارها السياسية هي علمية حقيقية ، وتستند الى معرفة قوانين التطور الاجتماعي وتتجاوب تجاوبا تاما مع مصالح الجماهير الشعبية . ولقد اظهرت التجربة التاريخية والنجاحات الهائلة للحركة الشيوعية العالمية قوتها وحيويتها .

وعلى الضد من الافكار السياسية للطبقة العاملة نجد افكار البورجوازية الاستعمارية السياسية التي تستهدف تقديس العبودية الراسمالية والمحافظة عليها الى الابد ودعم القاعدة الراسمالية المتفسخة . ان افكار البورجوازية الاستعمارية الرجعية تحاول ان تدعم سياسة اضطهاد الطبقة العاملة والقوى الديمقراطية في داخل البلاد وسياسة الاضطهاد القومي وتحضير حرب عالمية جديدة .

ان الافكار السياسية للبورجوازية الرجعية المعاصرة خالية من الاسس العلمية وتتعارض مع قوانين التطور الاجتماعي الموضوعية ومع مصالح الشعب . ولذا فانها محكوم عليها بالفشل المحتم . وكما فشلت الفكرة الهتلرية في السيطرة على العالم ، وكما تتدهور امام اعيننا ايديولوجيا وسياسة الكولونيالية ، كذلك سوف تفشل جميع الافكار الرجعية الاخرى للبورجوازية الاستعمارية المعاصرة .

ومن بين جميع اشكال الوعي الاجتماعي تكون السياسة والافكار السياسية الشكل الاقرب للقاعدة الاقتصادية . فبواسطة نشاط الدولة والاحزاب وسائر المنظمات السياسية الاخرى يجري التاثير على القاعدة

وعلى مجرى التطور الاجتماعي بمجموعه . والى جانب هذا فان السياسة انها تتغلغل في جميع اشكال الوعي الاجتماعي هذه وتعطيها وجهتها الطبقية وتفرض عليها خدمة اهداف طبقة معينة .

وللسياسة والافكار السياسية دور كبير ، بوجه خاص في المجتمع الاشتراكي . فان سيادة الملكية الاجتماعية والطابع المبرمج للاقتصاد في ظل الاشتراكية تخلق امكانيات قيادة واعية من جانب الدولة السوفييتية والحزب الشيوعي لعملية التطور الاجتماعي بكاملها . ان سياسة الحزب الشيوعي هي الاساس الحيوي للنظام الاشتراكي . وبعد حزبنا سياسة الدولة السوفييتية الداخلية والخارجية ويضع امام الشعب مهمات محددة ويعبيء الشغيلة لتنفيذ هذه المهام ويراعي بصرامة متطلبات قوانين التطور الاجتماعي الموضوعية . ان الهدف النهائي لسياسة الحزب الشيوعي هي الشيوعية . ولاجل الوصول الى هذا الهدف فانه يوجه عمل الجهاز الحكومي والتنظيمات الحزبية والاجتماعية وكل ما يملك من وسائل من اجل التأثير الايديولوجي .

القانون والافكار القانونية توجد في المجتمع الى جانب العلاقات السياسية علاقات حقوقية ايضا . وهي التي ينظمها القانون .

ان **القانون** هو مجموع القواعد **الملزمة** وطرق سلوك الناس في المجتمع . ان هذه القوانين يعبر عنها تشريعات قانونية تحميها الدولة بجميع وسائل الارغام والتثقيف التي تملكها .

ان القانون كالسياسة ظهر مع ظهور الطبقات والدولة . انه يمثل ارادة الطبقة المسيطرة مصوغة بتشريع يدافع عن مصالحها السياسية والاقتصادية .

ان تاريخ المجتمع الطبقي المتناحر يعرف قانون ملاك العبيد والقانون الاقطاعي والقانون الراسمالي التي تخدم كلها المستغلين في صراعهم ضد المستغلين . ان القانون الاشتراكي فقط يعبر عن مصالح الجماهير الشغيلة

وينبغي التفريق بين علاقات الناس القانونية وافكارهم وآرائهم القانونية ، التي تميز مواقفهم تجاه القانون في مجتمع معين ، وكذلك تصوراتهم عما هو قانوني وغير قانوني ، عما هو ملزم وغير ملزم في علاقات الناس والدول والامم .

ان الافكار والآراء القانونية لها طابع طبقي وتعبر عن مصالح هذه الطبقة او تلك . وتسيطر في المجتمع الطبقي المتناحر ـ الافكار القانونية

للطبقة المستغلة . فالطبقة المسيطرة ـ من اجل ان تفرض ارادتها على الطبقات الاخرى في المجتمع ، تستخدم ليس الجهاز الحكومي فقط وانما الافكار القانونية ايضا . وتسعى بواسطة هذه الافكار الى دعم القانون الذي شرعته ، ولستر طابعه الطبقي وتصويره على انه قانون لعموم الشعب ومظهر سام للعدالة والخير .

لنأخذ مثلا المجتمع الراسمالي . وسنجد فيه نظاما قانونيا بورجوازيا تدعمه افكار البورجوازية القانونية . وهدف هذه الافكار هو البرهنة على ان المجتمع لا يمكن ان يجد قوانين اكثر عدالة من القانون البورجوازي ، وتصوير هذا القانون وكأنه تجسيد للديمقراطية واظهار المحاكم البورجوازية وكأنها غير متميزة و .. الخ . اما في الواقع فان القانون البورجوازي في خدمة الراسماليين ، يحافظ على الملكية الراسمالية ويقوم بتبرير الاستغلال واضطهاد جميع القوى التقدمية .

وبظهور الدولة الاشتراكية ظهر القانون الاشتراكي

ان القانون الاشتراكي والافكار القانونية التي تدعمه يختلف جذريا . ذلك انه

يحمي قاعدة الاشتراكية الاقتصادية ـ الملكية الاشتراكية ويوطدها ، ويثقف الناس السوفييتيين لكي يراعوا القوانين وينفذوا التزاماتهم بنزاهة . ان النظام الاشتراكي لا ينسجم مع خرق القوانين ولا مع تجاهل مصالح الفرد ولهذا فان الدولة السوفييتية توطد الشرعية الاشتراكية دائما وتظهر الحزم تجاه اية محاولة لانتهاكها .

ونظرا لان القوانين التشريعية في المجتمع الاشتراكي تتجاوب مع مصالح الشغيلة تجاوبا تاما، فان الاكثرية الساحقة من المواطنين السوفياتيين تنفذها بوعي وطواعية ، ولا تتخذ الدولة السوفييتية اجراءات قسرية سواء ضد خارقي النظام الاجتماعي السيئين ومبذري الملكية الاجتماعية وغيرهم من المجرمين .

وفي مجرى الاقتراب من الشيوعية فان دور الدولة بوصفها قوة قسرية لفرض مراعاة القوانين سيقل اكثر فأكثر

بصورة تدريجية .

وان مهمة التنظيمات الاجتماعية ليست كشف الخروقات

بمقدار ما هي الوقاية من الخروقات وتعليم الناس السوفييتيين احترام القوانين ومراعاة متطلباتها بوعي .

ومن ثم ، ونتيجة ازدياد رفاه الشغيلة وارتفاع وعيهم وتنظيمهم

فستوجد كل الظروف من اجل ان يصفى الى الابد خرق القوانين وان يجري استبدال التدابير العقابية الجنائية ككل ، بتدابير التأثير الاجتماعي والتربية . وبانتصار الشيوعية انتصارا تاما ستسقط ضرورة القانون (الحق) ، وستندمج الحقوق بالواجبات اندماجا عضويا مكونة القواعد الموحدة للمجتمع الشيوعي .

٥ . الاخلاق

جوهر الاخلاق ومكانها في الحياة الاجتماعية

الاخلاق او السلوك هي مجموعة من المعايير والقواعد عن تصرف الناس في المجتمع تميز تصوراتهم عن العدالة والظلم ، والخير والشر والشرف والعار و .. الخ . وخلافا للقواعد القانونية فان معايير وقواعد الاخلاق ليست مسطرة في قوانين وانما تجري مراعاتها بقوة الراي العام والعادات والتقاليد والتربية ، بقوة الدوافع الداخلية لدى الانسان . انها تحدد موقف الانسان تجاه المجتمع وتجاه شعوب البلدان الاخرى وتجاه العائلة وسائر الناس .

لقد تكونت الاخلاق مع ظهور المجتمع البشري ، ذلك ان المجتمع طالب اعضاءه باستمرار بمتطلبات محددة ؛ وهي التي انعكست بالذات في قواعد الاخلاق . وهذه القواعد ليست ثابتة . إنها تتغير بتطور المجتمع تحت تأثير التغيرات في الانتاج ، وقبل كل شيء في العلاقات الانتاجية . ففي ظل نظام المشاعية البدائية كانت قواعد الاخلاق واحدة بالنسبة لجميع اعضاء المجتمع . وبظهور الطبقات بدأت تعبر عن مصالح هذه الطبقة او تلك . واكتسبت الاخلاق طابعا طبقيا . وفي المجتمع المنقسم الى طبقات متناحرة توجد اخلاق للمستغلين وأخلاق للمستغلين . وتكون اخلاق الطبقة المسيطرة هي السائدة . فلقد كانت اخلاق ملاك العبيد هي المسيطرة في مجتمع ملاك العبيد وفي المجتمع الاقطاعي سيطرت اخلاق الاقطاعيين وفي المجتمع البورجوازي ، اخلاق الرأسماليين . وتعارض هذه الاخلاق القواعد والمبادىء الخلقية للعبيد والفلاحين والبروليتاريا .

والاخلاق ، كعنصر من عناصر البناء الفوقي ، تؤثر على جميع جوانب الحياة الاجتماعية . فعن طريق موقف الناس من العمل والملكية تؤثر الاخلاق على الاقتصاد . فالاخلاق الشيوعية مثلا باعلانها الملكية الاشتراكية مقدسة وذات حرمة تنبه بهذا الى المحافظة على الاساس الاقتصادي للاشتراكية . وللاخلاق علاقة مباشرة بالسياسة . فان كل عمل سياسي من جانب الدولة

يكتسب تقديرا اخلاقيا ـ استحسانا او استياء من جانب اعضاء المجتمع . ومن المعروف ان الاستحسان المعنوي لهذا العمل الذي تقوم به الدولة أو ذاك ، من جانب الجماهير الشعبية هو عامل هام لنجاح العمل .

ويوجد في المجتمع اليوم خلقان يعارض احدهما الاخر : الخلق الشيوعي والخلق البورجوازي . ما هو جوهر الخلق الاول والثاني ؟ وما هي المهام الاجتماعية التي يحلونها ؟

ان الخلق البورجوازي اذ يدافع عن مصالح البورجوازية الاستعمارية يلعب دورا رجعيا في تطور المجتمع . فمهمته الاجتماعية الرئيسية هي المحافظة على اساس اسس الرأسمالية الا وهو الملكية الخاصة والاستغلال.

ان الخلق البورجوازي تقرره سيادة الملكية الرأسمالية التي تقسم الناس ، وتجعل منهم اعداء بعضهم البعض وخصوصا في الصراع من اجل قدس اقداس الرأسمال ، الا وهو الربح . ان الرأسمالي في سعيه الجشع وراء الربح يدوس جميع قواعد الخلق الانساني ولا يهمه مطلقا مصير من حوله من الناس ومصير بلاده وكل المجتمع . انه يضع مصالحه الانانية فوق كل شيء في العالم . ان الفردية المتطرفة هي المبدا الاساسي للخلق البورجوازي . « الانسان ذئب على الانسان » . « كل لنفسه والله للجميع» هذه هي القواعد الاخلاقية التي يرسخها خلق المجتمع البورجوازي . ولا يمكن ان توجد قواعد اخرى في المجتمع . حيث تسيطر الملكية الخاصة ، وحيث المعيار الاعلى للمكانةهو النقود . كل شيء يباع ويشترى : الحب والشرف ، كرامة الانسان وضميره .

المبادىء الاخلاقية لبناة الشيوعية

ان الخلق الاكثر تقدمية والاكثر انسانية ،الخلق النبيل في العالم هو **الخلق الشيوعي** الذي لا يعبر عن مصالح حفنة من المستغلين ، وانما عن مصالحالغالبية الساحقة من اعضاء المجتمع ـ مصالح ومثل الشغيلة جميعا .

ان الخلق الشيوعي يحوي القواعد الخلقية الانسانية العامةالتيابدعتها الجماهير الشعبية في النضال ضد المستغلين وضد الرذائل الخلقية . وان

لاخلاق الطبقة العاملة ، **الطبقة الاكثر** تقدمية في عصرنا وخالقة المجتمع الجديد الشيوعي ، أهمية خاصة كبيرة في التطور الاخلاقي للمجتمع وصياغة قواعد ومتطلبات الخلق الشيوعي .

لقد ولد الخلق الشيوعي منذ أيام الرأسمالية حيث عبر عن احتجاج البروليتاريا ضد الاستغلال والتمييز وعن طموحها لوضع قواعد في حياة الناس الاجتماعية تقوم على اساس علاقات الصداقة والروح الرفاقية والتعاضد والمساعدة المتبادلة بين اناس احرار من عبودية الاستغلال . الا ان خلق الطبقة العاملة ليس هو السائد في المجتمع الراسمالي . وان سيادته تتم بالقضاء على الراسمالية واقامة المجتمع الاشتراكي . ان سيادة مبادىء الخلق الشيوعي في الاتحاد السوفياتي هي نتيجة لانتصار الاشتراكية وللعمل التنظيمي والتربوي الكبير الذي قام به الحزب الشيوعي والحكومة السوفياتية .

ان الخلق الشيوعي – كما أشار لينين – خاضع لمصالح نضال البروليتاريا الطبقي . **محتواه وهدفه النضال لتوطيد وبناء الشيوعية بناء تاما** . ان فكرة لينين هذه بالذات تكمن في **اساس المبادىء الاخلاقية لبناة الشيوعية** المصاغة في برنامج الحزب الشيوعي في الاتحاد السوفياتي . فالاخلاق ، من وجهة نظر الخلق الشيوعي . هي ما يساعد ويعين سير المجتمع نحو الشيوعية . وان **الاخلاص لقضية الشيوعية وحب الوطن الاشتراكي** ، الذي يفتح الطريق امام الانسانية نحو المستقبل الشيوعي . **وحب البلدان الاشتراكية جميعا** هو المتطلب الاول والرئيسي من متطلبات المبادىء الاخلاقية للانسان السوفياتي .

ان مصدر الثروة الاجتماعي والرفاه الشخصي لعضو المجتمع الاشتراكي هو العمل . هذا العمل الذي هو واجب وقضية شرف بالنسبة للانسان السوفياتي . ولذا فان **العمل بضمير حي من اجل خير المجتمع ، واهتمام كل فرد بالمحافظة على الثروة الاجتماعية ومضاعفتها هي** متطلبات هامة في الخلق الشيوعي . هذه المتطلبات التي تنفذ بقدسية من قبل الاغلبية الساحقة من المواطنين السوفيات الذين أصبحت القاعدة الاشتراكية الثابتة « من لا يعمل لا ياكل » ، بمثابة قانون بالنسبة لهم . ويجد المواطنون السوفياتيون الفرح والسعادة الحقيقيين في عملهم من اجل خير الوطن .

ان المبادىء السامية للاخلاق الشيوعية تنشأ عن طبيعة النظام الاشتراكي نفسه ، عن أساسه الاقتصادي – الملكية الاجتماعية على وسائل الانتاج . هذه الملكية التي توحد الناس وتتيح لهم ان يعيشوا على إساس من الصداقة الحقيقية والاحترام المتبادل والتعاون . ومن هنا ايضا ينشأ

المبدأ الهام في الاخلاق الشيوعية : **الجماعية والتعاضد الرفاقي** ، الذي يعبر عنه بصيغة – الفرد للجميع والجميع للفرد .

ان مبدأ الجماعية يعني بأن الامر الرئيسي في سلوك الانسان ينبغي **ان يكون خدمة المجتمع والجماعة واخضاع المصالح الشخصية للمصالح العامة ، لصالح الشعب .**

ومن المهم ان نلاحظ بأن

العناية بالمصالح العامة لا يتعارض مع مصالح الفرد . ان كل ما هو جميل مما يقوم به الانسان السوفياتي انما يقوم به لنفسه وللشعب كل على حد سواء . وانه اذ يقف موقفا نزيها من عمله ويقوم بكل شيء بصورة جيدة وفي الوقت المناسب فانه في الواقع يعتني برفاقه الذين هم بدورهم يعملون من اجل الجميع وبضمنهم هو ايضا . وفي هذا يكمن تعبير واضح عن التوافق العضوي بين المصالح الشخصية والاجتماعية . ان هدف الانتاج الاشتراكي هو الانسان وتطمين حاجاته . وان الطموح في ان يكون نافعا للمجتمع ولشعبه هو ما يقرر تصرفات الانسان السوفياتي بالدرجة الاولى .

وعلى اساس مبدأ الجماعية يحل الخلق الشيوعي مسألة الواجب والضمير والشرف . ان هذا الخلق يعتبر **من لا يتسامح تجاه انتهاك المصالح الاجتماعية** ومن يفيد المجتمع ويساعد بكل قواه من اجل تحقيق تقدمه ، انسانا شريفا وقائما بواجبه . وان الانسان الذي يقوم بكل ما يستطيع من اجل المجتمع ومن اجل قضية الشعب هو انسان ذو ضمير طاهر : **انسان ذو وعي عالي لواجبه الاجتماعي .**

ان الشرط الالزامي لترسيخ مبادىء الاخلاق الشيوعية النبيلة في ادراك الناس السوفياتيين هو تطوير الاممية البرولتارية والوطنية الاشتراكية والانسانية . ان الانسانية الاشتراكية هي انسانية سامية من نوع جديد . ومحتواها هو **العلاقات البشرية ، الانسانية الحقيقية والاحترام المتبادل بين الناس :** الانسان صديق الانسان ، رفيقه ، واخوه . غير ان الانسانية الاشتراكية توفق بين احترام الانسان وحبه والاهتمام برفاهه وثقافته وبين اشد اليقظة **والحزم الذي لا هوادة فيه تجاه اعداء الشيوعية والسلم وحرية الشعوب .**

كما ان الوطنية السوفياتية هي وطنية من نوع جديد . انها تربط بصورة عضوية حب الوطن ، بحرارة ، والاخلاص له وللاسرة الاشتراكية

وجميع **شعوب** كرتنا الارضية ، وباحترام شعوب جميع الدول كبيرها وصغيرها . ان **الوطنية**السوفياتية تتنافىمع التعصبالقومي – **ايديولوجيا** العزلة القومية والعداء بين الشعوب والاضطهاد القومي واشاعة الفرقة بين الشغيلة . ان اخلاق المجتمع الشيوعي ترسخ **الصداقة الاخوية بين جميع شعوب الاتحاد السوفياتي وعدم التسامح تجاه العداء القومي والعرقي .**

ان الخلق الشيوعي يتطلب من الناس مراعاة قواعد الحياة الاجتماعية الاشتراكية : والعناية بكبار السن والمرأة **والاحترام المتبادل في العائلة** والاهتمام بتربية الاطفال . ان الاساس الاخلاقي للعائلة في ظل الاشتراكية هو الحب والمساواة والمساعدة المتبادلة بين الرجل والمرأة والصداقة والثقة المتبادلة بين **الوالدين واطفال .**

ان مبادىء الاخلاق الشيوعية تخلق سجايا معينة في شخصية الانسان . الشرف والعدالة ، الصفاء الاخلاقي ، البساطة والتواضع في الحياة الاجتماعية والشخصية ، عدم التسامح حيال الظلم والطفيلية وانعدام الشرف والطمع والوصولية – هذه هي سجايا الشخصية التي تؤكدها الاخلاق الشيوعية .

التغلب على بقايا الرأسمالية – جزء مكون في التربية الشيوعية

ان مبادىء الخلق الشيوعي دخلت ، بقوة ، في عمل وحياة الناس السوفياتيين بفضل نجاحات البناء الاشتراكي وعمل الحزب الشيوعي التربوي الكبير . غير ان وعي بعض المواطنين السوفياتيين لا يزال يحوي بقايا الماضي . ولا يزال يوجد بين الناس السوفيات حتى الان كسالى لا يريدون ان يعملوا ويعيشون حياة طفيلية . ويوجد ايضا اناس ذوو مصالح تتعلق بالملكية الخاصة وجشعون وانانيون وبيروقراطيون من الذين يضعون مصالحهم الخاصةفوق كل شيء فيالعالم . كما يوجد مبذرون للملكية ومنتهكون لانضباط العمل والنظام العام .

فكيف يمكن ان نفسر وجودها ؟

اولا : بأن الاشتراكية تقوم ليس على اساسها الخاص ، وانما تخرج من رحم الراسمالية التي تعطي لهذا المجتمع الجديد تقاليدها وعاداتها . واذا ما اخذنا بعين الاعتبار ايضا ان وعي الناس لا يتبدل فورا بعد التبدلات التي تجري علىوجودهم وانما بعد وقت معين ، الامر الذي بنتيجته يمكن ان يتأخر الوعي عن الوجود ، يصبح واضحا لماذا تظل تقاليد وعادات الماضي

تثقل افراد المجتمع الجديد لوقت طويل .

ثانيا : ان لتأثير الايديولوجيا البورجوازية اهمية ليست بالقليلة في وجود وجهات النظر المنحطة ، هذه الايديولوجيا التي تحاول ان تؤثر بكل الوسائل الممكنة على وعي الناس السوفياتيين وان تحيي لديهم المفاهيم والعادات البورجوازية وان تعيق حركتنا نحو الشيوعية .

ثالثا : ان وجود بقايا الرأسمالية يفسر بوجود بعض الاسباب ذات الطابع الذاتي . مثلا ضعف الرقابة على معيار العمل والاستهلاك والنواقص في العمل الايديولوجي وفي تربية الجيل الجديد ؛ وخصوصا في العائلة والمدرسة . ولا يجري حتى الان ؛ بصورة مستمرة . شجب انتهاك القوانين السوفياتية ومبادىء الخلق الشيوعي من قبل الرأي العام الواسع . وبدون هذا لا يمكن ان يضمن النجاح في النضال ضد بقايا الماضي .

إن الافراد الذين يحملون الكثير من بقايا الراسمالية يعيقون بشكل جذري البناء الشيوعي . انهم يشوشون العمل الاعتيادي للناس السوفياتيين وراحتهم الاعتيادية ويضرون بملكية الشعب وببعض المواطنين ويشيعون الخلافات في الحياة العائلية و ... الخ .

ان بقايا الماضي ذات حيوية غير اعتيادية وهي لا يمكن ان تزول من نفسها . انها ذات جذور في حياة ووعي ملايين الناس لفترة طويلة بعد زوال الظروف الاقتصادية التي ولدتها . ولهذا فان الحزب الشيوعي يعتبر العمل ضد بقايا الماضي . ومظاهر الايديولوجيا والاخلاق البورجوازيتين ؛ وضد بقايا نفسية الملكية الخاصة **جزءا مكونا في التربية الشيوعية .**

ويلعب الرأي العام السوفياتي دورا هاما في تنفيذ هذه المهمة : المنظمات الحزبية ومنظمات الكومسومول والنقابات وكل مواطن سوفياتي . ان تأثير الرأي العام والنقد والنقد الذاتي والادانة الرفاقية للتسلكات المعادية للمجتمع تصبح تدريجيا الوسائل الرئيسية لاستئصال مظاهر الاراء والعادات والتقاليد البورجوازية . كما ان لقوة المثال الحسن في الحياة الاجتماعية والفردية وفي تنفيذ الواجب الاجتماعي اهمية تربوية كبيرة جدا .

ان الوسيلة الحاسمة للتغلب على بقايا الماضي . ولتربية الانسان الجديد هي **العمل البناء والمساهمة النشيطة من جانب كل اعضاء المجتمع في بناء الشيوعية .** ويحترم في بلادنا السوفياتية كل عمل لصالح المجتمع سواء العمل اليدوي او الفكري . وفي العمل المشترك المبرمج والمنظم لجميع اعضاء المجتمع . وفي مساهمتهم اليومية في ادارة الاعمال الحكومية والاجتماعية يتبدل تدريجيا وعي الانسان وتنشأ سجاياه المعنوية السامية ـ الجماعية ؛ حب العمل ، الاهتمام بالمحافظة على الملكية الاجتماعية وزيادتها؛

الانسانية والتعاضد الرفاقي . وتتفتح في العمل كفاءات ومواهب الانسان، ويرتفع مستواه الفكري والتكنيكي ، ويتربى الطموح نحو الاستقلال والابداع وحب الجديد والقدرة على اخضاع المصالح الشخصية للمصالح العامة . ولهذا فان تربية جميع اعضاء المجتمع بالموقف الشيوعي تجاه العمل ، بالاستناد الى القدوة الطيبة فيه والى احسن الامثلة لادارة الاقتصاد الجماعي انما هي وسيلة هامة جدا لصوغ المبادىء السامية للخلق الشيوعي لدى الانسان . ان الحزب يضع امامه ، اليوم ، مهمة ترسيخ الاقتناع العميق في وعي كل عضو من اعضاء المجتمع بأن الانسان لا يستطيع العيش دون عمل ودون خلق وسائل العيش .

كما ان العمل التثقيفي الدؤوب والنهوض المستمر بمستوى التعليم العام والمستوى الثقافي يساعد على التغلب على بقايا الماضي في وعي الناس. فمن المعروف جيدا ان الانسان كلما كان مثقفا اكثر ومتعلما أكثر فانه يعمل بانتاجية اكبر ويشارك بنشاط اكبر في الاعمال الاجتماعية ويكون اكثر تواضعا وبساطة في حياته الاجتماعية والشخصية . وفي العمل الدؤوب والتعلم اليومي يتربى الحزم تجاه الظلم والطفيلية والغش والوصولية .

ان حركة فرق العمل الشيوعي والطليعيين تعطي نموذجا رائعا لتربية الناس بالعمل الدؤوب والتعلم الجدي . ان العمل بنكران ذات من اجل رفع شأن الوطن والوعي العالي للواجب الاجتماعي والثبات في النضال من اجل الجديد في العمل وفي الحياة والعزم الصادق والشعوور السامي تجاه الجماعية ـ هذه هي المبادىء الخلقية السامية التي يحملها المساهمون في هذه الحركة . ان هذه الحركة تعلم الناس السوفياتيين وخصوصا الشباب على العيش والعمل بأسلوب شيوعي . وفي هذا تكمن اهميتها التاريخية الكبيرة .

ان تربية الخلق الشيوعي في هذه المرحلة مرتبطة ارتباطا وثيقا بحل المهام العملية للبناء الشيوعي . وفي مجرى المساهمة النشيطة في بناء الشيوعية ، بالذات ، وبتطور اسس الشيوعية في الحياة الاقتصادية والسياسية ، وتحت تأثير كامل نظام العمل التربوي للحزب والمنظمات الحكومية والاجتماعية يتكون الانسان الجديد . وفي مجرى خلق الاشكال

الشيوعية للتنظيم الاجتماعي ترسخ المبدئية الشيوعية بصورة اقوى وامتن في الحياة والعمل وفي العلاقات المتبادلة بين الناس وتنشأ القدرة على الاستفادة بصورة عقلانية من خيرات الشيوعية» .

ان كل خطوة في طريق الشيوعية تعني توسيع ميدان تأثير العامل الاخلاقي وتعزيز دور مبادىء الخلق الشيوعي في حياة وتطور المجتمع السوفياتي . اما ميدان الضبط الاداري للعلاقات المتبادلة بين الناس فانه يضيق تبعا لذلك . وانطلاقا من هذا فان الحزب الشيوعي والحكومة السوفياتية يضعان مهمة دعم وتشجيع جميع اشكال نشاط الجماهير التي تساعد على ترسيخ وتطوير القواعد الاساسية للمجتمع الشيوعي ، بكل الوسائل .

البقايا الدينية في ظل الاشتراكية وطرق التغلب عليها

ان الكنيسة في الاتحاد السوفياتي منفصلة عن الدولة والمدرسة منفصلة عن الكنيسة . وهذا يعني ان الكنيسة ليس لها حق التدخل في شؤون الدولة والتأثير على محتوى التعليم وتنظيماته . ومن جهة اخرى فان الدولة لا تتدخل في ممارسة الفرائض الدينية .

ومن الطبيعي ان عزل الكنيسة عن الدولة لا يعني ابدا ان الكنيسة هي خارج رقابة الدولة . ذلك ان مصالح الشغيلة تفرض قطع الطريق على اية نوايا معادية للثورة او محاولات من جانب رجال الدين لانتهاك قوانين الدولة . فمثلا بعد ثورة اكتوبر الاشتراكية العظمى مباشرة بدأ العديد من ممثلي الاكليروس كفاحا ضد السلطة السوفياتية ولهذا اتخذت ضدهم اجراءات قمعية .

لقد قضي في بلادنا على القاعدة التي تستند اليها الكنيسة وقوضت الجذور الاجتماعية للدين وذلك نتيجة انتصار الاشتراكية وتصفية الطبقات المستغلة . ان الطابع العفوي لتطور الراسمالية الذي ولد لدى الشغيلة الخوف وعدم الثقة بالغد ، ترك مكانه للادارة الواعية المبرمجة للمجتمع على اساس القوانين المعروفة . ويرتفع المستوى الثقافي للمواطنين السوفياتيين وينمو وعيهم ونشاطهم . ونتيجة لهذا فان القسم الاعظم من الناس السوفيات قد قطعوا صلتهم بالدين ويقفون بقوة الى جانب وجهة النظر العلمية .

ومع هذا يوجد في ظل الاشتراكية اناس يحملون نظرات خاطئة دينية . وان اسباب وجود هذه المفاهيم القديمة هي نفس اسباب وجود سائر بقايا الماضي : تأخر الوعي عن تطور الوجود وتأثير الايديولوجية

البورجوازية ونواقص العمل التربوي . وما عدا هذا فان احد الاسباب الهامة لوجود البقايا الدينية هو الكفاح غير الكافي ضد الدين من جانب المنظمات الاجتماعية والمؤسسات العلمية والثقافية .

ان الاراء الدينية الخاطئة تسبب ضررا هائلا للبناء الشيوعي . **فالايمان بالله وبالحياة الاخرة يصرف الناس السوفياتيون عن حل المهمات الهائلة لاعادة بناء المجتمع** على اسس شيوعية ويعيق المؤمنين من ان يساهموا بنشاط في الحياة الاجتماعية ويشل ارادتهم ويحرمهم من النظر الى المستقبل . **وتضر الفرائض الدينية صحة المؤمنين كثيرا - التعميد ، الصيام والتناول والتفسيل ومختلف الخزعبلات والتعاويذ ... الخ** . وفي القرية كثيرا ما تعيق الاعياد الدينية الكولخوزيين عن انجاز اعمال الحقول في وقتها ، الامر الذي يسبب اضرارا جدية للاقتصاد الاجتماعي .

ان الخلق الديني وتبشيره بعدم مقاومة الشر يبلد الشعور الطبقي لدى المؤمنين ويعمي يقظتهم . ولهذا فان الحزب الشيوعي في الاتحاد السوفياتي يعير انتباها للعمل ضد البقايا الدينية وينظر للتربية العلمية الالحادية كجزء مكون من التربية الشيوعية .

ومن مظاهر الاهتمام الدائب من جانب الحزب بتطور الدعاية العلمية - الالحادية قرار اللجنة المركزية للحزب الشيوعي في العاشر من تشرين الثاني ١٩٥٤ : « حول الاخطاء في تطبيق الدعاية العلمية - الالحادية بين السكان » . وقد اوضح في القرار بان النضال ضد الدين ، والدعاية العلمية - الالحادية يستهدفان نشر المعارف العلمية المادية بين الجماهير وتحرير المؤمنين من تأثير الاراء الدينية الخاطئة . وبهذا الصدد اشار القرار الى ان النضال ضد الاراء الدينية الخاطئة كنضال ثابت من جانب المفهوم العلمي المادي ضد المفهوم الديني المعادي للعلم . ان الحزب يريد ان يجري شن النضال الفكري ضد الدين من مواقع المادية الدياليكتيكية ؛ وعلى اساس منجزات العلوم الطبيعية والتطبيق الاجتماعي - التاريخي .

ان التنظيم الصحيح للتربية الالحادية في العائلة والمدرسة والدعاية العلمية - الالحادية المنظمة والنهوض المستمر بمستوى الجماهير الثقافي ووعيها وفعاليتها في بناء الشيوعية كل ذلك سيؤدي الى زوال البقايا الدينية تدريجيا .

٧ • العلـــم •

جوهر العلم ودوره في تطور المجتمع

العلم هو مجموع معارف الانسان عن الطبيعـــة والمجتمع والتفكير . وهو يعكس العالم في مفاهيم وكاتيكوريات (مفاهيم اساسية) وقوانين يجري التأكد من صحتها وحقيقتها بالتطبيق .

ان العلم المعاصر كله يمثل مجموعا من مختلف العلوم الحسية التي تدرس ميادين محددة من العالم المادي . وفي انواع العلوم المتعددة هذه يجب ان نفرق بين العلوم **الاجتماعية** : التاريخ . الاقتصاد السياسي ، الفلسفة ، علم الجمال (استيتيكا) و . . . الخ . والعلـوم **الطبيعية** : الميكانيك . الرياضيات ، الفيزياء ، الكيمياء ، البيولوجيا (علم الاحياء) وغيرها .

لقد ولد العلم من التطبيق وتطور على اساس التطبيق . وان حاجات الانتاج المادي هي المحرك الرئيسي لتطور العلم . كتب انجلز يقول : « اذا ما ظهرت لدى المجتمع حاجة تكنيكية فانها تدفع العلم الى امام اكثر مما تدفعه عشر جامعات » (١) . ان الانسان اصطدم ، منذ المجتمع البدائي ، في سعيه وراء وسائل معيشته ، بمختلف القوى الطبيعية وحصل علـــى المعارف الاولى السطحية عنها . وكان لهذه المعارف طابع تجريبي ، ولم تكن علمية . ولم يظهر العلم كشكل خاص من الوعي الاجتماعي الا متأخرا وذلـك في مجتمع ملاك العبيد ، عندما انفصل العمل الفكري عن العمل البدوي وظهرت مجموعة خاصة من الناس هي العلماء الذين انشغلوا بالابحاث العلمية فقط .

وهناك خاصية هامة جـدا في تطـور العلم هي **استمرارية** المعـارف العلمية . فكل جيل انساني جديد ، وكل مجتمع جديـد يظهر لا يهمـل منجزات الماضي العلمية ، وانما يستوعبها ويطورها الى الامام طبقا للحاجات العلمية الجديدة .

ان العلم الذي ظهر على اساس الانتاج والتطبيق يخدم حاجات الناس العملية ، واغراض الانتاج وله اهمية كبيرة في تطور المجتمع . انه يسلح الناس بمعرفة القوانين الموضوعية ويزيد من سيطرتهم على القوى الطبيعية ويكشف امامهم الطرق نحو حياة افضل ويسهل عملهم اليومي . ان العلـم يوسع افق اطلاع الانسان ويخلصه من الخرافات والاراء الخاطئة السابقة ويساعده على صياغة وجهة نظر علمية .

والعلم عندما يتطور في المجتمع ، في ظروف اسلوب انتاج معين .

(١) ماركس وانجلز : المؤلفات المختارة جزءان ج ٢ ص ٤٨٤ .

يرتبط بالمجتمع ويتأثر به . وتعبر العلوم الاجتماعية عن مصالح طبقة معينة وتساعد على توطيد او تدمير هذه القاعدة او تلك ، رغم انها ليست مرتبطة بالانتاج بصورة مباشرة . اما العلوم الطبيعية فانها مرتبطة بالانتاج بصورة مباشرة .

ان تطور العلم يتعلق بدرجة كبيرة بالنظام الاجتماعي ، بالعلاقات الاقتصادية المسيطرة في المجتمع . اذ بها يتعلق اتجاه وسرعة تطور العلم وكذلك الاستخدام الاجتماعي للمنجزات العلمية . ففي مرحلة نشوء الراسمالية كانت علاقات الانتاج الرأسمالية مثلا عاملا جبارا في تطور العلم : حيث تطلب الانتا جالراسمالي – المتطور ، تطورا عاصفا ، معارف علمية جديدة وجديدة . اما عند انتقال الى الاستعمار فان هذه العلاقات تحولت الى عائق للتقدم العلمي .

فالعلم بالنسبة للبورجوازية وسيلة في الصراع ضد المزاحمين واداة للحصول على اعلى الارباح ، ولهذا فان الراسماليين يهتمون قبل كل شيء بتطوير تلك الفروع من العلم التي تؤمن لهم ارباحا ضخمة . ونظرا لان اكثر فروع الانتاج ربحافي العالم الراسمالي المعاصر هي الصناعة الحربية فان الاحتكارات تبدي عناية خاصة بتطوير تلك العلوم التي تعد للحرب وتهتم بانتاج الاسلحة الذرية والكيماوية والبكتريولوجية وغيرها من وسائلالقتال الوحشية .

ان البورجوازية الاستعمارية المعاصرة ذات مصلحة في التمسك بالمفاهيم المثالية والدينية ونشرها . ولهذا فانها تفرض على العلوم الطبيعية اسلوبا للبحث مثاليا وميتافيزيقيا . وتحاول اخضاعالمعارف للايمان . وهي تسعى الى ان تحرف بأي ثمن كان ، العلوم الطبيعية والباحثين الطبيعيين عن اتجاههم الحتمي نحو المادية ومن اجل ان توجههم في الطريق الخاطيء ، طريق المثالية والدين . وعندما يحقق الباحثون الطبيعيون نجاحات جدية في ميادين محددة من العلوم فان البورجوازية تحاول عن طريق كويتبيها المأجورين – بروفسوري الفلسفة والعلماء الرجعيين – تشويه هذهالمنجزات وتفسيرها بروح مثالية .

اما فيما يتعلق بعلم الاجتماع البورجوازي فانه دفاع مباشر عن النظام الراسمالي وتزيين للواجهة المهترية للراسمالية وهجوم مكلوب على الشيوعية والتقدم في العالم كله .

وطبيعي ان يوجد في المجتمع الرأسمالي العديد من العلماء الذين يدينون الاستعمار ويقفون في مواقع المادية والسلم والتقدم . غير ان السياسة في ميدان العلم تحددها بالتالي الطبقة المسيطرة – البورجوازية

الرجعية الاحتكارية .

العلم السوفياتي ودوره في بناء الشيوعية

ان العلم في المجتمع الاشتراكي وسيلة هامة لتطور الانتاج ولتحسين الرفاه المادي ورفع مستوى الشغيلة الثقافي وتربيتهم الشيوعية . انه يعطي امكانية لان تستخدم ، بالصورة الاكثر ملاءمة ، ثروات وقوى الطبيعة لصالح الشعب وان تكتشف انواع جديدة من الطاقة والمواد الانتاجية وان تعد اساليب للتأثير على الظروف المناخية ومن اجل قهر الفضاء . ان العلم السوفياتي سلاح جبار للسلم والابداع ومن اجل التقدم الاجتماعي الذي لا سابق له .

ان احدى اهم خصائص العلم السوفياتي هي اصالته الشعبية جدا ، هذا الطابع الذي يظهر ليس فقط في ان العلم يخدم الشعب وانما ايضا في ان الشعب يحصل على امكانية واسعة للحصول على العلم . ان عشرات الالوف من العلماء السوفياتيين خرجوا من صفوف الشعب الذي يهبونه كل طاقاتهم ومعارفهم . والى جانب العلماء يقوم ملايين المجددين في الانتاج والمخترعين ومحسني العمل بين العمال والكولخوزيين بدفع العلم السوفياتي الى امام .

ان التعبير الواضح عن الطابع الشعبي الاصيل للعلم السوفياتي هو ارتباطه الوثيق بالانتاج ، بحياة وعمل ملايين الشغيلة . هذا الارتباط الذي يبدو سواء في ان الابحاث العلمية في الاتحاد السوفياتي تستهدف خدمة الانتاج او في انها تتم مباشرة في الانتاج ، في العديد من معاهد الابحاث العلمية ومكاتب التصاميم والمختبرات وسائر المعاهد والاقسام في المصانع والمعامل والكولخوزات والسوفخوزات .

ان النظام الاشتراكي يسمح بتنظيم الابحاث العلمية وفقا لبرنامج حكومي عام وبتنسيق عمل معاهد الابحاث العلمية الكثيرة العدد ، الامر الذي يمكن من تركيز انتباه وجهود العلماء على حل المسائل الهامة جدا . ان المفهوم المادي الدياليكتيكي الذي يسود في ظل الاشتراكية يخلص العلم السوفياتي من التأثير المفسد للمثالية والدين ويسلح العلماء بالاسلوب العلمي الوحيد لبحث العمليات الطبيعية والاجتماعية .

ولقد حقق العلم السوفياتي نجاحات هائلة بفضل عناية الشعب واهتمام الحزب والحكومة . ووضع العلماء السوفيات ايديهم على اسرار الطاقة الذرية ، واطلقوا الاقمار الصناعية ـ حول الارض وانشأوا اول الصواريخ والسفن الفضائية ، واضعين بهذا بداية عصر جديد في تطور

العلم ـ عصر قهر الفضاء . ان هذه المنجزات الرائعة لم تكن ممكنة لو لم تكن قد تطورت تطورا عاليا مجموعة علوم الفيزياء والالكترونيك والكيمياء والراديو تكنيك والرياضيات وغيرها .

ان العلم السوفياتي عامل هام في بناء الشيوعية . فالعلوم الطبيعية تلعب دورا حاسما في التقدم التكنيكي وفي تطور وترقية التكنيك وعادات الانتاج بالنسبة للشغيلة ورفع مستواهم الثقافي والتكنيكي . وهكذا اصبح استخدام منجزات العلم عاملا حاسما في التطور الجبار للانتاج الاشتراكي. وتحول العلم الى قوة منتجة مباشرة .

كما ان للعلوم الاجتماعية اهمية عظيمة ايضا . فانها اذ تسلح الناس السوفياتيين بمعرفة القوانين الاجتماعية تمثل اساسا علميا لقيادة تطور المجتمع وتلعب دورا كبيرا في التربية الشيوعية ولاستيعاب المفهوم المادي الدياليكتيكي من قبل الشغيلة .

أن المهمات الحسية التي تواجه العلم السوفياتي في مرحلة بناء الشيوعية على نطاق واسع قد صيغت في البرنامج الجديد للحزب الشيوعي في الاتحاد السوفياتي ، وفي سائر قرارات الحزب والحكومة . وقد اوضح في البرنامج بأن التطور المطرد للعلم والتكنيك تحدده قبل كل شيء الفروع الاساسية للعلوم الطبيعية : الرياضيات والفيزياء والكيمياء والبيولوجيا (علم الحياة) . ان العلوم الفيزيائية ـ الرياضية والكيميائية والتكنيكية تواجه مهمة حل قضايا ترتبط بانشاء القاعدة المادية والتكنيكية للشيوعية، وتعجيل التقدم التكنيكي . وهنا يتعلق الامر بالابحاث العلمية في ميدان كهربة البلاد كهربة كاملة والمكننة المجموعية والاتمتة الواسعة للانتاج والنقل والمواصلات وفي ميدان اشاعة الكيمياء في اهم فروع الاقتصاد الوطني وفي استخدام الطاقة الذرية للاغراض الانتاجية .

ان مهمة علم الزراعة الرئيسية هي اعادة بناء نظام الزراعة بصورة ثورية وضع تركيب حيوي فعال للمحاصيل بهدف الحصول على اقصى كمية من الانتاج في الهكتار الواحد من الارض المحروثة . وتساعد العلوم البيولوجية على حل قضايا التطر المطرد للانتاج الزراعي وكذلك قضايا الطب . ومهماتها الرئيسية هي تبيان جوهر الحياة وادراك اساليب جريان العمليات الحيوية وتطوير واتقان اساليب معالجة الامراض ودراسة وتوسيع استخدام الحوينات في الزراعة والطب .

وان مهمات العلوم الاجتماعية تنبثق من ضرورة تعميم تطبيق البناء الشيوعي وتربية الانسان الجديد ـ انسان الشيوعية . ومهمة هذه العلوم هي ان تدرس بعمق قوانين تطور اقتصاد الاشتراكية وسياستها وثقافتها

وتحول الاشتراكية تدريجيا الى الشيوعية ، وان تعـد مسائل التربية الشيوعية وتفضح بحزم الايديولوجية البورجوازية وتناضل ضد التحريفية والجمود العقائدي .

ان العلماء السوفياتيين ، اذ تلهمهم افكار الشيوعية والرعاية الدائمة من جانب الحزب والدولة السوفياتية وتأييد واهتمام الشعب ، يحلون بنجاح المهام التي تواجههم .

٨ . الفـن .

الخصائص الرئيسية للفن ودوره في حياة المجتمع

الفن شكل من اشكال انعكاس الواقع في وعي الانسان على هيئة نماذج جميلة (فنية) . ان الفن اذ يعكس العالم المحيط يساعد الناس على التعرف عليه وهو وسيلة جبارة للتربية السياسية والاخلاقية والفنية .

ان تنوع الظواهر والاحداث في الواقع ، وكذلك الاختلاف في اسلوب انعكاسها في الاعمال الفنية ولدت انواعا واشكالا مختلفة للفن : الادب ، المسرح ، الموسيقى ، السينما ، الفن المعماري ، الرسم ، النحت .

واهم خصائص الفن هي انه خلافا للعلم يعكس الواقع لا بشكل مفاهيم وانما **بشكل ملموس ، حسي مدرك** ، بشكل نماذج فنية متميزة . ان الفنان اذ يبدع نموذجا فنيا ويكشف ملامح الواقع العامة الجوهرية فانه يقدم هذه الملامح بواسطة ميزات فردية غالبا ما لا تتكرر . وعن طريق ظواهر ملموسة في الطبيعة والحياة الاجتماعية . ولذا فكلما برزت ملامح النموذج الفنية بصورة اوضح واكثر حسية كان هذا النموذج الفني اكثر جاذبية واكثر تأثيرا .

لنأخذ ، مثلا ، نموذجا معروفا لدينا بصورة جيدة هـو كريكوري ملخوف من قصة « الدون الهادىء » لمخائيل شولوخوف . في هذا النموذج تتجسد بصورة واضحة السمات التي تميز قوزاقي الدون الاوسط - تناقضه وتردده بين الشغيلة والاغنياء . وفي الظروف الصعبة حيث يصنع العالم الجديد يوجد الكثيرون من امثال كريكوري المترددين ، الباحثين عن مكانهم في الحياة . ومع هذا فلا يمكن خلط كريكوري بأي انسان اخر بالمقدار الذي تكون فيه سماته فردية ، خاصة ، حسية . ولهذا يثير نموذج كريكوري القارىء بعمق . ولهذا ايضا فان الكاتب عندما حدث الناس عن المصير المأسوي لبطله فانه دلل بشكل مقنع على ان الانسان يمكن ان يجد السعادة الحقيقية فقط عندما يساهم في نضال شعبه وعمله .

لقد ظهر الفن منذ فجر المجتمع البشري . وانبثق في مجرى العمل في مجرى نشاط الناس التطبيقي . والتحم الفن اول الامر بصورة مباشرة بنشاط الناس العملي وحافظ على صلته حتىاليوم بنشاط الناس المادي والانتاجي وان كان بصورة اقل التصاقا . انالفن الحقيقي كاندائما مساعدا مخلصا للناس في العمل والحياة . فقد اعان الناس على النضالضد قوى

لقد تطوورت لدى الناس في مجرى العمل مشاعر وحاجات جمالية وفهم لما هو جميل في الواقع لتعميمه وتصويره وعكسه في نماذج فنية وجعله في متناول الانسان وتلبية حاجاته الجمالية عن هذا الطريق وتربية مشاعر جمالية لديه ــ وتلك هي احدى خصائص الفن الهامة ومهماته .

ان الفن في المجتمع الطبقي له طابع طبقي حزبي اذ لا يوجد« فن صرف » و « فن للفن » ولا يمكن ان يوجد . ان كون الفن سهلالتناول والفهم وقدرته العظيمة على الاقناع وقوة تأثيره العاطفي تجعل منه سلاحا جبارا في الصراع الطبقي . ولهذا فان الطبقات تستخدم الفن كمعبر عن افكارهم السياسية والاخلاقية وغيرها .

ان الفن جزء من البناء الفوقي وهو يخدم القاعدة التي يتطور على اساسها. فالفن البورجوازي المعاصر مثلا يخدمالقوى الاستعماريةالرجعية. انه يحاول ان يحرف الشغيلة عن النضال ضد المستغلين ويربي لدىالناس صفات لا اخلاقية ، وعدم احترام ، للشعوب والدول الاخرى وقوى السلم والتقدم . ان الفن البورجوازي احدى وسائل اطراء العلاقات الراسمالية والافتراء على المبدا الشيوعي والحركة الشيوعية . وهو اذ يدافع عنمصالح الطبقات الشائخة فانه يبتعد عن الحقيقة الفنية ويصبح شكليا وبلا محتوى. ومنالطبيعي ان يوجد بينالفنانين البورجوازيين المعاصرين واقعيون يعكسون الحياة بأمانة وعمق . غير ان الاوساط الاستعمارية الحاكمة ليس فقط لا تنظر اليهم بارتياح وانما تلاحقهم بجميع الوسائل .

أن كل طبقة تصنع فنها الذي يتجاوب مع مصالحها الطبقية وحاجاتها الاخلاقية . الا انه يوجد بين الاعمال الفنية الكثير من الاعمال التي تجاوزت طبقتها وعصرها . وهذه هي الاعمال التي تعكس بغنى ووضوح سمات انسانية عامة ليست وقتية ، سمات تميز الناس في مختلف العصور وكذلك الاعمال التي تعين على التعرف على جوهر هذا العصر او ذاك او هذهالطبقة او تلك. وامثال هذه الاعمال هي التماثيل الرائعة للفنانين الاغريق القدماء ورسوم فناني عصر النهضة وموسيقى المؤلفين الموسيقيين الروس الساحرة في القرن التاسع عشر وكثير غيرها من الاعمال الفنية التي اصبحت منذ

امد بعيد ملكا للبشرية جمعاء . ومن هنا تنبثق خاصية اخرى للفن وهي الاستمرارية في تطوره . ان فن كل عصر يحافظ على كل ما هو تقدمي وعلى اجمل ما في فن العصور التاريخية السابقة .

الفن الاشتراكي ودوره في بناء الشيوعية

لقد انبثق على اساس النضال الثوري للطبقة العاملة وحركتها نحو الشيوعية فن سوفييتي ، اشتراكي من نوع جديد . ان الفن الاشتراكي الذي ورث كل ما هو جميل في الفن التقدمي في الماضي يمثل مرحلة اعلى في تطور الفن تتجاوب والظروف التاريخية الجديدة .

ان اسلوب الفن السوفييتي الخلاق هو **الواقعية الاشتراكية** ، التي تتطلب ان يجري التعبير عن المحتوى الرئيسي لعصرنا ـ حركة المجتمع نحو الشيوعية ـ بصورة صادقة ، ملموسة تاريخيا وبفنية عالية . ان فن الواقعية الاشتراكية لا يقف في مكان واحد وانما يتطور باستمرار ويزداد غنى .

ان **صدق وعمق** تصوير الواقع **والشعبية والحزبية والتجديد الجريء** في التعبير الفني عن الحياة التي تتوافق مع الاستفادة من جميع التقاليد التقدمية في الثقافة العالمية وتطويرها ـ هذه هي المبادىء الاساسية للواقعية الاشتراكية . انها تمتاز بالمحتوى الاشتراكي العميق والتنوع والشكل الوطني الواضح . واسلوب الواقعية الاشتراكية يفتح امام الكتاب والفنانين وغيرهم من رجال الفن مجالا واسعا للمبادرة الخلاقة والمهارة العالية لخلق اشكال وانماط والوان مبدعة متنوعة .

ان الفن الواقعي الحقيقي كان باستمرار مرتبطا بالشعب وذا جذور بين الشعب . غير ان التاريخ لم يعرف حتى الان مثل هذه الرابطة العضوية بالشعب ، بعمله وحياته التي تميز الفن الاشتراكي . يقول لينين محددا الطابع الشعبي للفن الاشتراكي : « ان الفن يعود للشعب . انه يجب ان يمد جذوره في اعمق اعماق جماهير الشغيلة الواسعة . ويجب ان يكون مفهوما من قبل هذه الجماهير ومحبوبا من جانبها . انه يجب ان يوحد مشاعر وافكار وارادة هذه الجماهير وان ينهضها وان يوقظ الفنانين بينها وان يطورها » (١) .

ان طابع الفن الاشتراكي الشعبي يتفق بصورة تلقائية مع حزبيته . ان فننا يخدم بصورة صريحة ومباشرة الطبقة العاملة وجميع الشغيلة ويربط

---

(١) لينين : حول الثقافة والفن ١٩٥٦ ص ٥٢٠ .

مصيره بسياسة الحزب الشيوعي وبالمفهوم الماركسي اللينيني .

ان التحريفيين يهاجمون المبدأ الماركسي اللينيني عن الحزبية في الفن ويتحدثون ضد القيادة الحزبية في الفن بزعم انها تضيق حرية الفنان في الابداع وتحد من فرديته المبدعة و ... الخ. اما في الواقع فانمبدأ الحزبية يؤمن مستوى فكريا وفنيا عاليا للفن الاشتراكي ويوجهه نحو حل اشد القضايا الاجتماعية الحاحا وهو شرط لازم للحرية الحقيقية في الخلق الفني . « ان كل منا يكتب كما يملي عليه قلبه ، وقلوبنا تعود لحزبنا ، لشعبنا الذي نخدمه بفننا » . بهذه الروعة عبر ميخائيل شولوخوف عن افكار وآمال ممثلي الفن السوفييتي واخلاصهم للشعب وللحزب .

ان الحزب الشيوعي يعير انتباها كبيرا لتطوير وترفيهالفن الاشتراكي ويبذلعنايته من اجل انيبدع الفنانون السوفييت اعمالا فنية تمتازبالصدق والسمو الفكري والفنية العالية . وهو يربيهم دائما بروح الاخلاص للشعب والشيوعية ، بروح عدمالتسامح تجاهالنواقص وعدم التسامح تجاهالسلبية والابتعاد عن السياسة . ان الحزب يضع نصب عينيه في المستقبل ايضا مهمة العناية بدون كلل بالازدهار المطرد للادب والفن والتربية الجمالية للشعب ولتكوين ذوق فني عالي وعادات ثقافية لدى الشغيلة .

ان برنامج الحزب الشيوعي في الاتحاد السوفييتي وتوجيهات اللجنة المركزية للحزب بشأن القضايا الايديولوجية وتحاياها الى مؤتمرات الكتاب والفنانين والموسيقيين لها اهمية كبيرة في تطور الفن السوفييتي . فقد حدد في هذه الوثائق طريق تطور الفن السوفييتي واوضح دوره العظيم في بناء الشيوعية .

ان مهمة الفن السوفييتي في مرحلة البناء الواسع للشيوعية هي ان يربي لدى الناس صفات سياسية وخلقية وجمالية عالية ، وان يساعد على التغلب على بقايا الماضي في وعيهم وان يبرز بصورة عميقة وصادقة عمل الشعب ونضاله البطولي وان يكشف الغنى الروحي لانساننا المعاصر وافكاره ومشاعره ومطامحه وان يدين بلا رحمة كل ما يعيق المجتمع السوفييتي عن السير الى امام وان يلهم الناس السوفييتيين مآثر جديدة باسم الشيوعية. وللفن دور كبير خصوصا في التربية **الجمالية** للشغيلة ، هذه التربية التي تكون جزءا هاما من التربية الشيوعية . ان الفن يجب ان يساعد الناس السوفييت على إدراك ما هو رائع وان يربي لديهم مشاعر جمالية وان يعمل على ايقاظ وتطوير مواهبهم واذواقهم الفنية . جاء في برنامج الحزب الشيوعي في الاتحاد السوفييتي « ان الاتجاه الرئيسي لتطور الادب والفن هو تعزيز روابطهما بحياة الشعب والافصاح الصادق وبلغة الفن الرفيع عن

لروة الواقع الاشتراكي في شتى وجوهه والرسم الملهم والساطع للجديد ، الشيوعي حقا ، والتشهير بكل ما يعيق تقدم المجتمع الى الامام » (١) . ان الواجب الاجتماعي الاسمى للادب والفن هو ان يلهم الشعب في نضاله من اجل نجاحات جديدة في بناء الشيوعية .

لقد ورد في برنامج الحزب الشيوعي في الاتحاد السوفييتي ان التطور المطرد واغنـاء الكنز الفني للمجتمع يتحقق عن طريق التوفيق بين نشـاط الفنـانين الهواة الواسع وبين الفن المحتـرف . وبالاقتراب من الشيوعية ستنتشر على نطاق واسع المسارح الشعبية ونشاط الفنانين الهواة الجماهيري وغيرها من اشكال الابداع الشعبي . وسيتزايد بين المشاركين في النشاط الفني للهواة عدد الموهوبين الجدد كتابا ورسامين ، موسيقيين وممثلين ، وسيصل الادب والفن السوفياتيان الـى ذرى جديـدة في تطور المحتوى الفكري والمهارة الفنية .

(١) برنامج الحزب الشيوعي في الاتحاد السوفييتي ـ الطبعة العربية ص ١٦٤ .

خاتمـــة

حوالي اواسط القرن التاسع عشر أزيح النظام الاقطاعي في العديـد من البلدان من قبل الراسمالية ومع الراسمالية خرجت البروليتاريـا الى مسرح التاريخ ــ وهي الطبقة الاكثر تقدمية والثورية حتى النهاية والمدعوة لان تقضي الى الابد على استغلال الانسان للانسان وان تبني المجتمع الجديد، الشيوعي . ان حركة البروليتاريا التحرزية وضعت امام العلم مهمة جليلة للغاية ــ وهي مهمة وضع نظريـة علميـة تسـاعد البروليتاريا على تحقيق رسالتها التاريخية وان تكون سلاحا فكريا في النضال ضد الراسمالية من اجل الاشتراكية والشيوعية ، وقد انجز العلم هذه الحاجة الملحة للنظرية ؛ وبجهود القائدين العبقريين للطبقة العاملة ولكل الشغيلة ــ ماركس وانجلز، وضعت الماركسية، وكانت الفلسفة الماركسية ــ المادية الدياليكتيكية والمادية التاريخية جزءا مكونا فيها وإساسا نظريا لها .

ان الفلسفة الماركسية اللينينية هي النظرية العلمية والطريقةالوحيدة لمعرفة وتفسير الواقع . ولقد برهنت بشكل لا يدحض على ان العالم مـادي في جوهره ، وان كل شيء فيه يتغير ويتطور ويسير الى امام من الاسـفل الى الاعلى ، من القديم الى الجديد . ان الفلسفة الماركسية اذ تقدم لوحـة صادقة عن العالم وتكشف اعم قوانين الطبيعـة والمجتمع ، تمثل وسيلـة جبارة للنشاط الثوري . وهي اذ تعكس الدياليكتيك الموضوعي للتـاريخ تقوم بدور الاساس النظريلاستراتيجية وتاكتيك الاحزاب الماركسية . ان التحليل العميق لتناقضات التطور الاجتماعي ، والمبـارة في كشف هـذه التناقضات . والتغلب عليها في الوقت المناسب لصالح التقـدم الاجتماعي والانطلاق التاريخي الملموس في حل اهم المسائل التاريخية والقدرة علـى رؤية الجديد في الحياة من اجل الاستناد اليه والنضال من اجل انتصاره ــ هذه هي اهم متطلبـات الدياليكتيـك المادي الذي تسترشـد به الاحزاب الماركسية ، منظمة العمل الجبار لاعـادة بنـاء المجتمع بصورة ثورية . ان الفلسفة الماركسية هي سلاح نظري ماض جدا بيد الطبقة العاملة فينضالها

ضد الايديولوجية البورجوازية وضد التحريفية والجمود العقائدي وضد التعصب القومي والانعزالية .

ان الفلسفة الماركسية اللينينية هي تعاليم مبدعة حية دائما . انها لا تقف في مكان واحد وانما تسير الى امام دائما خطوة فخطوة مع الحياة المتغيرة ، وذلك باغتنائها بالمنجزات العلمية الجديدة والممارسة الاجتماعية التاريخية . ان لينين العظيم صان الفلسفة الماركسية وطورها في ظروف اكبر انقلاب اجتماعي لسير البشرية من الراسمالية الى الاشتراكية ، في ظروف احدث ثورة للعلوم الطبيعية . واليوم يرفع علم الماركسية الخلاقة الظافر عاليا من قبل الحزب الشيوعي في الاتحاد السوفييتي والاحزاب الشيوعية في البلدان الاخرى .

كتب لينين : « ان تعاليم ماركس جبارة لانها صحيحة ، واليوم فان الحقيقة العظمى للماركسية قد تأكدت من قبل الحياة نفسها في تطبيق اعظم ثورة في العالم ، وفي اعادة بناء المجتمع على اساس اشتراكي . ان ظهور وتطور النظام الاشتراكي العالمي وانتصار الاشتراكية انتصارا تاما ونهائيا في الاتحاد السوفييتي وحركة البشرية التي لا تغلب نحو المستقبل الشيوعي الوضاء انما دليل مقنع لا يقبل الجدال على انتصار افكار الماركسية اللينينية الجبارة . ان العصر التاريخي الجديد قد جلب معه نصراً تاريخيا للمفهوم الثوري للبروليتاريا وان الماركسية تسيطر على افكار الانسانية التقدمية . » .

ان انتصارات الاشتراكية هائلة ولا جدال فيها . ولكن ينبغي ان لا ننسى بان الراسمالية لا زالت موجودة في العديد من بلدان العالم . وبهذا الصدد فان الايديولوجيا البورجوازية الرجعية المعاصرة تلعب دورا ليس بالقليل ، وهي تسعى بكل القوى لتبرر وجود الراسمالية ولتؤجل تنفيذ حكم الموت الذي اصدره التاريخ ضدها . وفي النضال الضاري بين الايديولوجيا الشيوعية والايديولوجيا البورجوازية الذي يشن اليوم ستنتصر الايديولوجيا الشيوعية ، فمعها الحقيقة التي زكتها الحياة والحقيقة لا تقهر ، وهذه

الحقيقة العظيمة هي افكار الشيوعية الجبارة التي تستحوذ على عقول وقلوب جميع الناس في الارض . اما فيما يتعلق بالايديولوجيا البورجوازية فانها لا تصمد امام امتحان التاريخ . انها لم تعط ولا تستطيع ان تعطي جوابا علميا على الاسئلة التي يضعها التطبيق والحياة . ان البورجوازية اليوم عاجزة عن ان تقدم الافكار التي تجذب وراءها الجماهير الشعبية . ان الايديولوجيا البورجوازية تعاني ازمة عميقة . وان افلاسها التام امر حتمي كما هو حتمي موت النظام الاجتماعي الذي تمثله .

لقد ادركت الانسانية الوجه الحقيقي للراسمالية ولا تريد ولا يمكن ان تتحمل وجودها في المستقبل . ان ايام العالم الراسمالي اصبحت معدودة . فالراسمالية التي فات اوانها ستستبدل بالمجتمع الجديد ، الاكثر عدالة ـ الشيوعية ـ ، فتلك هي السنة الموضوعية للتطور الاجتماعي وذلك هو ديالكتيك التاريخ .

فهــرس

المكتبة التقدمية

Aram Kerkuky

Mouyn